القندس

محمد حسن علوان

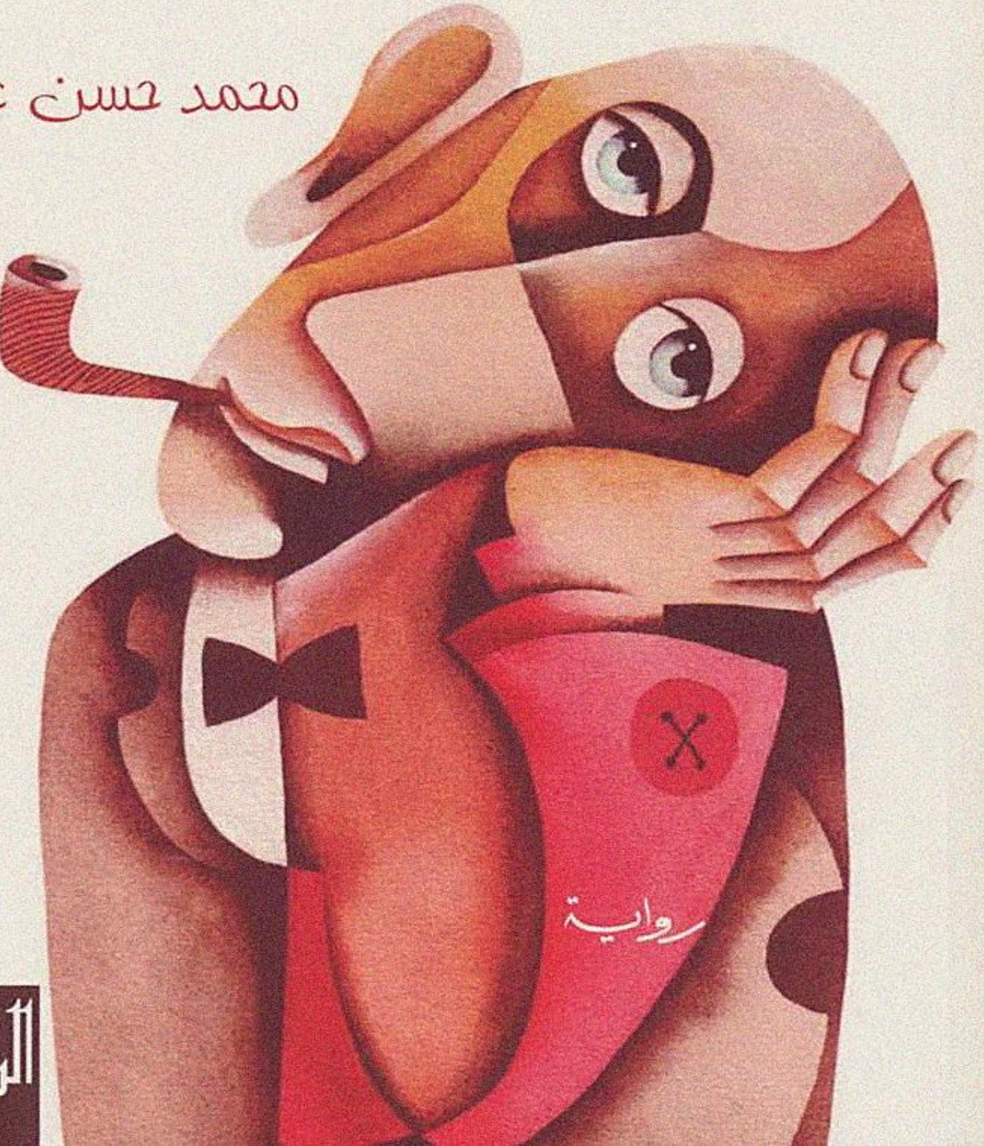

رواية

دار الساقي

كتب أعلام وقادة الفكر العربي والعالمي

الكتب هي ثورة العالم المخزونة ، والارث المناسب للأجيال والأمم

اضغط هنا منتدى مكتبة الاسكندرية

صفحتي الشخصية على الفيسبوك

جديد الكتب على زاد المعرفة 1

صفحة زاد المعرفة 2

الأعمال الكاملة : من هنا

المسرح العربي والعالمي

لتحميل روائع الأدب العربي والعالمي : القصة والرواية من هنا

لتحميل كتب المنظمة العربية للترجمة من هنا

بيت الحكمة

كتب الفلسفة والدراسات السياسية

اجتماع تربية وعلم نفس

كتب السياسة ، اقتصاد وقانون

الصحافة والإعلام-الفنون السبعة

سلاسل كتب ، مجلات ودوريات

مكتبة نوبل

كتب مشروع كلمة

موسوعات قواميس ومعاجم

كتب العلوم والطبيعة

أضغط هنا مكتبتي على تويتر

ومن هنا عشرات آلاف الكتب زاد المعرفة جوجل

محمد حسن علوان

القندس

رواية

دار الساقي
بيروت - لندن

دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠١١

ISBN 978-1-85516-836-7

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان

الرمز البريدي: ٦١١٣ - ٢٠٣٢

هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١ ٠، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١ ٠

e-mail: info@daralsaqi.com

تصميم الغلاف: سحر مغنيّة

١

عندما رأيت القندس أول مرة شعرت بالألفة. ولا بد أنه شعر بذلك أيضاً وإلا ما تسلق الضفة الحجرية وراح يعبث في سلتي وبساطي. تأملت سنّيه البارزتين اللتين اكتستا لوناً برتقالياً شاحباً من فرط ما قضم من لحاء البلوط والصفصاف، فذكّراني لوهلة بما كانت عليه أسنان أختي نورة قبل أن تنخرط في مهمة إصلاحها بالتقويم والجسور حتى بدا فمها في الأشهر المعدودة التي سبقت زفافها مثل موقع بناء نشط. أما ردفه السمين فذكرني بأختي بدرية في زيارتي الأخيرة لها قبل أن أجيء إلى بورتلاند وأكرّر على سمعها امتعاضي من رؤيتها تجرّ وراءها امرأتين أخريين كلما أولتني ظهرها حاملةً صينية شاي ومكسرات رديئة. وعندما رفع إلي عينيه الكلّتين محاولاً أن يقرأ ملامحي ونواياي بدا مثل أمي عندما أخبرها أني موشك على سفر فتستعيذ طويلاً وتحوقل.

صافحته مستعيناً بتمرة لامعة انتقيتها من حافظة بلاستيكية أجلبها معي دائماً إلى النهر. شعرت بأن أظفاره القاسية التي مسّت أطراف

أصابعي تخبّئ تحتها تاريخاً من القلق والمواربة. انتزع التمرة من يدي كما ينتزع أبي ثمار الحياة انتزاعاً وكأن نموّها لا يتجدّد كل سنة. وضعها في فمه ثم لفظها فوراً لتسقط على الأرض. التقطها مرة أخرى وأبقاها في يده هذه المرة. بدا أنه لم يستسغ طعمها السكري ولزوجتها المفرطة ولكنه لن يستغني عنها رغم ذلك. قبض عليها بيد شحيحة ذكّرتني بيد أخي سلمان عندما تقبض على المال مثل معمِّر جرّب القحط والفاقة وليس فتى مدللاً ولد وبين يديه لعبة فيديو حديثة.

مشى على ثلاث ضاماً يده التي تحمل التمرة إلى صدره حتى لا يمرّغها في التراب فاشتبكت أظفار يده الأخرى تحت ثقله مع نسيج البساط. جفل من ذلك وهلة فارتجف جسده المنبعج حتى بدا مثل كرة سلة مصابة بخلل مصنعي. خلص يده من النسيج بحركة شديدة تركت في بساطي أثراً طفيفاً لخيط منزوع وشيئاً من الوحل. وقف على قائمتيه الخلفيتين وألقى نحوي نظرةً خاطفة ليرى إذا ما أزعجني ما قام به. عاد بعد ذلك ليدبّ على ثلاث وقد تأكد أني لاحظت قدرته على الوقوف على قدمين مثلنا لولا أنه يستعين في ذلك بذيله المفلطح الذي أثار اهتمامي فعلاً. هل هو عظم مغطى بالجلد أم زعنفة صلبة بعض الشيء؟

أكمل نصف دورة حولي ثم أولاني ظهره أخيراً وعاد إلى النهر تاركاً وراءه بساطاً مثقوباً ورجلاً غريباً. غاب جسده البيضوي المكسوّ بالفرو البنّي المبتل وهو يسبح مبتعداً بوداعة وهدوء لتتبخر وجوه عائلتي في الفراغ وينطفئ وراء جبيني مصباح الذاكرة.

شعرت بأني قصّرت في قِراه فتركني أو أنه قصّر في شكري فرحل مضرّجاً بالخجل. رميته بحجر فلم يبلغه. رحت أفحص ثقب بساطي محاولاً ألا أفكر في فظاظة رحيله دون تحية رغم اقتسامنا التمر معاً والدقائق القليلة من ربيع أوريغون البديع.

تأمّلته وقد قطع مسافة طويلة في عرض النهر تتناقض مع بطء حركته على اليابسة. تراءى لي عن بعد مثل قطعة من الجلد المدبوغ تطفو على السطح وتغوص. انقلب على ظهره فجأة وراح يسبح على هذه الهيئة وكأنه سائح يستجم أمام أفق أنيق قبل أن يغيب عن بصري تماماً. ما اسم هذا الشيء يا ترى؟ فكرت أنه واحد من تلك الحيوانات التي تحمل أسماءً منسوبة للماء: كلب الماء أو ثعلب الماء، رغم أنه يحمل ملامح فريدة تستحق اسماً لا شريك فيه. هل يعقل أني لم أر مخلوقاً مثله من قبل؟ فاتتني حلقة من برنامج مصطفى محمود في يفاعي بالتأكيد وإلا ما جلست اليوم على ضفة ويلامت عاجزاً عن معرفة اسم هذا الذي أخذ تمرتي واختفى. لم يكن ثمة أحد حولي على مسافة صوت لأسأله ولا وجوه الذين يمارسون الصيد تبدو كأنهم يريدون الكلام. آثرت أن أؤجل فضولي حتى أعود إلى شقتي في المساء وأنقب عنه في الإنترنت أو أسأل كونرادو، جاري الفلبيني السمين، لأنه يعرف الكثير عن الحيوانات. ألم يقل إنه كان صياداً قبل أن تخترق ساقه طلقة بندقية خاطئة، فأصبح سباكاً حتى دهمه زوج ضخم وهو يضاجع زوجته في حمامها الذي كان يصلحه، فأصبح سائق تاكسي حتى اعترض موكب رئيس حزب التحالف الفلبيني فحطموا سيارته، فأصبح كهربائياً حتى الآن؟

وقفت لعلّي أرى صفحة النهر بوضوح. كانت مجموعات عدة من البط تسبح بشكل دائري وأنا أحاول تجاهل هذه الطيور الكريهة. تذكّرني دائماً بغادة التي تعشق هذا المنظر الساذج وتجرّني دائماً إلى أماكن لا أجد فيها سوى خدعة سياحية بسيطة تمارسها مدن أوروبا المتغضنة. أخبرتها أنه منظر مصطنع يليق بالبطاقات البريدية وأخبرتني أنها أفضل من قرود السودة المتوحشة. لم أستسغ مزاحها ولكني فكرت أنها امرأة من البحر وأنا رجل من الجبل. بيننا جغرافيا هائلة.

لمحت في منتصف النهر بروزاً صخرياً محاطاً بالحشائش يصلح أن يكون مأهولاً بجنسه. وقفت على أطراف أصابعي لعلّي أراه حائماً حوله. ربما هو بيته الصغير الذي يعلق فيه صور أطفاله وعائلته ويخبّئ غنائمه من التمر المسروق. ربما يقيم في الغابة المحاذية للنهر ويأتي هنا لاستجداء صيّادي السمك الأغنياء. ربما فرّ من أحد أقفاص سيرك دو سوليه الذي تنصب خيمته على الضفة الأخرى من النهر استعداداً لإجازة الصيف.

علقت الاحتمالات الثلاثة على فروع نائتة من ذهني المشتّت ثم جلست على الأرض جلسة بائع سواك متعب. مددت رجلي اليسرى لأتخلص من تقلص مفاجئ في عضلة الفخذ كال لي ألماً طارئاً. رحت أطوي ساقي وأمدّها بتتابع حتى هدأت تلك العضلة الناشز فأبقيتها ممدودة. تأملت إبهامي الصلف المتوّج باحمرار طفيف من أثر المبالغة في التقليم فتعزز شعوري بأني أملك قدماً جميلة وأصابع متناسقة. ربما لهذا الشعور أعتني بها أحياناً أكثر من

وجهي الحافل بخدوش لا أذكر لها تاريخاً ولا قصة.

في شقتي مرآة صغيرة جداً حتى إني أضطر أحياناً لأن ألوّح لها لتراني. اخترتها بهذا الحجم حتى تكفي لحلاقة عاجلة فقط وعلقتها في مستوى أدنى من قامتي حتى لا يداهمني وجهي بالخطأ. أنظر إليها فتعكس لي جانب ذقني الأيسر فأحلقه، ثم ألتفت إلى الجهة الأخرى فيظهر جانب ذقني الأيمن فأحلقه. ثم أرفع رأسي عالياً فتظهر شفتي العليا وجزء من أنفي فأحلق شاربي، ثم أغسل وجهي وأفرّ من الحمام مثلما يفر السجين من قاعة تحقيق صامت.

لو كان في شقتي امرأة لكان عندي مرآة أكبر. المرايا تذكّرني بأن أطرح على نفسي أسئلةً صعبة ومراوغة كشأن الذي يلتقي خصماً لم يره منذ سنين. لذلك اخترتها صغيرة وتافهة حتى لا تحاصرني بأسئلة أكبر مني ولا يمكن إجابتها. قلت لنفسي وأنا أخرج متأبطاً إياها من معرض آيكيا المزدحم بأزواج صغار يحاولون صناعة أعشاش رومانسية رخيصة إنه تكفيني منها نظرة خاطفة قبل الخروج من أجل الآخرين الذين يستحقون النظر في وجه أفضل. ليس بوسعها أن تلعب في حياتي دوراً أكبر.

وجهي خريطة محرفة فعلاً. رقعة من الجلد رسم عليها قائد مجنون البلاد التي فتح والتاريخ الذي صنع، ثم هطل فوقها مطر! اختلطت الندوب التي نسخها صبية المربع بإتقان فوق حاجبي الأيسر بتلك التي نثرها أبي كيفما اتفق على صدغي وجبيني وذقني. تداخل العشب الذي نما على وجهي عندما كانت نافذة غرفتي شرقية تطل على فناء قصر مهجور في الناصرية مع تلك النباتات المتسلقة

التي تحمي عيني من هجير الفاخرية عندما تدخل الشمس كل بيت من بيوت الرياض وتصفع ساكنيه. ضاع موضع القبلة الأولى التي زرعتها غادة على وجنتي وتحوّل إلى مكان مشكوك في وجوده أصلاً مثل أتلانتس. ترهّل خداي وعنقي أخيراً مثل كتلة عجين اختمرت طويلاً. بعد ذلك جمع حادث السيارة كل تلك الملامح المبعثرة أصلاً وبعثرها مرة أخرى بمعرفته. صار وجهي بقعة من الفوضى وميداناً للخصومات اليائسة، وأنفي يتربّع في وسطه مثل كرسي قاض هجر المكان منذ قرون.

آخر مرةً رأيت وجهي كاملاً كانت وأنا أراجع بيانات تأشيرة السفر الأميركية قبل شهرين في الرياض، وبعد ذلك لم أعد أراه سوى لماماً في غرف الفنادق وردهات المطارات وزجاج السيارات. ربما لهذا أنا أتأمل بقية جسدي دون وجهي لئلا أنسى من أكون. أقضي دقائق طويلة أطالع كفيّ وقدميّ وبطني وأدواتي الذكورية. أنظر في تقاطعاتها وتفاصيلها وكيف أنها تستحق أن تزرع تحت أي وجه وسيم فلا يلاحظ أحدهم أيّ تنافر بدلاً من العيش في مظلمة طويلة تحت هذا الوجه الدميم. إنها أعضاء خدومة وتعمل بصمت ووفاء. أما وجهي فثرثار وغاضب دائماً وكثير العتب. يكفي أني لا أستطيع أن أراه إلا بواسطة مرآة وهذا يعني أن الطبيعة لا تنصح برؤيته أصلاً. من أجل هذا أنا أقلم أظافر قدميّ أكثر مما أحلق ذقني. وأرطب ظهر كفي بكريمات ثمينة لا تحلم بها وجنتي. ولا أجيب إذا ما سألتني امرأة غريبة لماذا كانت نظارتي الشمسية آخر ما أخلعه من ملابسي.

سكبت لنفسي فنجاناً آخر من قهوتي العربية بتحفظ. صنعتها هذا الصباح بلا قرنفل حتى أتعوّد طعمها صافياً دون أن يتدخل فيها أبي. كلما رشفت منها رشفة وأحرقني طعمه اللاذع شعرت بأن أبي يتسرّب إلى دمي مثل مرض وراثي عنيد بدأت أشعر بأعراضه فعلاً. يخرج أبي من فناجين القهوة أحياناً مثل مارد من البن ويداهمني ليلاً ونهاراً. رأيته في حلمي قبل أيام يتأمل صفاً طويلاً من الرجال يتقدّمون نحو سريري في عرضة صاخبة وهم ينشدون:

من سراة أبها نصفّ الصفوف
وعند أبو غالب لفينا ضيوف
ما تغيّب غايب دون عـــــذره
يطلب العشرة.. ويفزع ألوف

اخترقت دقات طبولهم وصرخاتهم العالية سريري المزدحم بالأحلام الرديئة. تقلبت بإصرار لعلهم يسقطون من حافته ولكنهم تشبثوا بنومي مثل الأقزام الذين يحاصرون العملاق. ترنّحت في مشيتي نحو الحمام وأنا أدعك جبيني بعنف لأطرد نشيدهم الرتيب. سحقت بعضهم تحت قدمي بينما هم مستمرون في الرقص في غرفتي النائية في الدور الثاني من المبنى الذي كان مكتباً لشؤون المحاربين القدامى في الولاية قبل أن يقرّر صاحبه تحويله إلى أربع شقق سكنية. استأجرت آخر شقة شاغرة منها لأجد كونرادو في الشقة المقابلة وأجهزته الكهربائية المعطلة تحتل نصف الفناء الصغير الذي نشترك فيه معاً.

كنت أعرف أني تجاوزت القدر الذي يمكن أن أشربه من القهوة

دون أن ترتعش يدي مثل إبرة رادار قديم. مذاقها يمطر فمي حنيناً حلواً وتفتح في داخلي أزقةً من الأمان البعيد. ولكن الكارثة عندما ترسب بعد ذلك في جوفي أطناناً من القلق والتوتر وتشعل القرحة والأرق. لست بحاجة إلى مزيد من ذلك. يدور القلق في عروقي مثل سيارة سباق محمومة منذ ولادتي ولا يحتاج إلى تحريض إضافي من جرعة قهوة زائدة. رغم ذلك شربت أكثر من فنجانين وأنا أتأمّل صفحة النهر الساكنة التي ابتلعت القندس ولم تبق له أثراً. فتحت في ذهني صفحتين للتفكير البارد: الأولى في قاع هذا النهر وكيف يبدو لو جف الماء تماماً، والثانية في مذاق هذه القهوة وكيف تبدو بدون قرنفل. فقدت القدرة على التركيز فلم أجد مانعاً من أن أقسم ذهني بين فكرتين تناوبت عليهما بفتور ومضغهما عقلي ببطء.

فوجئت به يدبّ على ضفة النهر مرة أخرى دون أن تنبّهني إلى اقترابه دوائر الماء. برز من حرج صغير إلى جانبي وراح ينظر إليّ باستغراب شديد وكأنه فقد ذاكرته. تعلقت عيناه بوجهي وراح أنفه يتحرك يمنة ويسرة مثل بندول يحاول فهم المشهد في أسرع وقت. مددت إليه تمرةً أخرى فتراجع بتوجّس وظل أنفه يرتعش بعصبية. رميتها قريباً منه فجسّها دون تركيز ثم تجاهلها تماماً. راح يخطو إلى الخلف وينظر إلي بخوف وكأني أهدّده بسيف وهو يوشك أن يقع في هاوية وراءه مثل الأفلام السينمائية. سكنت تماماً ولم أقم بأيّ حركة تزيد من ارتباكه ونفوره. راح يدور حول نفسه وهو يشمّ خطاً متعرّجاً على الأرض حتى بلغت إحدى قائمتيه الخلفيتين الماء، فغطس بتدرّج بطيء وابتعد مثلما يغادر مسرحاً خالياً من الجمهور.

تغيّر مزاجي وهو يغادرني بهذا الشكل الفظ للمرة الثانية. حاولت استدراجه مرة أخرى فلم يحفل. غاصت تمرات في الماء وتمرات أخرى عفرها التراب على الضفة. غضبت. هذا الملعون يتجاهل تمري ويرحل. الكيلوغرام الواحد من هذا التمر الفاخر أغلى ثمناً من لحمه. عزمت أن أركله بطريقة لا تبدو متعمّدة أمام الصيادين وروّاد النهر إذا ما ظهر مرة أخرى. تربّصت به فعلاً وغيّرت جلستي حتى تصبح الركلة المخاتلة ممكنة. انتظرت دقائق وأنا مقرفص على الضفة بشكل مائل حتى أركله بطريقة توحي أني كنت أستعد للوقوف فيبدو كأنه خاف منّي وتدحرج إلى النهر مثل عكة سمن منتفخة.

لم يظهر القندس مرة أخرى وكأنه شمّ رائحة غضبي بأنفه الكبير الرعاش. فعلت القهوة فعلها المريب بمعدتي وأعصابي فعلاً فرحت أرسم بأصابعي خطوطاً وهمية في التراب. لماذا يتصرّف بهذه الطريقة؟ أحببت معاملته إياي كما يتوق الغريب الطارئ على المكان الذي ليس فيه أصدقاء. لم يفرط في مجاملتي مثلما تفعل مضيفة طيران مبتدئة جسّت كتفي في الطائرة لأغفر لها هفواتها الصغيرة، ولم يتجاهلني تماماً كما يفعل الكثيرون هنا منذ وصلت إلى بورتلاند. ولكنه الآن يبدو وقد انحاز إلى أحد الطرفين مثلهم جميعاً ولم يعد هناك ما يميّزه.

التقطت هاتفي من جيب قميصي الأعلى ورحت أعبث به وأقرأ الرسائل القديمة التي أدخرها لأوقات الضجر. وضعته جانباً بعد أن بدأ يومض موشكاً على الانطفاء وقد فرغت بطاريته. لاحظت أن الشمس انتصفت في السماء فرحت أضبط صنارتي ليتناسب طولها

مع حركة الجزر. لم يفعل ذلك أحد ممن حولي وظلوا جميعاً عاكفين على الصيد وكأنهم جوعى يتضوّرون وليسوا حفنة أغنياء في منتجع صيد. عاودني الشعور بأني فهمت التعليمات خطأ كالعادة ولن يساعدني أحد. علقت صنارتي على المقبض المعدني وألقيت برأسي إلى الوراء أتأمل رؤوس الأشجار المدببة وهي تلكز السماء برفق.

هذا المكان ملتاث بالأخضر بشكل مَرَضي كما لو أن بقية الألوان اختفت من الحياة. أشعر باستمرار بأني معرّض لكمين من الجمال الساذج وعليّ أن أحتاط من مكر الطبيعة. نقشت حروفاً عربية على جذع شجرة بمفتاح سيارتي. قطعت طريق نملة كانت تحاول العبور إلى بساطي. ثم تناهى إلى سمعي صوت قريب جداً.

- هل لي بدقيقة من وقتك؟

التفتّ لأجد شاباً في العشرين يقترب مني بخجل. أشقر الشعر. يرتدي سترة أنيقة. ويحمل أوراقاً في يده.

- نجمع معلومات عن مرتادي المنتجع. هل تسمح أن نطرح عليك بعض الأسئلة؟

- لا. لا.

- خمس دقائق فقط.

- لا أتكلم الإنجليزية.

اعتذر ومضى وقد انطلت عليه حيلتي المعتادة. هؤلاء الذين يحملون أوراقاً ويقاطعون المارة مزعجون فعلاً. يسألون أسئلة لا أدري ماذا يريدون منها ثم يمنحون إزاءها كوبونات زهيدة في مطاعم لا يمكن أن يأكل فيها شخص عاقل. عندما كنت أكتب بحثي

قبل سنوات طويلة كنت ألازم ثابت كالسوار حتى مل مني وكدت أشنق قلب عمتي من أجل بضع حكايات لم تبح بها بسهولة. لم أخرج إلى الشارع لأزعج المارة وأجمع إجابات مجانية.

تراءى لي القندس على مسافة قريبة ولكنه لم يتسلق الضفة ولم يلق التحية. اكتفى بالسباحة ببرود تاركاً نفسه للتيّار أغلب الأحيان ولا يحرّك أطرافه إلا قليلاً، وكلما جفّ فروه تحت حرارة الشمس غطس ليستعيد انتعاشه. طويت بساطي حتى لا يبدو حفياً به. أغلقت حاوية التمر البلاستيكية على ما بقي من التمرات بإحكام وقمت من الأرض لأجلس على الكرسي القماشي المنتصب جانبي. أدرت مفتاح الآيبود الصغير المثبت في قميصي ورحت أستمع إلى أول أغنية وجدتها في القائمة؛ جاءت صاخبةً تفرك مزاجي الشائك مثلما تفرك منشفة دافئة رأساً مجعد الشعر.

رأيته يغطس مرة أخيرة لم يظهر على السطح بعدها. تمنيت أنه علق بين صخرتين ناتئتين في قاع النهر. انتظرت بضع دقائق وأنا أتخيّل حجم رئتيه. تأخر طويلاً. وقفت على الكرسي لأمنح عينيّ أفقاً أوسع لرؤية النهر. حاولت أن أبحث عنه في منتهى الحلقات المتتابعة من مائه فلم أجده. نظرت إلى مأواه المحتمل في الجزيرة التي تتوسط النهر فوجدتها خاوية مثل طلل مهجور. تأملت الحرج الذي برز منه من قبل فلم يبد له أثر قريب. نظرت إلى شاشة الهاتف فلم أجد رسائل جديدة. لا أدري أين اختفى. لا أدري متى سيعود. أتراه يكون مسافراً ضالاً مثلي؟

٢

ألفيت نورة في غرفة أبي الأرضية التي انعزل فيها منذ اشتدّ عليه المرض محتجاً بصعوبة صعود الدرج وسهولة استقبال العوّاد. كانت المرة الأولى التي أراها فيها منذ حفل قرانها قبل شهرين. وقّعت شاهداً على عقد الزواج الذي لا أضمن التزام أيّ منهما به. لم أكن أعرف شيئاً عن هذا الشاب الذي بدا تلك الليلة قلقاً ومتعرقاً وكأنه يجلس فوق مقلاة، كما لم أكن أعرف الكثير عن هذه الأخت التي تتقمّص كل عام روحاً عشوائية.

تطل هذه الغرفة على نخلات أبي الست ومئذنة مسجده العالية ولها بابان. تدخل زوجته شيخة من أحدهما متى خرج الضيوف من الآخر وتخرج منه متى ما تنحنحوا بجوار الباب أو طرقوه. في ركن الغرفة كان سرير أبي محفوفاً بمخدّات ملوّنة ومطرّزة بخيوط ذهبية أنيقة وكأنه احتفال بالمرض. يضطجع فوقه مرتدياً ثوب البيت الأزرق الفضفاض ومعتمراً شماغه الأحمر رافعاً أحد طرفيه فوق هامته وتاركاً الطرف الآخر ملتفاً حول عنقه وملقى على الكتف

المقابل حتى بدا كأن علامة استفهام حمراء تبتلع رأسه.

لم يبدُ آبهاً بوجودنا حوله. تعلقت عيناه بشاشة التلفزيون وهو يتابع أخباراً عن بلد لا يعرفه أصابته هزة أرضية متوقعة. وكلما ارتفع صوت نورة وهي تتكلم اتجهت يده إلى جهاز التحكم ليرفع صوت التلفزيون منبّهاً إياها إلى التشويش الذي يحدثه تداخل أخبار زواجها المرتقب مع أخبار التاسعة مساءً. انخفضت أصواتنا حتى الهمس ورحنا نتكلم في شؤون يومية لنكسر الصمت المحرج الذي يخيّم على غرفة أبي كلما زرناه فلا نجد شأناً نتحدّث فيه معه. نسأله عن صحته فيومئ أحياناً دون إجابة وينبس ببنت شفة معتادة في أحيان أخرى. نذكر له أخبار العائلة والحيّ والمدينة والمنطقة والعالم فيزم فمه إذا ساءه الخبر ويرفع حاجبه إذا استحسنه، ثم يلقي بنا جميعاً في غيابة الصمت التي لها شكل سهم يشير باتجاه الباب.

سألتها عن ترتيبات الزفاف فبدت حانقة:

– يا برودة أعصابه يا أخي، ما بقى على زواجنا وسفرنا يومين واكتشفت أنه ما حجز في أي فندق. وش ذا الرجال!

– وانتي ليش تسألين؟ يمكن الرجال مجهز لك مفاجأة؟

– مفاجأة طلّ. شكلي أنا اللي بحجز وبخلص كل شي. الله يعيني عليه. الكتاب باين من عنوانه!

التفت أبي ناحيتنا فجأة وحنى رأسه قليلاً ثم حدج نورة بتلك النظرة العلوية التي تنذر بالوعيد ورفع سبابته باتجاهها قبل أن يخرج صوته مهدّداً بعد عدة حشرجات:

- انتبهي لزوجك بس ولا تطرين هالكلام الماصخ قدامه...

تبعثرت نظرات نورة في أرضية الغرفة وهي تحاول أن تقاطع أبي قبل أن يمعن في توبيخها.

- ما قلت شي يا ابوي، بس وشلون ما يحجز...

- لا تقولين ما قلتي شي. الا قلتي! وش كتاب باين من عنوانه وما عنوانه وكلام فاضي. انتي الكتاب اللي باين من عنوانه. انتي الكتاب اللي على الرف لين جا ولد الحلال.

ابتلعت نورة تلك الإهانة الأبوية ببلعوم واسع وابتلعت أنا حبتي رطب من ذلك الطبق التي تراكمت فوقه مثل جبل صغير. ساد الصمت مرة أخرى إلا من حذاء نورة وهي تضرب به الأرض ضربات عصبية طفيفة ومذيع التلفزيون السعودي وهو يهذ خبراً معتاداً. لم أجرؤ أن أوقعها في فخ حوار آخر يتربّص بها أبي في وسطه مثلما فعل للتو. تأمّلت وجهها الذي احتقن وأزبد واكتشفت أن عينيها ملوّنتان بلونين متداخلين، وأن شفتيها أكثر امتلاءً من المعتاد، بينما تقلص حاجباها حتى صارا قوسين رفيعين، واستحالت خصلات منتقاة من شعرها إلى لون أشقر. رأيت أسنانها للمرة الأولى من غير جسور وحبال فبدت كأنها صفّت على مستوى واحد بالقوة مثل حائط من الطوب الأبيض.

بدا لي مع هذه التغيّرات أنها توشك أن تدخل حفلة تنكرية لا بيتاً زوجياً. لقد أسرفت في إعداد نفسها لرجل لا يجيد إجراء حجوزات سفر. ماذا ستفعل لو اكتشفت أنه لا يجيد إجراء شؤون السرير أيضاً؟ سيكون كتاباً فظيعاً إذاً، بلا عنوان ولا أسطر، لا تملك

أن تقرأ منه ولا تعرف كيف تكتب فيه. المشكلة أنه سيصبح مصيراً أبدياً وسيتعيّن عليها أن تمضغه طيلة حياتها دون أن تجرؤ على مفاتحة أبي في الأمر حتى لا يشنقها على واحدة من نخلاته الست.

تغيّرت كثيراً في غضون الأشهر القليلة التي مضت منذ وافق أبي على زواجها. تحوّلت إلى امرأة غريبة لا تنتمي إلى هذا البيت، تعض على هذا الرجل بنواجذها حتى يخرجها منه فلا نراها بعد ذلك سوى في الأعياد والمناسبات، ثم تتحوّل تدريجاً إلى امرأة أخرى لها ملامح مختلفة وأخلاق جديدة ونظام هرموني متطوّر. أراهن أنها ستسمّي أحد أبنائها إذا ما أنجبت اسماً أجنبياً حتى تبدو أبعد ما تكون عنا، ولا أعتقد أن الرجل المقلاة سيعترض على نزعاتها الغريبة.

أطريت لها لون عينيها الجديد فشكرتني بشكل طفولي عابث لتفرّ من خجل مجاملتي المفاجئة. ساد الصمت في الغرفة لدقائق لا يقطعه فيها سوى صوت المذيع وهو يعيد قراءة العناوين الرئيسة استعداداً لاختتام النشرة فقمت من مكاني بعد أن ألقيت تحيّة موشاة بزفير مصطنع يوحي بالإرهاق. خرجت من الغرفة ليتسنّى لها أن تفاوض أبي على انفراد في بعض المال لتكمل به جهازها كما هو متوقع من حضورها النادر في غرفته.

في الطريق إلى فيلتي رحت أعد على أصابعي ما يجب علي القيام به قبل سفري الوشيك والذي أجلته شهرين حتى يتسنّى لي حضور هذا الزفاف الممل. هذه المرة ستطول المسافة والغياب معاً. أشعر بأن في صدري موسوعة من التفاصيل الرديئة لا ينبغي أن

أعود حتى أمزّق صفحاتها اللانهائية وأتخلص منها في مكان بعيد. تحسّست ذقني قبل الولوج إلى فيلتي ثم عدلت عن الولوج إليها. اتجهت إلى سيارتي لأنطلق نحو صالون الحلاقة.

حيّاني الحلاق بيد مشغولة بمقص كان يعمله في رأس زبون آخر. جلست في انتظار دوري متأملاً الشارع الذي تمر به السيارات بلا انقطاع. لم يعد بازدحامه هذا آمناً لمباراة كرة قدم ليس لها قانون ولا نهاية. في موضع قريب من إشارة المرور كانت تنتصب عارضتا المرمى. تتكوّن كل منهما من قطعة خشب مضلعة مغروسة في برميل دهان مليء بالإسمنت، وغير بعيد منهما سقط مسرور مضرجاً بدمه بعدما شجّ سائق سيارة غاضب رأسه بقارورة بيبسي كانوا يصنعونها قبل ثلاثين سنة من زجاج ثقيل لا يتحطم بسهولة.

عاد مسرور إلى ملعبنا ذاك بعد أسابيع قليلة. تغيّر موضع عارضتي المرمى عدة أمتار حتى لا يثير حنق قائد سيارة آخر يحمل قارورة بيبسي. وتزايدت جرأة أبناء الحيّ على مسرور في الركل واللعب الخشن بعد أن تبعثر كبرياؤه أمامهم في مشهد انتهزه جميعهم لإسقاط مكانته العضلية في الحيّ. حاول مسرور دفع هذا الضعف عن نفسه بالسخرية من تلك الضربة التي شجّت رأسه كلما اجتمعنا آخر النهار في الأرض الخلاء التي نشعل فيها ناراً وكأننا في البادية لا في منتصف حيّ عامر من أحياء الرياض.

يسألني مخلص كثيراً وهو يحلق ذقني عن السبب الذي يدفعني إلى التردّد على صالونه في الناصرية رغم أني أقيم في الفاخرية فأجيبه بأني أفضّل حلاقته. يتعجّب من ذلك وكأنه يشك في مهارته.

لم أفكر في أسباب أخرى ولكني أعرف أني توّاق لأي الأسباب التي تدفعني للتردد على مرتع صباي. مخلص أيضاً حلاق قنوع. لم يطلب مني يوماً زيادة عن الريالات الخمسة عشر التي أنقدها إياه كل مرة أحلق فيها ذقني أو رأسي. حلاقون كثر في شمال الرياض أصبحوا يتحدثون عن أسعار أعلى وذقون أنعم.

قبل أن يحل مخلص في هذا الصالون كنت أحلق باستمرار عند حلاق يمني لا يرى مفارقة في كون مهنته الأصلية التي وفد بها إلى السعودية هي الجزارة. كلما حاولت أن أتندّر معه حيال ذلك مط شفته دون أن يبدي اهتماماً بالدعابة وذكر أيّ عبارة شائعة عن طلب الرزق. سألته مرة هل تعلّم المهنتين على حدة أم اكتسب إحداهما من الأخرى. ضحك هذه المرة ولوّح بموسى الحلاقة في وجهي «لا فرق. في الحلاقة أمسك الموسى هكذا»، ثم قلب الموسى بيده ليصبح في وضع عمودي كمن يهم بالطعن «.. وهكذا في الجزارة!».

قبل أن يتحوّل من الجزارة إلى الحلاقة كان هناك حلاق فلسطيني كثير الكلام. كلما استويت على كرسيّه الجلدي ذي الأطراف التي تمزقت وفرّ منها الإسفنج والقطن سرد علي جزءاً من تاريخ المنطقة السياسي. سمعت عن اجتياح بيروت وأنا جالس على كرسيه. كما سمعت عن اغتيال السادات، وأحداث حماة، وقصف المفاعل العراقي، ومحاولة اغتيال ريغان، ومجزرة صبرا وشاتيلا، وأحداث سياسية أخرى كثيرة كان يتشاءم من بعضها ويتفاءل بأخرى ويعبّر عن ذلك كله بحديث متصل لا يسألني خلاله عن رأيي البتة.

عدت إلى البيت وأنا أتمنى أن تظل ذقني حليقة ليومين حتى أحضر زفاف نورة دون أن أضطر لحلاقة أخرى. في ليلة الزفاف أطلّت الشعيرات برؤوسها الحالكة فبدا وجهي مسوداً وأنا كظيم مثل وجه أبي وهو يتصدّر الحفل في كرسيّ متحرك. كان قادراً على الوقوف والمشي ولكن سلمان ألحّ عليه بذلك وقد راقه أن يدفعه في كرسيّ متحرك أمام جموع الناس مثل الأبناء البررة الذين يلازمون آباءهم ملازمة السوار للمعصم. انقلب ذلك عليه وبالاً عندما علا صوت أبي أكثر من مرة وهو يعنّفه أمام الضيوف كلما انشغل بالحديث معهم ونسي لبرهة أن يدفعه. ولما تكرّر الأمر منه ترجّل أبي من الكرسي المتحرك وراح يمشي وحده مخلفاً وراءه سلمان يدفع كرسيّاً خالياً.

جلست ليلتها بعيداً عن صدارة المكان أراقب وجوه الأقارب التي يجري عليها الزمن تجاربه وأحاول ربطها بصور من ذاكرتي القديمة. تحاشيت أن أبدأ أيّ ضيف منهم بالسلام إلا من التقت عيناي بعينيه ولم يعد من مصافحته بد. ولما كان أكثرهم يتحاشون ذلك مثلي لم أجد نفسي مضطراً للسلام سوى على قلة منهم. يبدي نصفهم اشتياقاً كاذباً ويطرح أسئلة عن غيابي الدائم بينما يصافحني نصفهم الآخر بنظرات متطيّرة وكأنهم يخشون أن يصيبهم مسّ مني فيصبحوا نادمين.

في صالة العشاء شاركت زوج أختي بدرية طاولة منعزلة. علق بشته البني الرثّ على الكرسي ثم هرع إلى بوفيه الطعام مسرعاً وكأنه يحاول أن يلحق بقطار يوشك أن ينطلق. تباطأت في اللحاق به وأنا

أنظر إلى محاولته للالتفاف بشكل لبق على صف المدعوّين الذين سبقوه زارعاً نفسه في حوار ضاحك بين اثنين. سألته حالما عاد إلى الطاولة وفي يده طبق تكوّم فوقه تل صغير من الأطعمة المتناقضة:

- وش جديد اختي بدرية؟ من زمان عنها..
- والله.. طيبة. خبرك: تحوس في هالتقاعد.
- خلاص بتتقاعد؟
- ايه عزمت. الحين تستحق التقاعد، والعيال كبروا، والشوارع زحمة..
- الله يعينها..
- .. إلا ما تعرف لنا أحد في مؤسسة التقاعد؟

قلما التقيت هذا الصهر العتيق دون أن يسألني أسئلة شبيهة. توقفت عن مساعدته في البحث عن واسطات منذ شعرت بأنه لا يجمعها إلا كما يجمع الغراب الأشياء اللامعة. يعرف أن أغلب معاملاته الحكومية الروتينية يمكن إنجازها دون حاجة إلى ذلك لو أنه يمنحها قليلاً من الدأب والمراجعة ولكنه يصر رغم ذلك على البحث عن واسطة ما لإنجازها من أجل أن يشعر بالنصرة والتمكين لا أكثر. ساعدني قبل سنوات في تجديد رخصة قيادة دون أن أطلب منه ذلك بمساعدة ضابط صغير في المرور وما زال مذاك يشعر بأنه يملك الحق في تفتيش قائمة معارفي كلما التقينا بحثاً عن واسطة مفيدة لأي شأن كان.

هززت رأسي بالنفي في إجابتي عن سؤاله وحشرت في فمي لقمةً كبيرة لأضطر إلى مضغها طويلاً فلا يستمر حديثنا.

٣

كدت أنساه قبل أن أكتشف أن للقندس ذي الأسنان المتسخة علاقات مهمة في بورتلاند. صادفته هذا الصباح داخل لوحة ضخمة وسط المدينة وأنا أمشي باتجاه المطعم الذي أتناول فيه إفطاري. كانت أسنانه نظيفة ولامعة هذه المرة وفروه جافاً وناعماً وله ابتسامة لا أدري كيف استطاع أن يصنعها فمه الغريب الشكل. فكرت أنه يشبه نجوم السينما الذين يبدون بهيئة رائعة في الملصقات الدعائية بينما رأيت بنفسي قبل أسابيع ما ينقض هذه الهيئة تماماً.

وقفت أنظر إلى اللوحة التي لم تكن موجودة أمس وأقرأ العبارات المكتوبة حولها محاولاً أن أعرف أيّها يشير إلى اسم هذا الحيوان الذي أصبح مهماً. بحثت بين الهازجين من حولي عمّن يجيب سؤالاً سياحياً كهذا الذي يجوس في داخلي منذ أيام فلم أجد أحداً يبدو مستعداً لاستقبال سؤال. شعرت بالغباء والغربة وبقيت أتأمل اللوحة الضخمة لدقائق وكأني أنتظره أن ينطق. حاولت أن أقدر نفقات نصب لوحة كبيرة كهذه وسط المدينة. تأملت العمود

المعدني الضخم الذي يقيمها ثم مئات المصابيح الدقيقة التي تحيط بجسده لتضيء اللوحة ليلاً وذلك الطوق الهائل من الورود الذي يكلل اللوحة بأكملها. ماذا فعل يا ترى ليستحق كل هذا؟

مررت تحت لوحته الضخمة بهدوء محاولاً تجاهله كما فعلت عند النهر ولكنها لم تكن لوحة واحدة. بدأ المهرجان وتحوّل القندس إلى نجم المدينة. تزايدت الملصقات الدعائية في الشوارع خلال أيام حتى لم يخل أحدها من صورة كبيرة له تنسدل من واجهة محل أو إشارة مرور. رأيت سيارات تلصق صورته على زجاجها الخلفي ومطاعم تعرض وجبات متنوّعة تحمل صورته أيضاً. زرع أحدهم في يدي مطوية ملونة تعلن عن رحلات سياحية لمشاهدة مستعمراته في الغابات المجاورة. جاب الأطفال الحديقة العامة مرتدين زيّه التنكري وملتقمين في أفواههم أطواقاً بأسنان بارزة. انتصب في باحة الجامعة تمثال برونزي له وهو يرتدي قبعة الخرّيجين المربعة، وانتشرت في المحال قمصان بصورته وهو يغمز بعينه، تباع بالسعر الذي يثير حنقي دائماً: تسعة دولارات وتسعة وتسعين سنتاً.

في ميدان المدينة الرئيسي قريباً من محطة المترو راحت ثلاثة قنادس مدربة تجوب قفصاً واسعاً يحيط به ثلاثة أشخاص من حديقة الحيوان. حاولت أن أمدّ يدي إلى أحدها من خلال فرجات القفص الصغيرة فنصحني أحد الحراس أن أمتنع عن هذا لئلا أتعرّض لعضة مؤلمة. أخبرته أني صافحت قندساً قبل أسبوع فقط وتقاسمنا تمراً وحنيناً على ضفة النهر. ابتسم وأخبرني دون اهتمام أن القنادس تتصرف بألفة أحياناً ولكنها تظل شرسة في الغالب. ابتعدت عنه وأنا

أردّد اسم الحيوان أخيراً بعد أن نطقه حارس القفص بوضوح.

انتقلت من شارع إلى شارع وأنا أشعر بحنقي يتصاعد كلما لمحت صورة أخرى. منذ وصلت إلى هنا لم يلق عليّ التحية سوى النذّل والباعة حتى كاد الصمت أن يلصق أسناني ببعضها وأنا لا أجد فرصة لائقة للحديث والثرثرة مع أحدهم. الآن يضجون جميعاً بحيوان كهذا دوني. قررت أن أستسلم بسرعة قبل أن أعكر مزاجي. انغمست في المهرجان مثل بقية العابرين الذين لا يملكون خياراً. بدت المدينة وكأن قندساً هائلاً يحركها من الأعلى بخيوط خفية. أدهشني ذلك بضع ساعات ثم فهمت من عبارات استرقتها من عابرين وكلمات قرأتها في لوحات أن القندس رمز هذه الولاية، ولهذا يقام له مهرجان سنوي أشهده لأول مرة.

فتشت في المكتبة العامة عما يمكنني من التنبّؤ بسلوكه في المرة المقبلة التي يعرّج فيها على بساطي ويأكل تمري. أعطاني مشرف المكتبة فيلم فيديو رغم أني طلبت كتاباً. قال لي إن المهرجان سينتهي قبل أن أتجاوز نصف صفحات الكتاب. لم أفهم ما إذا كان يلمّح إلى ضخامة الكتاب أو إلى إنجليزيتي الركيكة ولكني تبعته على كل حال نحو غرفة عرض صغيرة ملحقة بالمكتبة أغلق عليّ بابها وتركني وحيداً بعد أن ناولني سماعتيْ أذن.

رحت أتفرج على القنادس وهي تبني السد وتصارع النهر وترعى صغارها وترقص تحت ضوء القمر. اتسعت في داخلي مساحة الشرود وشعرت بأن قدميَّ ترتفعان عن الأرض بقوّة غامضة لأسافر في أنبوب من الأقدار المبعثرة. رأيتها تسبح في بركة من

الماء الفضي وتختبئ تحت كومة من الأخشاب المتراكمة. اقتربت غمائم نجد لتظلّلني دون أن أشعر حتى سمعت أزيز سيارات وترّهات بشر. تضاجع قندسان بعد أن رقصا رقصة دورانية طويلة تبعث على الخشوع. أصبحت نافذة الغرفة الصغيرة تطل على الرياض. شممت بالفعل رائحة الأعصاب المحروقة والليل المكبّد بالعشق.

عدت إلى النهر عدة مرات خلال أيام المهرجان دون أن أجد له أثراً في الجوار. قرّبت البساط من الضفة وغيّرت مكاني عدة مرات لعله يجيء. وقفت على الكرسي القماشي بصعوبة لأمسح النهر بنظرات واسعة فلم يسعفني بصري المتراجع. انصرفت إلى تجهيز صنّارتي وأنا أتوقع أن زوّار السيرك الذين ازدحم بهم الطرف الآخر من الضفة قد نفروه من المكان فسبح نحو جنوب أهدأ.

كنت مصراً على أن ألتقي به مرة أخرى. وإذا ما وافق على الدخول في هذا الصندوق الكرتوني فسأحمله معي إلى شقتي وأخصّص له قفصاً وبركة ماء بجوار كلبة كونرادو الرمادية. أطلت جلساتي المعتادة في انتظار مثل صحافي يبحث عن سبق نادر تحت الأمطار الغزيرة. أردت أن ألتقط له صورة وهو يتناول التمر من يدي لأبعثها إلى غادة وأصدقاء قلائل حتى أبدو لهم سعيداً ونشيطاً. سأحمله فوق كتفي بكل اعتياد حتى أبدو مثل رجل برّي وجد ضالته بعد أمد. سأربي معه طفلين أو أكثر حتى لا تعود القنادس الصغيرة تفرق بيننا.

لم يظهر على الإطلاق طيلة الأيام التي انتظرته فيها على وجل.

عندما انتهى المهرجان لمحته يسبح على مبعدة دون أن يقترب من الضفة. انقطعت أياماً عن النهر بعد أن ضربتني نزلة معوية حادة. عدت بعدها جافاً ونحيلاً. أحضرت خبزاً طازجاً وحبات جزر صغيرة. نثرتها على الضفة وطردت أسراب البط المتطفلة. اقترب منها دون أن يخرج من الماء فوضعت على الضفة كومة من الخضار والبسكويت والتمر. يظل يراقبها عن بعد وكأنه ينتظر أن ألقيها في النهر ولكني لم أفعل.

عاد أخيراً إلى بساطي وصرنا نقضي أغلب الوقت معاً. نقتسم التمر ونطرد البط ونمضغ دقائق النهار الصامتة في فتور مشترك. يتأمّل أحدنا الآخر طويلاً كتوأمين جمعتهما الأقدار صدفة ونحاول أن نختار من حكاياتنا أقربها نسباً للنهر. التقطت له صوراً عديدة ظهر في إحداها وهو يرفع يديه فوق رأسه وكأنه يؤذن لصلاة لن تقام، وفي أخرى دسّ وجهه تحت قائمته الخلفية وبدا مثل قبّعة صيّاد روسي، وفي ثالثة التقطتها له من الخلف كان يبدو مثل كرسيّ المعاقين بعجلتين كبيرتين في الخلف وصغيرتين في الأمام. صار يمشي فوق بساطي دون أن يثقبه ولا يعود إلى النهر قبل أن يتأكد أنه قضى معي وقتاً كافياً. تنوّع قِراي له بين مكسّرات محلاة وقطع فواكه جافة. لم يعد يجفل إذا مسّت يدي فروه بلطف شرط ألا أقترب من عنقه.

ازداد يقيني بأني أعرفه منذ أمد بعيد جداً. صارت رحلتي إلى النهر لصيد السمك تشبه إسراءً إلى بيتنا في الفاخرية. كلما لمحته يخطر من بعيد تراءت لي ملامح الناصرية والمربع وأصبحت

ملغوماً بالشجن العريق مثل طائر أضاع بوصلة المواسم. أخبرت غادة أنه يذكّرني بالرياض فأجابت بضحكة إلكترونية طويلة تعقبها علامة تعجب (لووووووووووول!). أخبرت كونرادو بذلك فلم يعلق كشأن الذي لا يعرف كيف تبدو الرياض أصلاً. أخبرت بضعة أشخاص عابرين من أبناء المدينة الذين ألتقيهم في المقاهي والحانات فرفعوا الحواجب وهزوا الرؤوس في تعجّب مصطنع كما يفعل الأميركيون عادةً إذا حدّثهم غريب عن بلده.

٤

قدت سيارتي باتجاه بيت أمي ملتذاً برائحة البخور العالقة بغترتي من زفاف نورة. أوقفت السيارة تحت شجرة الكين التي تحرس بابها وتناولت حبة القولون قبل الدخول حتى لا أضطر إلى تناولها أمامها وأجيب عن سيل الأسئلة اللوّامة. طرقت الباب الذي ضيّقت مدخله نبتة ريحان نفاذة الرائحة ففتحته لي خادمة جديدة لم أرها من قبل. فتشت في ملامحها عن أنثى فلم أجد كما هو متوقع من خادمات أمي التي تختارهن بمواصفات رهبانية وشكلية صارمة حتى لا يكون لهنّ سبيل إلى الرجال.

دلفت إلى المجلس الذي قادتني إليه الخادمة بعد أن عبرنا فناءً مغطى بحجر رخيص طالما تذمّرت أمي منه لأنه لا يبدو نظيفاً مهما غسل. كان المجلس يعجّ بتحف متراكمة لا علاقة لبعضها ببعض، وعلى الحيطان علقت شهادات قليلة لأخي غير الشقيق حسان. وفي آخر الممر الذي يمكنني أن أراه قبل أن أنتهي إلى ردهات المنزل الداخلية كانت تنتصب لوحة ضخمة سطر فوقها القرآن كاملاً بخط

بالغ الدقة علقتها أمي عند الحد الفاصل بين المجلس الذي يستقبلون فيه الغرباء والردهة الداخلية التي لا يدخلها إلا المقربون. لم أتجاوز يوماً ذلك الباب الذي تمنعني أمي من تجاوزه بقرآن كامل.

التقطت صحيفة قديمة وجدتها مطوية على الطاولة وشرعت أقرأ فيها ببطء وأنا أعرف أنها لن توافيني قبل ربع ساعة على الأقل. شدّني خبر صغير عن حفل أقامته السفارة السعودية في لندن بمناسبة العيد وحاولت أن أبحث عن وجه غادة بين الصور العديدة فلم أجده. تذكرت أنها ظهرت مرة في واحدة من تلك الصور فتضجرت لأن الصورة التقطت لها بفم مفتوح وعينين هاربتين فبدت كأنها تعرضت لانقباض معوي مفاجئ قبل التقاط الصورة.

جاءت أمي أخيراً وهي تعلن عن قدومها بدعاء أسمعه عن بعد. ازدادت مشيتها بطئاً حتى راحت تعرج أثناء دخولها لتجلس على أول كرسي في المجلس وهي تتأوّه بشكل عفوي دون أن تنظر ناحيتي. طويت الصحيفة القديمة ووقفت لأسلم عليها. التقطت يدها من فوق فخذها ورفعتها حتى شفتي دون أن تبذل أدنى جهد ثم استعادتها بعد أن طبعت عليها قبلة تشبه الجزية. كانت يدها مصبوغة بالحناء الداكنة ويطوّق إصبعين منها خاتمان ذهبيان شديدا اللمعان.

أعادت ترتيب خمارها الأسود ومسحت جبينها بتململ وهي تحوقل بلا توقف. وقبل أن نتحدّث راحت تتلو بضعة توجيهات على خادمتها الجديدة وتسألها عن شؤون البيت اليومية. أوشكت أن أعود لقراءة صحيفتي لولا أنها التفتت ناحيتي أخيراً.

– شلونك؟
– بخير يا أمي، شلونس انتي؟
– وشلون عرسكم؟
– زين. الله يوفقهم ان شاء الله..
– ايه الله يوفقهم. زين أنها تزوجت، والله ما ظنيتها بتتزوج وهي في هالعمر.
– لا الحمد لله، جا النصيب.. وان شاء الله انه شاب كويس..
– ان شاء الله، ولو أن شباب هالأيام ما فيهم طيب.
– لا لا. ان شاء الله انه شاب طيب..
– ان شاء الله. ولكن اللي تأخر ما تتزوج يا ولدي ما عاد تلقى الطيِّب..

لا يفوت أمي أن تعرض بإخفاقات الجانب الذي اعتزلته من العائلة منذ انفصلت عن أبي. وأن تتزوج نورة وهي في الثانية والثلاثين ليس إلا فرصة مواتية لذلك، لا سيما وهي الابنة الكبرى لزوجة أبي الثانية التي رقع بها أبي شق خروج أمي من المنزل. تظاهرت أمي بأنها تشفق عليها من صلفه وغروره. ربما لم تشعر بالغيرة بعد زواج أبي مباشرة لأنها سبقته بالزواج واستبدلت بعد انتهاء عدّتها تاجر سجاد متقلب الدخل بموظف حكومي مستقر.

لسنوات طويلة ظلّ بيتها في الملز أنيقاً وساحراً حتى إن رحلتنا الأسبوعية إليه أنا وبدرية كانت تشبه إجازة فاخرة في جزيرة استوائية. الحديقة الأنيقة التي كانت تحيط بالمنزل بنباتات صقيلة

لم نرها من قبل، وجهاز الفونوغراف المحدث الذي جلبه زوجها من بغداد تصطف جواره أسطوانات متنوّعة لمغنيات بأكتاف عارية، والببغاء الحقيقي الذي كان يلقي التحية على الداخلين بصوت جهوري مثل حاجب. تمعن أمي في استعراض كل جديد في بيتها لعلنا نحدّث به أبي إذا عدنا ليلاً إلى بيت الناصرية الضيق مثل طفلين مطرودين من الجنة.

مرّت أعوام وانقلبت الآيات. تقاعد زوج أمي وانخفض دخله عاماً بعد عام بينما تحوّل أبي إلى وحش عقاري. انتقلت عائلة أمي إلى منزل صغير في شمال الرياض سرعان ماتقادم وازدحم بموظفي الطبقة المتوسطة، وانتقلنا نحن إلى بيت الفاخرية الذي ما إن رأته أمي ذات يوم وهي تقل بدرية إليه حتى استعاذت من الإسراف والتبذير والتطاول في البنيان، ثم ظلت أسابيع طويلة تبتلع غصصاً متنوّعة الحجم.

حتى لو خلت مشاعرها من الغيرة فإنها لم تخل يوماً من تلك الرغبة الملحة في المنافسة. بذلت جهدها لتصنع عائلة أفضل في شمال الرياض من عائلتنا التي في جنوبها. تفخر بكل ما يحدث في بيتها وتسخر من كل ما يحدث في بيتنا مثل زواج نورة الذي باركته بمسحة إشفاق تغلف صوتها رغم رنّة التشفّي الواضحة. لم يعد أسلوبها يثير غضبي كما كان وقد اعتدت عليه. سخريتها وانتقاصها لعائلتنا تخفف من ضجري منهم بعض الشيء حتى إني صرت أقدّم لها أحياناً ما تحتاج إليه من أخبار حتى أسمع منها ذلك النقد اللاذع الذي يؤذيني ويرضيني معاً.

توقف الكلام بيننا برهة. عادت الخادمة لتسأل أمي إذا كانت تريدها أن تصنع قهوة فأمرتها أن تحضر ترمس الشاي الذي في الصالة وكفى. عادت الخادمة مستفسرة من شأن آخر فوبّختها. دمدمت الخادمة بعبارات لم نفهمها وانصرفت تتبعها نظرات أمي المتظاهرة بالاستغراب. رحت أتأمّل سجادة المجلس الصوفية التي تغيّرت منذ آخر زيارة لي قبل أشهر وداعبت أهدابها بأصابع قدمي متململاً. تذكرت أمي أخيراً سؤالي المعلق فأجابت بزفرات متقطعة..

– شلوني؟ الله المستعان. ظهري موجعني ولكن إن شاء الله خير.

– ما تشوفين شر يمه.

– كل ما رجعت من هالعلاج الطبيعي اقعد مهدود حيلي يومين. الله لا يبارك فيهم.

– ما تشوفين شر إن شاء الله.

– بس أشوى إن الدكتور وقف عني ذيك الحبوب. كل ما أخذتها ما أقوى افتح عيني. خمول خمول خمول تقول كني طالعة جبل..

– ما تشوفين شر. ما تشوفين شر..

جمعت كفيها ثم مسحت بهما وجهها فتمدّد معهما جلد جفنيها حتى رأيت لوهلة حمرة العين الداخلية ثم ردت عليّ من خلال زفير طويل.

– ولا يجيك..

سادت برهة صمت أخرى راحت أمي خلالها تمسح براحة كفها ثوبها ثم تلتقط أشياء وهمية منه وتلقي بها بعيداً. ألقيت بالطرف المنسدل من غترتي إلى الوراء وأنا أقول لها:

– أنا مسافر الليلة إن شاء الله.. توصين شي؟

– وين؟

– أمريكا..

اكتست ملامحها بتعجّب واستنكار بينما غلب على صوتها الاستخفاف وهي تسأل:

– الله.. أمريكا مرة وحدة؟ وش عندك..

شعرت بأن عينيها تومضان خلف جفنيها المتهدّلين. خفضت رأسها قليلاً ورمقتني بواحدة من نظراتها التي تفحصني بها دائماً مثل حقيبة تشك في محتوياتها. شعرت بالاستفزاز وأنا أتعرّض للفحص فأجبت بحنق مكتوم:

– شـ.. شـ.. شـ.. ششششغل.

– وش شغله يابن الحلال. والله ما عندك شغل ولا شي. خلاص من هالعومة الفاضية. ترا ما عادك صغير. مثلك عياله في المدارس الحين. وش بيقولون عنك وانت كل يوم في ديرة؟

– والله عندي شـ.. شـ..شغل في أمريكا يا أمي. لا تقولين إلا خير.

– وشو شغله؟ وشو شغله؟ علمني..

– أكثر من شغلة يمه. وش لس في اتـ.. اتـ.. التفاصيل. أمور كثيرة.

– أنت تحسب الناس ما يدرون ولا يتكلمون؟ عديت الاربعين لا تزوجت ولا شفت لك حتى شغل زي الناس. وش تالية هالسفرات اللي ما منها خير؟

مع انتهاء عبارتها صرّ في داخلي باب من الحديد لا تعرفه. يوصد نفسه كلما راحت تصبّ عليّ تقريعها الثقيل ويحيلني إلى قلعة من الصمت والوحدة. أكنس من عتباتها كل ما في أعصابي من التوتّر وأكوّمه فوق لساني كالعادة مثل حفنة من الغبار والأغصان الجافة. مسحت بيدي على جبيني لأتأكد أن صوتها لن يتجاوزه إلى ما وراءه وتركت لساني يخونني كما تعوّد أن يفعل بي منذ عامي الرابع.

دخلت الخادمة حاملة ترمس الشاي وقطعة كيك ذابلة. تردّدت قليلاً عند الباب وهي تسمع احتدام الحوار قبل أن تسرع خطواتها لتضع الصينية في منتصف الطاولة وتنسل خارجة. قمت لأصبّ لنفسي كوباً من الشاي بينما أمي تتابع حديثها وكأن خادمة لم تدخل أو رجلاً لم يقف ليخدم نفسه. ألقيت على وجهها نظرة خاوية وتركتها تكمل حديثها..

– ... ما تشوف هاللي سجنوه مدري عشرين سنة في أمريكا، والله يسجنونك ما درى عنك أحد. تحسب أبوك بينفعك. ما نفعك أول عمرك ينفعك الحين.

– وش سجنه الله يهديك يمه.. وش بروح أسوي أنا؟!

– العن الشيطان واقعد بس. ما لقينا من ورا السفر خير..

زفرت بصوت عال، وضربت بكفيّ معاً على فخذيّ وأنا أهم بالوقوف قائلاً:

- طيب.. سـ.. سسلام عليكم!
- حسبي الله عليك.. حسبي الله عليك.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

واتخذت طريقي إلى باب الخروج وأنا أصمّ أذنيّ عن الحوقلات المجانية التي راحت تنثرها خلفي. وعند الباب قرّرت أن أتأبط شتيمتها الأخيرة لأستعين بها في التخفيف عن شعوري بالذنب لخروجي بهذه الطريقة فقلت لها:

- توصّين شيء يا أمي؟
- رح الله لا يردّك. ما أبي منك شي.. جعلك ما ترجع.

وخرجت إلى سيارتي وأنا أفكر كيف يتعامل الله مع الدعوات المتتابعة التي يرفعها أبي وأمي عليّ منذ ست وأربعين سنة حتى الآن؟ هل من المعقول أنه لم يتخذ قراره بشأنها حتى الآن؟ أتراه يمهلني.. أم يهملهما؟

٥

في حياة أخرى، كان جدّنا الأكبر قندساً ولا شك. لو أني اكتشفت ذلك مبكراً لوفرت على نفسي عمراً من التعب والشجار والغضب والعقوق والسخرية. ولكن ما أدراني أن ثمة حيواناً يشبهنا في النصف الآخر من العالم؟ لم يظهر في الرياض حيث لا تقام له المهرجانات ولا تعلق صورته في الميادين. كان عليّ أن أنتظر أكثر من أربعين سنة حتى أفهم عائلتي وأنا أصيد السمك على ضفة ويلامت وأقتسم التمر مع قندس.

صدفة متأخرة ولكن لا بأس. لا شيء يجيء متأخراً إلا عللته الأقدار بأسباب حكيمة. لو أني التقيته من قبل ربما لم يدر بيننا هذا الحوار الصامت حول قيمة التمر ووحدة البساط، ولا تذكرت أسنان عائلتي وطباعها وشحّها. وربما لم أكن لأنكش العمر وأحاول إصلاح ذكرياتي بصعوبة. الذين نلتقيهم ونحن نشق الأربعين ما كانوا ليأتمنونا على نفس الحكايات الكثيفة لو لمحوا في وجوهنا نزق العشرين وعجلتها.

أكثر ما يدهشني هو سدوده التي يبنيها في عرض الأنهار. يأخذنا القارب السياحي قاب قوسين من أول الأخشاب فأكتشف أنها متشابكة بإتقان وكأنها نسيج. ولكن هذا لم يكن دافع دهشتي الوحيد بل لأنه يبني سدّه على طريقة أبي. يغيّر مجرى التيّار ومسار النهر وشكل الغابة مثلما يغيّر أبي اسم الشارع ويشكك في اتجاه القبلة ويطرد عزاب الحيّ. يختار الجذع بنفسه مثلما يختار أبي الطوب والقرميد مستسلميْن لغريزتهما التي تقول أن الجذع الخاطئ يهدّد عائلة القنادس مثلما أن الطوبة الخائنة قد تهدم البيت وتهتك الأسرار. لا يأمن القندس العيش إلا تحت الجذوع التي راكمها بنفسه ولا يسكن أبي في بيت مستأجر لأنه مضيعة للعمر ومهلكة للمال بينما البيت الذي يبنيه بنفسه أكثر راحة وأطول عمراً وأعلى ثمناً وأحرى بالبركة.

كان بيتنا سداً لا ينقصه إلا رائحة النهر. أشعر وأنا واقف أمام سد القندس أني أملك الحق وحدي دون بقية السياح بأن أطرق الباب وأدخل. سأجد نفسي هانئاً في بيت شبيه خلف تلك الكومة المتراصة من الأغصان والفروع مثلما أني لو أخذت القندس إلى الرياض لعاش في بيتنا منسجماً مع كل شيء وكأنه ولد فيه. ربما سخر مني إخوتي لو دخلت عليهم متأبطاً كتلة فرو ولكنه سيكفيني سخريتهم عندما يخبرهم ما لم يكونوا يعلمون ويتلو عليهم نبأهم اليقين. يفسّر لهم سبب تديّن بدرية المفاجئ بعد الأربعين، وهروب منى الذي حطم جزءاً لا يستهان به من السد، وسيجعل نزعات نورة الطارئة تبدو منطقية ومعقولة، ويمنح عمتي فاطمة أملاً

في حياتها المنطفئة بجوار الموقد، ويساعد سلمان في الوصول إلى ما سعى إليه طويلاً. ولسوف يكمل الكثير من الفراغات في حكاية أبي مع أمي قبل أن يطلقها ليبدأ حكاية أخرى مع زوجته شيخة.

عندما نتأمّله جميعاً وهو يجوب ممرات البيت وردهاته بحثاً عن خشب وماء سنكتشف أننا نشبهه؛ برؤوسنا الكبيرة وأحناكنا السمينة ورقابنا الغائبة وأبصارنا الضعيفة. أرهقنا تغيير هذه الصفات طويلاً بينما لا يبدو القندس آبهاً لذلك وهو يمشي فخوراً بأسنانه وفروه وردفيه. ولكن ذلك سيتغيّر حالما تحقنه الرياض حقنة التفاضل فيقرر أن يتحوّل إلى مخلوق ليس هو ويسألنا المساعدة في ذلك. فيأخذه سلمان معه إلى النادي الرياضي الذي يعالج فيه قصر قامته بالعضلات رغم أنها جعلته يبدو أقصر، وتسلخ عنه نورة ومنى فراءه البنّي مثلما تفعلان بسيقانهما وأذرعهما كلما زارتهما المرأة السودانية التي تنزع الشعر، ويصطحبه أبي إلى المكتب ليعلمه أصول التجارة الحذرة ويكسبه مهارات العمل الجاف بلا راحة، وتقهيه عمتي فاطمة من دلتها الكسولة المليئة بالحسرات، وتأخذه بدرية إلى بيتها ليلهو به أولادها الذين يلهون بكل شيء ويسأله زوجها عن واسطة.

ستظن العائلة أنه لطيف ومتعاون ولكن بحاجة إلى نهر وضفة ليكتشفوا مثلي أننا سرقنا جيناً خفياً من جيناته القديمة وخبّأناه في أرحام جداتنا البعيدات، فصرنا عائلة قلقة وحذرة، فظة وباردة، ونفعل كل ما تفعله القنادس تماماً: عندما يقرض القلق عظامنا نقرض بقية الأشياء، وعندما نجمع بعض الحكمة نشرع في بناء السد،

وعندما يعطف علينا الغرباء نسرق تمرهم وطعامهم. الشيء الوحيد الذي لا نجيده مثلها هو اهتمامنا ببعضنا رغم أنّا أقمنا في بيت واحد مثلما تعيش هذه الحيوانات القارضة معاً تحت آلاف الجذوع القديمة.

هذا هو عيبنا الأزلي الذي لن يغيب عن حذق القندس. سيلاحظ منذ الليلة الأولى له في بيتنا أننا نأكل من طعام واحد لا على طاولة واحدة، ونقيم تحت السقف نفسه ولكل منا نَوْء مختلف، ونحتفل بنفس الأعياد ولكن ابتساماتنا متنافرة. سأبوح له عندما يسألني عن السبب أنه القلق. وحده القلق الذي أبقى بيننا العهد وجعل كل ما بيننا كعائلة مجرد عهد. القلق من الشتاء الذي قد يأتي قارساً ولم نجمع ما يكفي، والظروف التي قد تقصم ظهر أحدنا لو ظل وحيداً. وبسبب القلق جمع أبي أكثر مما نحتاج، وعمل أكثر مما ينبغي، رغم أن هذا الشتاء لم يأتِ وتلك الظروف لم تحدث أبداً.

منذ وصل أبي إلى الرياض ووجهه معفر بالدّين واليتم وهو يشعر بأنها حريق كبير يوشك أن يأخذه. ولذلك ربّانا جميعاً كفرقة إطفاء. نقف متماسكي الأيدي على محيط دائرة وندير ظهورنا بعضنا إلى بعض بينما تطل وجوهنا إلى الخارج دائماً. ننظر إلى الناس أكثر مما ينظر بعضنا إلى بعض. ونسمع عن حرائق الآخرين أكثر مما نسمع عن حرائقنا العائلية. ولكن رغم ذلك كله نظل متماسكي الأيدي. لم ننتبه أبداً أن دائرتنا المقدّسة وسطها فارغ ولا يستحق الحماية، ولكن ما الذي يجعل القندس يقضي عمره في حماية حيّز من الخشب المكدّس فوق النهر ويضرب بذيله المفلطح صفحة

الماء ليحذر البقية من الأعداء والأغصان الطافية؟

لا شيء يجمع بيننا نحن الإخوة المنفرطين من رحمين. عندما شعر أبي بذلك قرر أن يطلينا بالصمغ ويلصق بعضنا ببعض كيفما اتفق حتى نبقى معاً ولو كانت قلوبنا شتى. سيفهم القندس حكاية الصمغ هذه دون أن يتحسّس جلودنا أو يشمّها لأنه اعتاد قبلنا الالتصاق بأفراد العائلة ليجعلوا من قلب النهر مكاناً دافئاً للعيش. نحن فعلنا ذلك أيضاً لنجعل الرياض أقل وطأة وإن لم نقض على وطأتها تماماً، ولنجعلها أكثر وضوحاً وإن لم نفتح كل الأدراج. عندما نرش الماء على دائرة من العشب الضئيل نعلم أنه لن يقتل الغبار والظمأ.

فهمنا من الرياض أنها مثل الهضبة التي تتسنّمها.. لا تحترم إلا الأشياء الكبيرة. والقندس يعرف أن النهر في جريانه لا يحترم إلا السدود العظيمة. هكذا قررنا أن نكون عائلة كبيرة رغم قلة عددنا. اعتمدنا على ضخامة ذواتنا وعلو أسوارنا وكثرة سياراتنا والشارع الذي يحمل اسمنا، والمسجد الذي بنيناه في حينا، ووجوهنا الصفيقة التي لا يحبّها أهل الحيّ.

سيلاحظ القندس أيضاً أن عائلتي بكماء في ما بينها ثرثارة في محافل الآخرين. نخترع فضائحنا بكتمان رهيب حتى لا يعرف أحدنا ماذا يحاك في الغرفة المجاورة. سلمان الذي يسرق أبي بمبرّرات شرعية، ومنى التي تحرق الرجال وكأنهم فراشات ضالة، وعمتي التي تقتات من قلبها مثلما يقتات الجمل من سنامه. هل كنا نفهم بعضنا بعضاً أكثر مما يفهمنا الآخرون؟ لا يبدو لي ذلك. هذا ما دفعنا لأن نتقوّل الأقاويل بعضنا عن بعض كمحاولة للفهم. يفترض

كل منا طبيعة الآخر دون أن يسأله.

لهذا كانت مغامرتي عصبية وفاشلة عندما حاولت أن أكتبهم ونكصت كتابتي على الأعقاب. سيقرأ القندس ما بقي من أوراقي، وسيشهد أني أردت أن أقول ما لم يقله أحد منهم من قبل، في مدينة لا تحب أن تبوح بالحكايات ولا تحب أن تسمعها أيضاً. ولهذا أسقطتني بين فكيها لتمضغني قليلاً ثم تلفظني إلى حيث أنا الآن.. محاصر بالنهر البارد الذي يطرح قنادس حقيقية.

٦

لمحت نورة وزوجها يعبران صالة المسافرين باتجاه بوابة السفر رغم أني وصلت متأخراً إلى المطار على غير عادتي. بدا أنهما وصلا متأخرين أيضاً. فكرت وأنا أراقبهما عن بعد بما يفكر فيه الأخ عندما يرى أخته بصحبة زوج جديد في الصباح الأول. رحت أتأمل مشيتها محاولاً أن ألتقط طرف خيط يؤكد ظنوني بأنها التهمته منذ الليلة الأولى كأنثى عنكبوت جافة.

كان يجرّ حقيبة بنية كبيرة ترهق ساعده النحيل الذي زادت من نحوله تلك الساعة الضخمة التي يتزيّن بها منذ ليلة الزفاف. طرأ عليه الارتباك والتوتر وهو يتأمّل لوحات المطار بحثاً عن الرقم المناسب محاولاً ألا يرتكب أيّ هفوة أمام عروسه المتأنقة. يسرّ إليها بين الفينة والأخرى بشيء لا أظنّه ذا أهمية وتتلكأ هي وراءه عابثة بهاتفها العريض كشأن التي تقضي مشواراً عادياً في مركز تسوّق غير عابئة بما هي مقبلة عليه من زواج وسفر.

كشفت وجهها فور تجاوزها لضابط الجوازات كما توقعت.

ورغم أني أقف على مسافة بعيدة ولا أرتدي نظارتي بدت لي بوضوح تلك الحبّة النافرة التي امتطت أنفها قبل يومين من الزفاف وحوّلت مزاجها إلى مزرعة شوك. لم أشعر بأن نورة تستحق أن تخونها بشرتها في ليلة كتلك رغم قلة أدبها وفظاظتها في الكلام معي. طالما شعرت بأنها تخفي بذلك روحاً واهية وشخصية ضعيفة. ها هي ترتبط بزوج أكثر ضعفاً. يبدو أن الريح وحدها هي التي ستسيّر حياتهما معاً.

تأكدت أنهما لن يبرحا المكان أمام بوابة سفرهما إلى كوالالمبور فتحركّت بحرية تجاه بوابة السفر التي سأطير منها إلى لندن. ارتديت سترة رمادية كما يفعل الرجل الذي لا يحبّذ أن يلاحظه أحد. تناولت عشائي في المطار حتى لا يقطع نومي عشاء الطائرة فأستقبل صباح لندن بعقل يقظ يمكنني من مناورة غادة التي سيفاجئها حضوري حتماً.

وصلتني رسالة على هاتفي الجوال من داود «تروح وترجع لنا بالسلامة يا حبيبنا..». توقعت وصولها لأني اعتدت عاطفته التي لا تجيش إلا إذا سافرت رغم أنه فارقني قبل نصف ساعة فقط عند باب المطار وسهر معي ليلة البارحة حتى مشارف السحر. ظل يطرح ليلتها أسئلة متوقعة عن تاريخ عودتي وخطة سفري ووقت الإقلاع ونوع الطائرة ودرجة السفر ليسرد بعدها معلومات جاهزة كرّرها عليّ مراراً تتقاطع مع كل ما أجيبه عنه.

– ايرباص؟

– ما أدري. يمكن!

– كراسيها اثنين ثلاثة اثنين، ولا اثنين اربعة اثنين؟
– يعني وش تفرق يا داود؟
– ما أدري. أحس اثنين ثلاثة اثنين أريح. تخيّل أنك جالس في الوسط؟
دارت عيناي في محجريهما بتململ:
– فعلاً. تخيّل!
– تدري. عشان تكون في السليم. اختر كرسي جنب الشباك وريح بالك!

كل من يرانا معاً ببشرته السوداء الداكنة وقامته القصيرة وابتسامته الثابتة وملابسه الرثة يظنه خادماً. ولو أن قامته كانت أطول قليلاً وبنية جسده أعرض لظنوه حارساً شخصياً من أولئك الذين يرافقون الأمراء. لا يمكن لأحد أن يسعفه خياله بحقيقة أنه خالي الأسود اللطيف الذي تسرّب إلى حياتي مثل نغمة هاربة من فم راع جبلي. كلما زارنا في الملحق صديق جديد كان يجب أن ينتظر منّا قصة تبرّر له كيف يمكن أن يكون خالي أسود فأتناوب مع داود رواية القصة حتى حفظنا أدوارنا تماماً.

رضعت أمي من امرأة سوداء كانت تسكن أطراف القرية ومات ذلك الرضيع الذي شاركته أمي الحليب. أنجبت المرضعة بعده بسنوات طفلاً آخر كان داود. يكبرني ببضع سنوات وتكبره أمي بضعفها تقريباً. جاء إلى الرياض فعلمته كيف يعيش فيها بين الهدى والضلال، وكيف يؤوي إلي إذا أزف يومه على الانتهاء لأفتح معه ليلة أخرى. جبت به شوارعها وأسواقها آلاف المرات دون أن

يفهم المسكين أني كنت أستخدم بشرته السوداء وهو يمشي إلى جواري لأبدو رجلاً عالياً يجذب اهتمام نساء عاليات. ولم أتوقف عن ذلك حتى شتمتنا امرأة سليطة اللسان في مركز تجاري كبير بعد أن تبعناها كظلها: «انت الحين مشخص بهالعبد اللي معك؟».

لم تكد تنهي عبارتها النابية تلك حتى كان داود قد قفز الأمتار القليلة التي كانت تفصلنا عنها وانطلق باتجاهها. خلت لوهلة أنه سيصفعها تحت وطأة الإهانة. حالما بلغ مكانها مد عنقه إلى الأمام قدر المستطاع ليصبح على بعد سنتيمترات منها ثم مال برأسه ليبدو مثل دمية مكسورة الرقبة وهو يصرخ في وجهها السافر مباشرة «عبد في عينك. أنا خاله!».

فرّت من فمها ضحكة عصبية لم يتوقعها ولم يفهمها. كانت قامته القصيرة وغضبه الطفولي والطريقة التي مد بها عنقه ليعالج فارق الطول مشهداً مضحكاً بالفعل حتى إن المرأة العابثة التي كنت أحاول معاكستها خرجت من حالة الشجار وراحت تهدّئ من عصبية داود وهي تغالب ضحكاتها:

- طيب. خلاص. لا تزعل. عارفين أنك (خال) طبعاً!

كبرنا ولم نعد نفعل أياً من ذلك. افتقدتنا تدريجاً تلك الجنبات بين شارع الثلاثين والعليا العام ومركز العقارية الذي نسجت حوله طيلة عقدين حكايات مدينة تحاول أن تحب. لم يعد يسألني داود كعادته تلك الأيام إذا ما كان «الليلة فيه مقناص ولا لأ؟». كنت أندهش من مقاربته الساخرة لما نفعله لأنها لم تبتعد عن الحقيقة كثيراً. لم نكن نخرج إلا للقنص. شيء أحدّ وأمضى من الشهوات

المتراكمة في عروقنا كان يدفعنا لنذرع شوارع الرياض بحثاً عن فتيات نعالج بهنّ غريزة الصيد الذكورية في عروقنا.

مرّت سنوات طويلة بعد ذلك وسئمنا هذا الجوع الممتد على الطرقات. صرنا نقضي ليلنا الطويل في مجلسي والعمر يقضمنا على مهل. يأتي داود في وقته المحدّد أول الليل ويمضي بعد منتصفه. ظلت بشرته تقل دكناً مع تقدّمه في السن بينما تزداد بشرتي حلكة من فرط التدخين والسهر حتى بدونا معاً مثل رقعة شطرنج تذوب ويتداخل لوناها عاماً بعد عام. كان هناك أصدقاء كثر لا تخلو أماكنهم في المجلس الذي اختزن نزقهم جميعاً ولم يضق بهم يوماً غير أن داود ظل وفياً للمكان أكثر مني أنا، ساكنه الوحيد. وعندما توقف الأصدقاء عن ارتياد فيلتي بعد أن شاخت أرواحهم النزقة وانشغلوا بالأطفال والرواتب والأسهم، وحده كان يمنحني وقته دون مساومة. يدق باب الفيلا ليلاً بعد أن يفرغ من أعمال بيت أمي ويطل بعينيه الطيبتين وشفتيه الضخمتين وذلك الأنف الملتف حول نفسه مثل حلزون. يحيّيني بكل التحايا الطيبة ويمد يده لمصافحتي راجياً إيّاي ألا أقف. وكلما مضى بنا الليل شعرت أن الفراغات الصغيرة التي تؤذيني في الداخل تنكمش وتختفي وتصبح الحياة أبسط.

عندما أستعين به مراراً ليعيد برمجة قناة فضائية اختفت من القائمة لسبب ما أتذكر يوم علمته كيف يستخدم الريموت وهو مندهش من حجمه الكبير وكثرة أزراره. تحوّل بعد أشهر قليلة إلى خبير تلفزيوني يتقن برمجة القنوات واختراق الشفرات وحده

دون أن يلقنه ذلك أحد. يحفظ شكل الكلمة الإنجليزية ويعرف ما تؤدّي إليه دون أن يتمكن من نطق حرف واحد منها، ويصعد إلى سطح المجلس إذا تطلب الأمر ليعيد تثبيت الدش بعدما حركته الريح بحذق الذي قضى عمره في هذه المهنة. كل هذا من أثر الليالي الطويلة التي كان يقضيها في مجلسي حتى بعد انصرافي للنوم وهو لا يعرف لنفسه ملجأ إلى الانطفاء في متاهة القنوات التي تخدّر أحلامه وتسرق لبّه. علمته أشياء كثيرة كان يمتنّ لي في بعضها وربما يلعنني على بعض آخر لعنةً سريةً لا يبوح بها حياءً مني. اشتريت له الواقيات الجنسية البلاستيكية حتى يتوقف عن إنجاب الأطفال بلا داع بعد أن فشلت أمي في إقناع زوجته بتناول الحبوب المانعة، وكانت النتيجة سبعة أطفال ينتشرون في بيته مثل اليرقات النهمة ويملأون رأسه المربّع بالصداع والفوضى وهموم العيش.

– الحين انت وين مخك يوم تجيب سبع أطفال؟ من وين بتصرف عليهم بالله؟

وبسخريته اللاذعة التي ينال بها من نفسه غالباً كان يجيب:

– وش اسوي ياخي. هذي زوجتي كنها مصنع جزم. ما يطلع منها إلا اثنين اثنين. ما في إلا آخر واحد اللي جاء فردة لحاله.

طالما لمحت في قعر عينيه ذلك الحزن المترسّب منذ قرون عبر آبائه وأجداده. أتأمّل ردود أفعاله البسيطة تجاه كل شيء فأشعر بأني أمشي على تربة رطبة تترك آثاري واضحةً في اتجاه غير واضح. كان يؤثر فيّ أضعاف ما يمكن لعقله المحدود أن يتصوّر من التأثير. هو

خالي ونديمي، ولكنه يتصرف عفوياً كخادمي، لأن دماءه ما زالت مليئةً بالرق وجيناته مجبولة عليه.

في صغره فشل في الدراسة. قبض عليه وهو يراود صبياً عن نفسه وأودع دار الأحداث. لم يكن غلامياً كما هي الحال مع الكثيرين من المقبوض عليهم بتهم كهذه ولكنه كان يمارس عادةً سيئةً تؤهله ليكون شوارعياً كاملاً في اعتبار أبناء الحيّ الفقير الذي نشأ فيه، ويبني شخصيته في المكان حسب الأعراف السائدة في تلك الشوارع المهملة. وعندما مات أبوه ازداد ضياعاً وقبض عليه وهو يحاول تهريب القات من اليمن. دخل السجن بضعة أشهر في حكم مخفف باعتباره مساعد مهرّب وليس مهرّباً أساسياً، وخرج بعفو ملكي عام في إحدى المناسبات الوطنية بعد أن حفظ أجزاءً من القرآن.

ولما زارت أمي أبها ذات عطلة شكت إليها أم داود تصرّفات ابنها وهي تعرف سطوة أمي عليه وهي أخته الكبرى التي لم يجرؤ يوماً من الأيام على أن يناديها بذلك أو أن يفكر في أقصى شطحات طموحه أن يعاملها كأخت أو يغنم من صلاحيات هذه القرابة. كلما رآها أقعى عندها مثل حيوان خائف وأطرق في وجل ونطقت عيناه باحترام هائل. وعندما تعاتبه يبكي مثل تائب وعندما تهدّده أمه بأن تشكوه إليها يهرب من المنزل حتى تدعوه أمي للمثول أمامها.

تتقن أمي هذا الدور بين داود وأمه، وعندما تتكلم معه تخرج نبرة صوتها ملكيةً جداً يغضي لها داود المسكين الذي يمنعه التناقض الشديد بين لوني بشرتيهما أن يفكر أنها ليست إلا أخته من

الرضاع. وعندما توجّهه لشأن ما يلتزم به شهوراً عديدة قبل أن يعود إلى سابق عهده ويتطلب الأمر شكوى جديدة. كانت أمي تهتمّ به كثيراً لأنها بلا إخوة من النسب وهو أخوها الوحيد.

في تلك السنة التي خرج فيها من السجن أمرته أن يتزوّج وتدبّرت له عملاً في إحدى الشركات الصغيرة في المدينة على أن تتكفل هي بكل مصاريف زواجه. تزوّج داود دون نقاش. وعندما صافحته أمي مع عروسه في ليلة الزفاف قبّل يدها وأمر زوجته أن تفعل ذلك أيضاً.

بعد سنوات قليلة من زواجه خسر وظيفته وجاءت أمه بنفسها إلى الرياض وجثت أمام أمي جثواً تحاول به أن تقبّل قدميها قبل أن تمنعها الأخيرة، فتوسّلت إليها توسّلاً خطيراً بدا أنها كانت تخبّئه للضرورات القصوى «بحق الحليب اللي أرضعتك يا أم غالب..»، فأسقط في يد أمي ولم يعد بوسعها أن تردّ رجاءها. أرسلت في طلب داود ليأتي إلى الرياض. أفرغ له زوجها إبراهيم شقةً في بناية شعبية له ليقيم فيها مع أولاده وأمّه ثم أوكل إليه أعمالاً بسيطة كجمع الإيجارات الشهرية من سكان البناية نفسها، والاهتمام بمشتريات البيت وحوائجه، ومرافقة حسان وأصدقائه عند الحاجة. ثم لم يلبث أن وجد طريقه إلى فيلتي ووجدت طريقي إلى قلبه.

٧

عقدت حاجبيها تلك الليلة في لندن كما عقدتهما من قبل في مدن كثيرة. صار حاجباها يتوقعان منّي النزق فينعقدان حتى قبل أن أرتكبه. ألفت مرآهما على تلك الحالة حتى كأنهما خصماي الأزليان المعلقان فوق عينيها إلى الأبد. لم تكن تريد أن تراني هنا. أخبرتني مرات عديدة أن لندن تتقن النميمة العربية وستفضحنا معاً لكني لم أعد أهتم لأمر التدابير الحذرة. نكبر أحياناً حتى نضطر إلى الحذر ونكبر أكثر لنتخلى عنه.

حزمت أمري أن أجعل لندن محطة عبوري نحو بورتلاند دون أن أخبرها. قلت لها بعد وصولي إني سأقضي الليلة في أحد فنادق جسر الفارس الذي كنت أظن اسمه جسر الليل قبل أن تصحّح لي معلومتي بتأفّف المعلم الذي ملّ من عمله. لم أتأفّف حينها. أطلقت في المقابل ابتسامةً واسعة من تلك التي أجعلها عادةً تلتف حولها مثل ثعبان متمنياً لو كان في نابي سمّ تلك الليلة لأحقنه في وتينها دون تريّث.

أكره ما صارت إليه في السنوات الأخيرة: موحشة كأنها ناظرة مدرسة بعدما ركضت معها في أزقة العمر مثل طفلين يدهشهما الحفاء والعري. تتعالى على ذكرياتنا وكأني ارتكبتها وحدي، وتتبرّأ من بعضها وكأن التظاهر بالنسيان يكفي لطمس معالم الماضي.

جرت معركة صغيرة من رسائل الجوال بيني وبينها قبل أن تصل. بعد ساعات قليلة دلفت إلى غرفة الفندق وقد استعانت على حجب وجهها بنظارة سوداء كبيرة ووشاح أسود يغطي نصف فمها وقبعة سوداء تحجب جبينها تماماً. تركتُ هذا السواد الأنثوي ينسكب في الغرفة على مهل مثل مأتم أنيق ثم أغلقت الباب وراءها وأنا أقول بسخرية..

– عفواً يا ست.. المقبرة في الشارع المقابل!

استدارت ناحيتي فجأة وهي ترفع نظارتها عن وجهها ليبدو حاجباها كأنهما ظلا معقودين منذ خرجت من بيتها. فاجأها أن أسخر من هيئتها إذ كانت تتوقع منّي اعتذاراً على القانون المكسور لا سخرية. ولكني فعلت ذلك عمداً بخبرة الرجل الذي درس مزاجها طيلة عشرين سنة. هكذا أمنحها فرصة الانفجار الفوري فتثور قليلاً ثم تهدأ تدريجاً وتمر الليلة بسلام. يجب أن تفرغ غضبها دفعة واحدة. أسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن تقسط عليّ العتبى ساعات طويلة تعقد خلالها حاجبيها ثم تعقد ساقيها فتكون كارثة.

عندما يصبح الحب في لندن شحيحاً يمتعض منا السقف وتمقتنا الأريكة. لا شيء يخفف من برودة هذه المدينة أفضل من ليلة ساخنة نطهوها على مهل. ولهذا اخترت أن أفقأ حنقها بوخزة مبكرة ليطير

في أرجاء الغرفة مثل بالون كبير قبل أن يفرغ منه الهواء وتستقر غادة بين ذراعيّ أخيراً.

– هيّا أقسم بالله.. أقسم بالله.. الشارع دا.. كللللله.. زوجات زملاء زوجي بيتسوقوا اربع وعشرين ساعة. بيعرفوني حتى من مشيتي. وبكره في جلسة غداء رسمي تلقاهم: «ايش عندك يا غادة في الشيراتون.. شفناكي داخلة». يعني مو مكفيك تجي لندن وكمان تسكن في النايت بريد ج؟

– ما في مكان أحسن من جسر الليل. هو اسمه كذا على فكرة؟

– سيبك من المسخرة. من جد يا غالب. انتا انجنيت؟ ايش صار فيك يا أخي. بتفضحنا على آخرها؟

كانت جرعتا الويسكي التي استبقت بها دخولها قد ساعدتاني على البقاء هادئاً أمام ثورتها. جلست بشكل معكوس على كرسي خشبي أنيق موضوع في طرف الغرفة، وواجهتها بابتسامة لم أعد أدري كيف تبدو الآن على وجهي ولكنها كانت تروقها كثيراً في السنوات التي خلت.

– شلون بفضحك يعني؟ اللي يسمعك يقول تقابلنا في قرية صغيرة مو لندن!

– سيبك من قرية ومن لندن. احنا مش متفقين على كذا من قبل؟ ايش اللي تغير اليوم؟ صار مزاجك مزاج فضايح يعني؟

صارت الفضيحة تطرأ كثيراً على كلامنا في الأشهر الأخيرة. كرّرتها الآن على سمعي مرتين في ظرف دقيقة. وهذا يزعجني

لسبب لا أفهمه. ربما لأنها تستقرئ نيّة لم أنوها بعد. لا أدري لماذا صارت تشك في خذلان وشيك سأوقعها فيه بعد كل هذه السنوات الطويلة. تظن أن النبل ينقطع فجأة بعد الأربعين فأنقلب عليها مكفهراً وأعمى. أنقض العهد وأخترق الأسوار بعد هذا المشوار الطويل والألفة العميقة.

لا أفهم كيف تتوقع مني ذلك. إنني أتغيّر مثلما تتغير، ولكن ما الذي يمكن أن يدفعني الآن للتصرّف بحماقة وكأني كنت أدّخرها لهذا العمر الممل. إنها تتوجّس دائماً من التغيّرات بعد سنوات طويلة من الروتين الذي سكن أطراف هذه العلاقة مثل روماتيزم مزمن. ولكن ماذا بعد؟ هذا الروتين نفسه هو الذي حوّلنا إلى ترسين في ساعة أثرية اعتادا أن يلتقيا كل برهة، فيشتبكان في صمت ويفترقان في صمت.

المشكلة أنها ظلت طيلة السنوات التي مضت تصعد نحو هدف وأنا أنحدر نحو خيبة. وعندما تباعدت بيننا المسافة أصبحت أصواتنا بين القمة والقاع مشوّشة ومقطوعة ولا نكاد نفهم بعضنا.

– صدقيني يا غادة. في لندن مشاهير كثر غيرنا لتلاحقهم الصحف!

راحت تعلق قبعتها ووشاحها على المشجب وهي تقول بنبرة مستسلمة مشوبة بلوم عميق.

– أتمسخر أتمسخر. ما عندك أولاد تخاف ينفضحوا ولا بيت بينخرب.

امتصصت إهانتها مثل حائط من المطاط ولزمت الصمت حتى

لا تجرّني معها إلى دائرة الندم. أخذت تفتش في الثلاجة الصغيرة عن قارورة ماء شربت منها قليلاً ثم أولتني ظهرها وراحت تتأمل من النافذة وهي تطلق زفيراً طويلاً. فاحت منها رائحة سخية كتلك التي يفرزها جسدها عندما يختلط عطر فاخر بعرق طارئ. رفعت قارورة الماء لتشرب منها مرة أخرى فبدا على عنقها الخط الطفيف الفاصل بين لون بشرتها ولون زينتها.

عانقتني أخيراً بعد محاولات قليلة مني. ارتدّ حاجباها إلى الأعلى ليصنعا نظرةً مستسلمة وحائرة. قبلت عنقها لأعلن انتهاء الجدل ولكنها تراجعت وكأنها لا ترغب في إنهاء عتابها وإشعال الضوء الأحمر قبل أن يمضي وقت كافٍ لتتأكد أن غضبها كان مؤثراً وسأتذكره في المرات المقبلة.

قالت بنبرة مستعطفة:

- يا غالب أرجوك. لندن لأ.. يعني كل أوروبا ما عجبتك؟ إلا لازم لندن يعني؟

غمغمت بصوت هادئ قرب أذنيها:

- والله ما لقيت رحلات مناسبة إلا عن طريق لندن.

- يا سلام!!

تملصت من بين يديّ وحدقت في وجهي مباشرة بنظرة مستنكرة. كادت تفر من فمي ضحكة من طريقتها في لفظ الكلمة الأخيرة «يا سلام»، وهي تضع يدها على خصرها مثل طفلة تدخل شجاراً لأول مرة. حوّلت ضحكتي بصعوبة إلى ابتسامة وأنا أقول..

- والله العظيم..

– وانت وين رايح بعدها؟
– على أمريكا..
– ليه؟
– بقعد كم شهر، ويمكن أكثر..
– حتهاجر يعني؟ أنت فاكر الهجرة سهلة..
ارتدت غادة قناع الناظرة الأرستقراطية مرة أخرى واستعدّت للتوبيخ والنصح. رغم فظاظة هذا الدور وكرهي له تفاءلت به الآن لأنه يعني اقتراب خروجها من حالة الغضب.
– لا. مـ.. مـ... مو هجرة طبعاً. وبعدين أعرف أنها مو سهلة..
– إذا عندك شوية فلوس استثمرها يا أخي. كفاية كدا، انتا فاكر نفسك صغير..
ابتسمت بخبث وأجبتها..
– لا أبداً مو صغير. انتي بس اللي صغيرة.
تجاهلت سخريتي وتابعت حديثها..
– مثلاً: أبني لك عمارة حلوة تجيب لك دخل ثابت. أدخل في مشروع صغير تتسلى فيه بدل السفر والشطحات الغريبة اللي كل يوم طالع لي فيها.
– وش شطحاته يا غادة. اللي يسمعك يقول أني ضايع وصايع. بروح أمريكا كم شهر أرتاح شوي، وكل شيء ماشي على ما يرام. لازم يكون عندي عـ..عـ..عمارة ومشروع ولا أكون ضعت؟
– يبوي أنتا فوق الأربعين دحين.. فوق الأربعينييين..

غمزت لها وأنا أجيب بسرعة:

– صحيح. صحيح. ولكن أنتي مو عارفة أن أبوي صار فوق السبعين؟

ارتفع حاجباها بدهشة ثم ضحكت وهي تلقي بجبينها على كف مفتوحة وتهز رأسها بتعجب من تلميحي الفج. تأكدت من ضحكتها هذه أن القناع الأخير قد سقط ولم يعد ثمة غضب ولا عتبى ولم يبق إلا أن تشتعل الغرفة اللندنية الفاخرة مثل فرن شعبي في جدة.

ولكن هذا لم يحدث ولم نشعر بخيبة أمل.

لم ألتق بها بعد تلك الليلة رغم أني مكثت ليلتين أخريين في لندن. أخبرتني أنها كانت تخطط لسفر ما منذ أسابيع وأن عليّ أن أتحمّل نتائج وصولي المفاجئ. لم أبد استياءً ولا بروداً إزاء وداعها السريع. بعثت لي آخر مساء بطاقة عشاء مجاني في مطعم لندني فاخر أخبرتني أنه يتطلب حجزاً مسبقاً لعدة أسابيع ولكنها تدبّرت لي طاولة فيه بصعوبة. أكلت فيه وحيداً وأمضيت الوقت أسجّل في دفتري الأخضر الصغير ترتيبات إقامتي المقبلة في بورتلاند.

اختلفت لقاءاتنا كثيراً منذ حادث السيارة الذي تعرّضت له في الرياض. قبل الحادث كان جسدانا آلتين منسجمتين للرقص والعويل تماماً مثل الكمان وقوسه. نجمع من أيامنا التي لا نكون فيها معاً نوتات عشوائية من صفو الحياة وكدرها ثم نعزفها متى اجتمعنا حتى تحترق تماماً، فنذرها للريح، ونفترق.. لنجمع نوتات جديدة.

لم تتوقف مشاكلها الزوجية يوماً. رغم ذلك لم تفكر أن تنفصل

عن زوجها. تخيّلت طويلاً أنها رابطة الأطفال ودستور العائلة، ولكن أختيها مطلقتان وهي ليست أقل نزقاً منهما. بدا لي أنها تعيش مع زوجها مثل مغناطيس تقليدي يتنافر نصفاه ويتجاذب النصفان الآخران، وهي تظل في تقلبها بين الحالتين حتى تلتقيني ذات موسم وتستعيد توازن الفترة المقبلة.

لم تخبرني كثيراً عن بيتها وما يجري فيه. كل ما أتصوّره عن حياتها يظل معي ردحاً طويلاً من الزمن قبل أن تفر من فمها كلمة تثبته أو تدحضه. أنا أيضاً لم أكن أحدثها بحقيقة ما يحدث لي. كنت أزخرفه حتى يبدو جميلاً في بواكير العلاقة ثم صرت أخفيه لأتجنّب نصائحها ولومها في أواخرها. وكثيراً ما كنت أصنع كذبات صغيرة أنساها أحياناً وأتورّط بها لاحقاً.

عشنا زمناً ونحن نلتقي بانتظام كل بضعة أشهر حتى أصبحت لقاءاتنا عادة اجتماعية تشبه زيارة الأصدقاء ومواعيد الطبيب. ثم انقلبت بي السيارة وكدت أخرج من الحياة مغبوناً وأنا أقودها بسرعة هائلة في الطريق الدائري شمال الرياض دون أن أكون على عجلة. أحياناً نفعل ذلك في الرياض دون مبرّر لعلنا نسبق الزمن فنطّلع على القَدَر القادم الذي تخبئه لنا. لم أبطئ سرعة السيارة كما ينبغي عند منحنى المخرج فانقلبت وراحت سيارتي تقفز بشكل جمبازي عدة مرات وأنا أشعر بأني خرجت من مدار الجاذبية.

تغيّرت وتيرة اللقاءات بعدها بسبب ظروفي الصحية وإقامتي أكثر من شهرين في المستشفى. قدمت من لندن لتزورني بعد أن ساعدها داود في تنسيق ذلك. أطل وجهها من وراء الستار الذي

يفصلني عن المريض المجاور في الليل الشتائي الجاف الذي خيّم على أروقة المستشفى الجامعي بالرياض. كنت أظنها ممرضة النوبة الليلية قبل أن يفاجئني سواد عباءتها بدلاً من بياض ثياب الممرضة. قبّلت جبيني وأنا لا أزال في وهلة الدهشة. انطلقت من فمي عبارات ترحيب مرتبكة فوضعت يدها على فمها منبهة إياي على ارتفاع صوتي. راحت تمسح بيدها على الجبائر التي تحيط بذراعيّ وظهري وابتسمت لي ابتسامةً هادئة تشبه خليطاً من ثلاث أمهات.

مرّت أشهر طويلة قبل أن أشفى وأستعيد القدرة على المشي وصبوت للقائها. اتصلت بها في بداية الصيف لأسألها ذلك بنفس الطريقة التي تعودنا أن نتفق بها على لقاء ما في أي مدينة بعيدة:

– نحتاج نوصل الرحم من فضلك!

– توصل الرحم ولا توصل إلى الرحم؟

– كما تريدين!

– يا راجل انت فيك حيل. انت كنت على وش موت.

– طيب نلتقي ونشوف!

– من جدك؟

ولم أعقب على سؤالها. قرّرت أن أغضب بشكل هادر مستعيناً بما تجمّع عندي من حقوق المريض طيلة عام. كان مهيناً بالنسبة لي أن تبحث عن سبب لوقف لقاءاتنا حتى لو كان مفتعلاً. هل كانت تنتظر حدثاً جللاً يغيّر نمط حياتي حتى تمتطيه إلى رحيل أخير؟ هل كانت تلتقيني طيلة الأعوام السابقة صبراً على الابتلاء فحسب؟

التقينا أخيراً بعد إلحاح مني في تولوز. كل مرة نلتقي تختار مدينة

جديدة لتحقق مكسباً سياحياً يعوّضها إذا جاء لقاءنا رتيباً ومملاً. والحقيقة أن أغلب لقاءاتنا بعد الحادثة كانت كذلك. وكثيراً ما كنا نقضي منها في التسكع على المقاهي والتفرج على الأفلام أكثر مما نقضيه في الغرف المغلقة والسرر الوثيرة.

وأنا أمر على لندن في طريقي إلى بورتلاند كنت أعرف أن لقائي معها لن يعدو كونه تجديداً لميثاق لم نكتبه ولا ندري أين يقع الآن في فوضى حياتنا وأدراجها المفتوحة. لا أنا أطلب ولا هي تعطي، ولكن الأجساد تلتقي مثل عملية سريعة في سوبرماركت مزدحم نتأكد بها معاً أن كل شيء على ما يرام، دون أن نتساءل يوماً عن ماهية هذه الأشياء التي نرغب في أن نجدها على ما يرام.

تلك الليلة، اضطجعت جواري متكاسلة وطلبت منّي أن أدلّك ظهرها. قلت لها إنها صارت تطلب ذلك كثيراً في الآونة الأخيرة حتى صرنا نبدو مثل عجوزين في منتجع دافئ. ضحكت ضحكة مرهقة وقالت بصوت قطعه الكسل «والله ظهري تعبااان يا غالب..»، ثم دفنت وجهها في الوسادة وكأنها تطفئ سراج الكلام وانكببت على ظهرها أدلكه لها بأصابع خاملة ومتململة.

اقترحت عليها أن نخرج للعشاء فلم ترد عليّ. ظل وجهها مدفوناً في الوسادة حتى ظننت أنها نامت. وبعد ثوان أجابت بفتور وهي تنهض من السرير وتراقب هاتفها الأنيق دون أن تنظر جهتي «شكلك مصرّ على الفضيحة! نطلع نتعشى مع بعض في لندن؟ ايش رايك اعزمك في السفارة كمان على شرف السفير؟». وابتلعت سخريتها بلامبالاة وأنا أعيدها إليها بمرارة «فكرة حلوة..».

بدا واضحاً أن غادة تنفّست الصعداء وطائرتي تغادر لندن باتجاه الغرب رغم أنها حاولت أن تبدو لطيفة ومشتاقة وهي تغمرني برسائل الهاتف حتى اللحظات الأخيرة قبل إقلاع الطائرة. ورغم لطفها المصطنع لم يفتها أن تفصح عن تذمّرها مرة أخرى من هذا التصرف غير المسؤول وكأنها تعلنني للمرة المئة ضيفاً غير مرغوب به في مدينتها الأثيرة.

٨

لم تكن بدرية مشرفة تربوية مزمنة في كلية البنات فحسب بل الأخت التي استأثرت بأكثر جينات القندس الشكلية ويتضخم ردفاها كل سنة. كلما التقيتها أشعر بأنهما أضخم مما كانا عليه وأجدها تلوم الكورتيزون والهرمونات والعظام العريضة ولا تقول أكثر من ذلك. رغم أنها شقيقتي الوحيدة، وعلينا أن نقول بعضنا لبعض أكثر مما نقوله لبقية إخوتنا غير الأشقاء، غير أننا لم نفعل ذلك قط.

هي أكبر منّي بسنة، ولكن أحدهم قال إن الإنسان يكبر في اليوم الأول من زواجه عدة سنوات دفعة واحدة. ولأنها تزوجت مرتين وأنا لم أتزوّج قط، فهي تكبرني بسنوات كثيرة وتتصرف كذلك فعلاً.

لولا أنها تزوّجت مرة ثانية لظلت طويلاً تلومني على طلاقها الأول رغم أنها زيجة لم تكتمل. عقدا قرانهما قبل أن أكمل السابعة عشرة، وعندما عدت إلى منزلنا في حيّ المربع آنذاك وجدت سيّارته الحمراء تقف أمام الباب بجاحة الكاديلاك التي كانوا يصنعونها

في الثمانينيات طويلة مثل قارب صيد وعريضة مثل منكبي مصارع. هرعت فوراً إلى هراوتي الصغيرة التي كنت أخبئها تحت مقعد سيارتي بلا مبرّر وقرّرت أن أتخذ موقفاً يسرّع انتقالي من المراهقة إلى الرجولة، فهشمت زجاجها الأمامي تماماً.

بصق أبي على وجهي عدة بصقات متقنة وهو يصرخ «هذي حلاله يالحمار!»، دفعت بدرية أمام زوجها الوشيك وأنا أصرخ بهستيرية مصطنعة «اطلعي فوق يا بنت» فلم تطلع رغم أني ظننت أنها فعلت وهي تعبر جواري باتجاه الدرج وأنا أحدّق في عيني زوجها بنظرات صارمة وهو يعيدها نظرات مستخفة. عادت بدرية من ورائي فجأة وسددت لي لكمة أعلى ظهري وصفعتني على قفاي مرتين قبل أن أتعارك معها عراكاً غير متكافئ أمامه.

عادت الكاديلاك الحمراء لتقف أمام الباب عدة ليالٍ أخرى بزجاج جديد دون أن أملك لها دفعاً. تعمّدت بدرية الاختلاء به في المجلس مقفلاً إمعاناً في الاستهزاء برجولتي المرتبكة. أجبرني أبي على تقبيل رأس زوجها مرتين واصطحاب كبش ذي قرنين إلى بيته على سبيل الاعتذار. ولكن الزيجة لم تكتمل رغم ذلك. ولا أعرف التفاصيل المؤكدة حتى الآن.

يبدو أن مشهد عراكنا الوضيع أمامه لم يجعل بدرية تبدو جميلة كما أراد زوجته ولا رزينة كما توقع. كانت أخت الفتى المتهوّر الذي لا يجب أن يكون خالاً لأبناء لم يجيئوا قط. شيء يشبه القدر، وله ملامحي بالتأكيد، جعل بدرية تنفصل عن زوجها وهي عذراء ونصف مجنونة ولا أدري لماذا حمّلني الجميع مسؤولية ذلك. لو

كنت متهوّراً فعلاً لأتقنت الحكاية وهشمت رأسه بدلاً من زجاج سيارته، ولكني كنت شاباً يمارس الدور الذي وجدت أبناء الحيّ يمارسونه ويتحدثون به. لبسته على روحي الصائمة عن الثقة منذ ولدت ووجدت أخيراً جدوى لهراوتي الجبانة التي كنت أزيّنها باللاصق الأسود كل ليلة وكأني مقاتل محترف فإذا بها تكلفني الكثير من الكبرياء.

أحياناً أفكر أن بدرية ربما كانت أهم امرأة في حياتي رغم كونها بعيدة جداً عن روحي هذه الأيام. اقتسمت معها كوباً من العمر المهم ورغيفاً من الذاكرة المملحة لم يكن ممكناً أن اقتسمهما مع غيرها. أتعجب من قلة ما هو مشترك بيننا ومن سطوته وقوة تأثيره. لا أظنني كنت سأختارها أختاً لو أننا نختار ذلك، ولا أظنها كانت ستفعل أيضاً. تورّطنا في رحم واحدة أنجبتنا تباعاً من أب غير مرغوب فيه، ونشأنا في كنف ضيّق احتوى طفولتنا الجافة على مضض.

لم تكن أمي تريد أبي ولا هو يريدها. لذلك طارت بعد إنجابي مباشرة إلى رجل آخر أنجبت منه ابناً أفضل. تصرّ بدرية على أنها كانت وسوسة شيطان تستعيذ من أن يعودها هي وزوجها بعد حين ويصيّرهما إلى ما صار أبوانا إليه. وإذا تطرق الحديث إلى ذلك قلّبت عينيها الخاويتين مع الاستعاذة المكرّرة وكأنها تقطع الكلام قبل أن تنقلب الصفحة على ما لا ترغب في قراءته.

اتصلت بها قبل يومين من شقتي ببورتلاند وسمعتها تستعيذ بنفس النبرة من جملة مخاوف ونمائم مختلفة. ولكن استعاذتها

هذه المرة كانت أفصح وأطول وكأنها سرقتها من فم واعظ. تأكدت بعد دقائق أخرى من الحديث الهاتفي أنها صارت امرأة ملتحية ولبست لبوس التديّن. أخبرتني أنها وفقت في ارتياد حلقة ذكر مباركة وتذهب بانتظام إلى مدارس تحفيظ القرآن وتشارك في دروس تطوّعية لغسل الموتى.

ابتسمت وأنا أتأمل أمامي الشارع البورتلاندي من النافذة التي غبشتها قطرات المطر وأتخيّل بدرية بهيئتها الجديدة. لا أدري لماذا تخيّلتها تعبر ذلك الشارع بلباس راهبة وقد شذبت التقوى أخيراً شعثها الأبدي ووجدت بين يدي الله ما تكمل به عمرها الناقص. بالتأكيد أنها ستنصرف عن سماع الغناء كما يفعلون وتتخلص من أشرطة عبد الكريم عبد القادر الذي كان يطربها صوته الصبور الجريح.

ثلاثون سنة مرت منذ تعاركت وإياها حول أحد أشرطته حد التقلب على الأرض وكأننا نتعارك على إكسير الحياة. بدأنا في غرفتها وانتهينا في الفناء الخلفي لبيت المربع مروراً بالممرات والدرج والصالة والمجلس والمطبخ. امتلأ معصمي وظهر كفي بخدوش أظافرها الصلبة وامتلأت كتفاها وظهرها بكدمات لكماتي الشرسة. استمر العراك أكثر من ربع ساعة وهي تزداد زرقة وأنا أزداد حمرة. انكسر الشريط أخيراً بين أيدينا وانفرطت بكرته الصغيرة وهي تجرّ وراءها الشريط البنّي اللامع الذي سرعان ما انعقد حول بعضه وتحوّل إلى كرة تائهة من الغناء حملتها الريح لتعلقها على أنبوبة الغاز قرب الباب الخلفي للمطبخ. انصرفت بدرية إلى غرفتها

وفمها مليء بالتهديد والشتائم الحارقة بينما خرجت أنا إلى الشارع لا ألوي على شيء.

قلت لها عبر الهاتف:

- يعني خلاص أجي آخذ أشرطة عبد الكريم كلها؟

وضحكت بدرية ضحكة مفتعلة وكأن تلك الذكرى لم ترقها.

- لا ما بعطيك شي. تبيني آخذ ذنبك؟

بدا لي تديّنها كأنه محاولة أخيرة لنقش اسمها على أيّ جدار في العالم. عندما أتأمّل حياتها أشعر بأني أطالع فيلماً وثائقياً عن سفّاحة محتملة ولكن الحياة لحسن الحظ لم تمنحها غضباً كافياً. تدحرجت بها العناية السماوية إلى مصير هادئ ومقبول ولكنها ما زالت غريبة على كل الأشياء، فلا تكاد تتعلق بشيء، ولا تفضّل شيئاً، ولا تميل لشيء، ولا تشتهي شيئاً.. أو أنها لا تقول. تراكمت في داخلها أنصاف أحلام مبهمة وطموحات لا تستطيع هي نفسها أن تصفها في جملة مفيدة. لكنها تعرف أنها تحتاج فقط. فتندفع إذا استطاعت أو تنكفئ إذا عجزت.

كان أخونا غير الشقيق سلمان قد تديّن لبضع سنوات أيضاً. الفرق أنه فعل ذلك في أوائل العشرين بينما هي في أواخر الأربعين. كلاهما هرع إلى ذات القنديل في أكثر مراحل نموّه احتياجاً للضوء عندما يمران في النفق المعتم الذي لا يلاحظهم فيه أحد. شاب في العشرين بلا صوت ولا هيبة وامرأة في الأربعين بلا تاريخ ولا مستقبل.

فور أن وجدت غادة متصلة على الإنترنت تلك الليلة كتبت لها

«تصدقين؟ بدرية صارت مطوّعة!»، وعندما سألتني عن سبب ذلك أخبرتها أن من عادات الرياض أن تختار قرباناً واحداً من كل أسرة وقد عمّتنا بفضلها واختارت اثنين.

– الحمد لله ما كنت أنت القربان ولا ما كان تحمّلتك..

– ما زالت الاحتمالات قائمة. والرياض لا تشبع..

– ههههه. الله يستر. الحمد لله إني من جدة!

– ولا يوجد عندكم قرابين في جدة؟

– والله مدري. من زمان عن البلد، خليني لما أرجع أشوف كيف الوضع!

تملص سلمان من القالب الذي تورّط فيه يافعاً وإن ظل متورّطاً في بقايا الصورة التي يصعب طمسها. ولكن هل ستفعل بدرية ذلك؟ إنه مضمارها الأخير ولم يبق متسع لمحاولات أخرى. لو ألقيت عليها نصحي لرمتني بموعظة ولو سخرت منها لقاطعتني بضعة أشهر. إنها لا تهاتفني أصلاً إلا لأنها تعتقد أن من العيب أن يتنافر الإخوة في هذا العمر، أما دون ذلك.. فلا شيء يؤكد لبدرية أن ما تفعله هو عين الصواب أكثر من اعتراضي عليه. أنا معيار الحياة المعكوس في نظرها.

٩

كان الجو رطباً والمدينة غائبة عن الوعي. هكذا وجدت بورتلاند عندما دخلتها من حيث لم تحتسب. حطت بي طائرة لندن في سياتل بعد أن استعجلت الرحيل من لندن وقد خلفتني غادة أطرق مطاعمها وحيداً. قدت سيارة مستأجرة قرابة الساعات الثلاث قبل أن أصل إلى مشارف بورتلاند ليلاً وأنا أشعر بأن الأشجار الفارعة المصطفة على جانبي الطريق تحدق فيّ بأعينٍ نصف نائمة وتعجب من هذا الرجل الصفيق الذي يلج المدن ليلاً ويزور عشيقته بلا موعد.

قفزت إلى ذهني وأنا أعبر بسيارتي الجسر الذي يربط الولايتين آخر عبارة سمعتها من أمي وأنا أغادر بيتها الشمالي الجاف «الله لا يردك.. جعلك ما ترجع». تشبه أمي هذه الأشجار ذات الجذع الطويل التي تورق في أعلاها فقط ولا تسقط ثمرتها أبداً. فكرت ما إذا كانت عبارتها تلك تقريعاً غاضباً أم دعاءً صادقاً، وما إذا كانت رسائل غادة الهاتفية التي تراكمت في هاتفي منذ وصولي لطفاً مصطنعاً أم اعتذاراً متأخراً؟

كان بوسعي أن أترجم تصرفات غادة بسهولة في كل المواقف التي تمر بنا. ولذلك أتفهم حذرها حتى وإن لم ترُقني مبالغتها فيه وكأني فتى غرّ لا يحسن التصرّف. ولكن كيف لي أن أفسّر أمي وهي تودّعني بذلك الدعاء البغيض بعد أن كانت قبلها بدقائق تحاول ثنيي عن السفر؟ هل تشعر أمي بالحزن لأني لست في الرياض مثلاً؟ هل يغيّر ذلك حياتها شيئاً؟ أم هي رغبة السيطرة وغلبة الشعور بأن في متناول يدها ابناً جاهزاً إذا ما اضطرها إليه شأن من الشؤون؟

ليت هذا كان حقيقة. حتى لو احتاجت إليّ لتصريف شؤونها فقط فسأكون سعيداً بذلك وسأجد لها تبريراً ما في قواميس الأمومة المعقدة. المشكلة أنها لا تفعل. لا أتذكر أنها أرسلت في طلبي يوماً أو اتصلت بي لتسألني تدبير أمر من الأمور. كل ما تفعله هو توجيهي عن بعد لأكون الابن الذي لا يعيبها ولا يحرجها، سواء تطلّب منها ذلك حثي أو تقريعي، أيّهما أشد وقعاً.

هل تعبأ أمي إذا ما عشت معها في مدينة واحدة رغم ما يفصلني عنها من أميال روحية هائلة؟ هل تحبني فعلاً بشهادة دموعها التي أغرقت وجهها يوم رأتني مسجّى على سرير المستشفى بعد الحادث وقد أحاطت الجبائر البيضاء بظهري وذراعيّ حتى بدوت مثل رجل ثلج طريح؟

تحتاج الحياة في الرياض أحياناً إلى حوادث ومستشفيات حتى تنكشف مشاعر الذين يحيطون بنا. جاءت غادة من لندن وتركت في الممر رائحتها لأيام، وأبي توسّط لنقلي من غرفة مشتركة إلى غرفة مستقلة. زارتني شيخة في اليوم الثالث معتذرةً بأنها لم تستوعب

الصدمة. أخي حسّان قبّل جبيني لأول مرة في حياته بدافع الشفقة ثم ترك المكان بعد دقائق وكأنه يعود شخصاً غريباً وليس أخاه الأكبر. تولت بدرية إمداد غرفتي بالشاي والقهوة وكأن واجبات الضيافة هي كل ما تفكر به. أما إخوتي غير الأشقاء فلم يأت أحد منهم حتى خرجت من المستشفى. ادّعت شيخة أن قوانين المستشفى تمنع زيارة الأطفال.

تضاربت مشاعري بين العرفان والحقد آنذاك تحت وطأة المخدّر الذي يطفئ آلام العظام المسحوقة في حوضي وذراعيّ. حاولت وأنا ملقى على سرير بارد أن أعيد ترتيب قائمة الحب والكراهية لكل أفراد عائلتي. يا لها من مهمة مرهقة. فوضى عارمة كانت تدور في جسدي الذي أضاعت عظامه أماكنها الأصلية، وفوضى مثلها في روحي حيث رحت أعيد ترتيب المقاعد وكأني في بداية فصل دراسي.

لم أخرج من المستشفى آنذاك بقائمة معدلة من أفراد العائلة لأني فشلت في أن أقوم بذلك اعتماداً على عدد الزيارات ومددها فحسب، ولكني خرجت بعدة قرارات كنت أظنها كلها حكيمة وحاسمة. الآن أفكر فيها بعد سنوات طويلة وأنا أجس شوارع بورتلاند بسيارة مستأجرة وأتخيّل كلاً منهم نائماً في جوف شجرة وأتذكر أنه كان ينقصني قرار صحيح وعادل: ألا أتسلق أحداً منهم يوماً.

تخيّلت نفسي مريضاً وعاجزاً، أيّهم أثق بأنه سيكون جواري حينها؟ الطريف أنه من أجل هذا تحرّضني أمي على الزواج دائماً

حتى أنجب من أتوكأ عليه في كبري وضعفي. «جب لك عيال يشيلونك في شيبتك!»، ولكنها عندما تحثّني على ذلك لا تدري أنها تعترف ضمنياً بأنها فشلت في أن تنجب لي إخوة خليقين بدور كهذا. ولتصحيح هذا التقصير الذي ارتكبته هي وأبي تريدني أن أتزوّج لأنجب مجموعة من الممرضين والممرضات لسنوات الشيخوخة.

لم تعرف أمي وهي تودعني بذلك الدعاء القاسي في مجلسها بالرياض أنها منحتني سبباً إضافياً لأتمسّك ببورتلاند حتى وهي تستقبلني بأشجار نائمة وبرطوبة الصيف المقترب. أشعر برغبة طفولية في أن أثبت لها أني قادر على العيش في أبعد بقعة عنها دون أن أشعر بالحنين. وسيصبح عندي تفاصيل حياة جديدة لا تفهمها هي وبالتالي لا يكون لتوبيخها معنى.

أبي أكثر وضوحاً منها. عندما يتعلق الأمر بسفري لا يستدعيه الخبر عندما يأتيه بارداً من فمي مثل شوشرة مذياع أكثر من إيماءة عابسة. هز رأسه ومط شفتيه وكأن الأمر لا يعنيه، حتى إذا هممت بتقبيل رأسه تظاهر بأنه يفتش عن شيء ما إلى جواره لتفقد القبلة طريقها ولا تكتمل التفاتة البرِّ العابرة تلك. إن حضوري وانصرافي لا يغيّران شيئاً لديه لأنه يدير قلبه مثل مؤسسة. هذا أوضح ما يمكن أن تعكسه ملامحه. لو أني تسلقت جبينه لمسحني مثل حبة عرق، ولو أني تسللت إلى صدره لسعل قليلاً ثم أوى إلى فراشه متدثراً بلحاف إضافي يقيه شر الأبناء الذين يستدرّون العواطف التافهة.

لا يهم. لا يوجد آباء وأمهات لمن تجاوزوا الأربعين مثلي.

وجودهم في هذه المرحلة من العمر يصبح تذكارياً وسخيفاً. وأنا أبتعد عنهما اليوم لأني أعرف أن الحياة في الرياض لن تصنع لي وجهاً جديداً ولن تزرعني في عائلة أخرى والناس نيام. لا توجد مفاجأة أنتظرها في هذه المدينة لأن مفاجآتها مقصورة على الحوادث والصدمات. السعادة الوحيدة الممكنة فيها هي تلك التي نحوكها مثل دمية قماش: لها رأس مبتسم وذراعان.. وعشرون رقعة مختلفة اللون.

ظل الطريق الطويل من سياتل إلى بورتلاند مليئاً بهذه الذكريات الملوثة حتى قبل أن ألتقي ويلامت وأطرح على ضفته أطناناً من البوح الشائك، وقبل أن يعلمني لماذا لا يجب أن أثق بعائلة من القنادس في مدينة ليس فيها نهر أصلاً. كانت النوايا لا تزال مطوية وغامضة مثل لعب البلاستيك الصغيرة التي يجب أن ننقعها في الماء حتى تتشكل وتظهر ملامحها. لا أعرف ماذا سأفعل هنا بل تصرفت تماماً كمثل الذي فاجأته عاصفة رملية فقرر أن يتجه إلى أي وجهة يمكنه أن يتنفس فيها بعمق ثم يفكر بعدها في مكانه.

دلفت إلى فندق صغير كنت قد حجزت فيه بضع ليال حتى أتدبّر أمر سكن. سحبت حقائبي الثلاث بنفسي وأحكمت إغلاق السيارة تاركاً فرجة صغيرة للنافذة حتى يتسرب الدخان الذي نفثته فيها لثلاث ساعات صامتة. ولجت من باب الفندق الدائري كأني أدخل بيتي. تسلمت البطاقة التي تفتح الباب من موظفة استقبال شديدة المرح فقررت أن أجلس قليلاً في بهو الفندق لعلها تكون جائعةً ووحيدة.

طلبت فنجان قهوة ورحت أتصفح دفتري الأخضر الصغير لأتذكر ما يتعيّن علي القيام به في الأيام المقبلة. كانت الأسطر الأربعة التي أمامي تفصح عن نفسها بوضوح:

- البحث عن شقة في وسط المدينة.
- شراء سيارة مستعملة.
- فتح حساب بنكي.
- استخراج رخصة قيادة.

رحت أسجّل ملحوظات غير ضرورية بجانب كل منها حتى أبدو مشغولاً ومهماً لمن يطالعني عن بعد. وجدتني بعد فترة أرسم دوائر متداخلة في أعلى الورقة يثقبها جميعاً خط ضئيل ينتهي إلى مستطيل داكن وغامض. رحت أجرّب توقيعاً باللغة الإنجليزية وأنا أفكر في ما إذا كان ذلك ضرورياً. فكرت أن أبدّل اسمي باسم أجنبي لأمعن في الاختفاء. تخيّلت أبي يحمل عصا طويلة ويجوب غابات أوريغون بحثاً عني، وتخيّلت غادة تصاب باكتئاب حادّ وتصر على أنها مسؤولة عن كل ما حدث، وتخيّلت أمي لا تنطق بغير اسمي وهي في سكرات الموت الأخيرة.

انتبهت بعد ساعات أن شاباً لاتيني الملامح أصبح يشغل مكان موظفة الاستقبال فحملت حقائبي واتجهت إلى المصعد.

١٠

قبل سفري، أخبرت بدرية أن الشؤون المالية التي بيننا يجب أن تتوقف لأنه ليس بوسعي متابعتها عن بعد ولأني لم أعد أتحمّل ما تجره عليَّ هذه الأموال المشتركة من سوءات لسانها السليط. كان ذلك فرصة لتجدّد تنديدها بحماقاتي التي أودت بالجزء الأكبر من الأموال التي رصدها لنا أبونا بعد أن كثر تعريضنا له بمحاباته لإخوتنا غير الأشقاء، سلمان ونورة ومنى.

اشترينا أسهماً واحترق جلها في نوبة من نوبات السوق. قالت بدرية إني ضيّعت الأموال في السفر بينما قال أبي إن «الرجاجيل لعبوا عليك!». كلاهما استغل الحادثة ليقرصني من حيث دأب أن يراني: بدرية من حيث أنا ضال وعربيد، وأبي من حيث أنا غر وجاهل. أما أمي فقد امتنعت عن التعليق فور سماعها بالأمر مما وشى بأن رأيها كان خليطاً بين الاثنين.

الأموال التي يمنحني إياها أبي نمامة ولعينة، كيفما تصرفت بها عادت عليّ بنقمته. إذا ربح البيع قال إنه يجدر بي أن أعمل لحسابه

بدلاً من أن أنفرد بعملي مثل ابن عاق، وإذا خسرت قال إني لا أملك عقلاً ولا رشداً ولا بد أن أعمل معه لأني لست أهلاً للاستقلالية، وإذا أنفقتها كما ينفقها الناس اشتعل غضباً وظنّ أني أبدّد تعبه وكدحه ولا بد أن أعمل معه لأعرف قيمة المال، وإذا ادّخرتها لحاجة في نفسي ظنّ بي الظنون وراح يمنعها كي لا أستغني بها عن عملي معه. كل ما أفعله يزيده يقيناً بأنه لولا أمواله لانفضّ أبناؤه من حوله، ربما لأنه يعلم أنه فظ وغليظ القلب أصلاً، ولا شيء في ذاكرتي ولا دفاتري ينقض هذا اليقين.

لم تكن بدرية تعرف ما هي الأسهم حتى ملأت لها ورقتين بيضاوين بالشرح والرسوم. في آخر الشرح أخبرتني أنها لا تفهم ذلك كله ولكن بيتها يحتاج إلى ترميم وزوجها يتجاهل الأمر. تحوّلت من مستثمر واعد في بورصة الأسهم إلى مقاول لترميم بيت بدرية. أوصل المال مثل صنبور رديء من الخزان العلوي الذي يملأه أبي على مضض إلى حوض بدرية التي لا تفهم دورة الأنابيب ولا مبادئ السباكة.

لم يكن من الممكن أن أقنع شريكتي بأن نصف المال قد تحوّل بالفعل إلى طوب وجبس في بيتها الذي انتهى ترميمه فعلاً وأني لم أكن أملك أمام إلحاحها المتكرّر غير أن أصرف لها مباشرة من نصيبها وبعض نصيبي وليس بوسعي مكاثرة المال بين يدي مثل كرات السحرة. ولكن من يقنعها بذلك؟ كلما رأت المؤشر مرتفعاً في نشرة الأخبار اتصلت بي لتطلب جزءاً من الأرباح حتى انقطع المال أخيراً وظلت أسهمنا الخاسرة زمناً في البنك حتى حان وقت سفري.

– يعني عاجبك اللي سوّيته؟

– يا بدرية. في أدراجك سبعين فاتورة وسبعين كشف حساب. وزوجك المحاسب الفهمان ممكن يساعدك. لا تطوّلين السالفة!

– يعني ايش؟

– ما كنتي تبين ترممين البيت؟ هذاه ترمم.. وش تبين بعد؟

– كان المفروض المبلغ يكفي للترميم ويستمر يحقق أرباح إلى الأبد..

– والله ما تدرين وين راسك رايح..

– حسبي الله ونعم الوكيل. إلا انت والله اللي ما تخاف ربك حتى في أختك..

عند منتصف الفنجان تركت بيتها. تساءلت وأنا أغادر الحيّ الذي تسكنه شرق الرياض إذا ما كنت قد أكملت فنجان شاي في بيت بدرية من قبل؟ دائماً سيّئ الطعم ومعاد التسخين. هل لأنها لا تجتهد في صنعه ما دام الضيف أنا؟ أم هي أصبحت عاجزة عن إكمال فصل الترحيب والمجاملات الأولي قبل أن تشنقني بالكلام المر؟

كلما خرجت من بيتها أجدني أختار أطول طريق يعيدني إلى بيتي لعلّي أنفث بعض غضبي في الشوارع الجامدة. ربما قدرٌ ساخر هو الذي وزّع بيوت عائلتي في جهات الرياض الأربع حتى أستغل ما بينها من مسافات في تعقيم مشاعري قبل الزيارة وتلويثها بعدها. بيتنا في جنوب الرياض، وأمي في شمالها، وبدرية في شرقها، ومكتب أبي العقاري في غربها.

تمنيت لو أني ضاعفت تلك الأموال وغيّرت حياة بدرية ولكنها لا تفهم ذلك. أحياناً أبرّر لها فجاجتها وأحياناً أخرى ألعنها حتى يشتعل فمي. زوجها موظف حكومي طال عليه الأمد ولم يمت أبي كما يتمنّى. وأبناؤها الذين تناسلوا منهما تباعاً لا أكاد أحفظ ملامحهم فضلاً عن تذكّر أسمائهم. اثنان منهم ولدا منغوليين. الأول قضاءً من الله وقدراً، والثاني حماقة من أبويه وقلة عقل.

كلما طرقت باب بيتهم يكون ابنها المنغولي أول من يستجيب حتى ظننته يقضي يومه كله وراء الباب في انتظار الزائرين. يحيّيني بالتحية ويردّها على نفسه دون أن ينتظر ردّي، ويسألني ويجيب وكأنه يحفظ ما يجب أن يقال عند عتبات الأبواب فحسب، «السلام عليكم يا خالي.. وعليكم السلام يا خالي.. كيف الحال يا خالي؟ كلنا بخير يا خالي..». كان مضيافاً أكثر من أمه. يصر على أن يدخل كل من يمر من أمام البيت إلى المجلس ولم ينته عن ذلك حتى ضربه أبوه بقسوة عندما عاد إلى البيت ظهيرة يوم ما ليجد المجلس مليئاً بالشحاذين وعمال البلدية.

كان اسمه عبد الرحمن مثل اسم أبي. وعندما ظهرت عليه بوادر المرض العقلي بوضوح في سنواته الأولى لـمّح لهما أبي بأنه لا يليق أن يظل متسمّياً به فالتقط زوج بدرية تلميحه العابر ذلك وغيّر اسمه إلى هيثم. وبعد أن ولد طفلهما المنغولي الثاني بعدها بسنوات أخفيا الأمر عن أبي وكأنهما ارتكبا خطأً تناسلياً. عاش الطفل أربع سنوات دون أن يسمع به أبي أو يراه حتى مات بعد أن دهسته سيارة مسرعة في الحيّ مشى أمامها دون اكتراث ولم يقيموا له عزاءً.

قال لي هيثم ليلتها بصيغة الخبر «يا خالي.. مات أخوي اللي يشبهني» ولم يبكِ مثلهم. ظل يراقب الوجوه الباكية وكأنها لوحات تجريدية في متحف، حتى إذا مرّت أيام وبدأت حياتهم تعود إلى وتيرتها السابقة بدأ يبكي وحده كل يوم لأسابيع طويلة مقلداً انتحاب أمه وأخواته. نهره أبوه في نهاية المطاف لأنّه ظنّه يعبث فحسب. وظلت بدرية تنجب مثل أرنب دون أن تتخوّف من أن تأتي بمخلوق ذاهل آخر لا يعرف غير تجميع النظرات المشفقة من كل الذين سيراهم طيلة حياته القصيرة. عندما أهملها الجميع أصرّت على أن تصنع قبيلتها الخاصة من الأبناء والبنات. كلما زرتها في بيتها رأيت كيف تستهلك حياتها في أنابيب رتيبة لا تنتهي. تركض وراء طفل، وتطعم آخر، وتنهر البنات، وتعاقب الصبيان، وحلمتها غائبة في فم رضيع، ويدها مشغولة في ضفيرة بنت، وخصلات شعرها المتداعي تسقط على وجهها المستدير المليء بآثار بثور قديمة جففّها العمر. تزعم أنها سعيدة وأزعم أنها ألقت بنفسها في خضم من الركض لا يمنحها الفرصة للتفكير في الإجابات المحتملة لسؤال كهذا أصلاً. وحتى لو توصلت إلى إجابة ما في قرارة نفسها فلن تبوح إليّ بها أبداً.

عندما أنجبتها أمي وهي في السادسة عشرة من عمرها خرجت بدرية قطعةً ضئيلةً من لحم وردي. لم تحتمل أمي منظرها ولم تعرف كيف تحملها وترضعها وتعتني بها. ولهذا رضعت بدرية من مرضعتين غريبتين في أسابيعها الأولى، إحداهما يمنية كانت تقيم في نفس الحي أرضعتها دون مقابل شرط ألا يطول ذلك لأنها

كانت ترضع توأماً ولا يوجد حليب كاف لتلك الرضيعة المتطفلة، أما المرأة الثانية فكانت مرضعة مستأجرة أفريقية الأصل جاءت بها القابلة ضمن خدماتها المتعددة. ولم تبدأ أمي بإرضاع بدرية إلا في شهرها الرابع، فانتهى الأمر ببدرية أن تكون أختاً بالرضاع لسبعة أطفال يمنيين وأفارقة، وأختاً بالنسب لي أنا الذي سخرت بكل عنصرية مما فعله ذلك الحليب القديم بها وما صيّرها إليه. وما فتئت أصفها بالعبدة واليمنية حتى عهد قريب.

كان خيالي خصباً بما يكفي لأن يخترع من تلك الحالة آلاف النكات الصالحة لمناكفتها. أفعل ذلك كثيراً وأتساءل عن سببه قليلاً. أصعب ما يمكن تغييره من علاقات هي تلك التي بين الإخوة لأنها ترسب في القاع منذ الطفولة وتتشكل شخصياتنا على أساسها ولا أحد يغوص إلى القاع مرة أخرى ليتحول إلى أخ مختلف. أشعر بين الحين والآخر بالرغبة في تأنيب نفسي على وقاحة الماضي. من المحيّر أن أربّي في داخلي ذنباً عنيداً لأخت لا أعرف كيف أعتذر لها ولست متأكداً مما إن كانت هي في حاجة لهذا الاعتذار وإن كان سيجعلها امرأة أفضل. لو اعتذرت لها الآن لسخرت مني وربما استيقظ في داخلها حيوان لئيم يمتص روحي التائبة حتى آخر قطرة.

المشكلة أن منابزاتي لها كانت تغوص في داخلها كأسهم مسمومة بينما ما تفعله هي بي في المقابل كان يسقط قريباً مني كسرب من الذباب الفاشل. لا يمكن للفتاة أن تكون أجرأ لساناً من الفتى ذي الخيال الجامح الذي يبتكر لأخته إهانات شائكة في طفولته ويكتب

لعشيقته رسائل أنيقة وهو شاب. وعندما يقف في منتصف الأربعين يتمنى للحظة أن ينقلب سلوكه بين المرأتين لتنال كل منهما ما تستحقه فعلاً.

ربما هي الأثداء الغريبة التي رضعت منها بدرية قبل أن تقبلها أمي أخيراً جعلتها أبعد عني، ولكن هل كان ثدي أمي حميماً وهي ترضعني منه على عجل وتفطمني في شهري السابع؟ هكذا كان الحليب الذي صبّته أمي في جسد بدرية متأخراً والذي صبّته في جسدي مستعجلاً. ولهذا تبدو لنا أمي مجرد كائن أسري غائب يحمل هوية أم.. ولا أكثر من ذلك. ثمة عاطفة من ورق تشدّنا إليها. تجعل منها أمّنا وتجعلنا أبناءها. ولو شددناها قليلاً كما تشد العواطف في تقلبات الحياة لتمزقت، ولعل هذا حدث عدة مرات. بعكس حسّان الذي أرضعته ثلاث سنوات كاملة، فتعلق بها بشدة وتعلقت به، ولم تنجب سواه من زوجها الآخر، وكأن حياته حرم مقدس لا يجوز تدنيسه بالأشقاء.

وإذا كان أبي لا يعرف كيف يكون أباً لأحد، فإن أمي، كما اتضح بعد إنجابها لحسان، كانت تتقن الأمومة ولكنها لم تختر إنفاقها علينا كما يجب. إذا وضعتها على كفّ البنوّة، فهي أم عادية مثل كل الأمهات اللواتي لم يخترن الأمومة يوماً ولكنها حدثت واضطررن لأن يمارسن الدور بتلقائية. كانت ترعانا وتحمينا ولا تفعل أكثر من ذلك. طالما أردت أكثر من ذلك. أما إذا طرحتها من كفّ البنوّة ورأيتها كما يراها العابرون فإنها امرأة سليطة فعلاً. متآمرة وبذيئة وأنانية. ولولا صفاتها التي صارت تنزع إلى الطيبة المندفعة كلما

كبرت ربما نفرنا منها منذ سنوات المراهقة الأولى، لا سيما وهي تعيش مع رجل آخر بينما عشنا نحن مع رجل لم يذكرها بخير قط.

تفاصيل صغيرة جداً يصعب سردها في حكايات هي ما جعلني أوقن أنها دائماً أقل من أم. كلما نقبت في الأسباب التي قد تمنعها من سكب أمومتها كما ينبغي أكتشف أن لا وجود لها. أنا متأكد من أنها أرادت زوجاً غير أبي وأبناء غيرنا. أنا وأبي وبدرية كائنات خارج أحلام أمي القديمة. طفرنا فجأة على سطح حياتها فاضطرت لأن تقطع معنا مشواراً قصيراً قبل أن تفر إلى رجل آخر وتصنع عائلة مختلفة. هذا هو التفسير الوحيد الذي يجعلها تقسم لنا من أمومتها الحد الأدنى الذي يرضي ضميرها ثم تمنع عنا البقية لتعلمنا كيف تسود الحياة كلما حيل بين امرأة ورجل تحبه.

١١

تعوّدت نصائح غادة حتى صارت مثل نغمة الهاتف التي نتوقع سماعها كلما رفعنا سماعته. قبل أن تتزوّج كانت تلومني على المناسبات المنسية والشغف المنقوص، وعندما تزوّجت صارت تلومني على التهوّر اليائس والمشاعر الصاخبة، وعندما أنجبت طفلها الأول صارت تلومني على التدخين الزائد والصحة المتراجعة، وعندما بدأت تعمل صارت تلومني على الحياة الخربة والفراغ الدائم، وعندما تبوّأ زوجها منصبه الدبلوماسي الأخير أصبحت تلومني على البوح الطويل.. وكأنها خشيت أن ينزلق اسمها فيه فيفسد كل شيء.

قبل أشهر قليلة عرفت من شكل نصائحها أن أبناءها الذين لا أعرف عنهم شيئاً قد بلغوا سن المراهقة وإلا فما الذي جعلها تنصحني أن أهاتف أمي وأبي اللذين لم ترهما قط؟ كل نصائحها مشتقة من مخاوفها. اعتدت ذلك حتى إن الذي يعطيني عمرها وظروف حياتها سأخبره بالتحديد نوع النصيحة القادمة التي

سترميها عليّ مثلما ترمي فتات الخبز لبط البحيرة. وهي تحب التسكع عند البحيرة من حين لآخر لتعرف ما يستجد على الرجل الذي تضاجعه منذ سنين، بينما الرجل الذي هناك لم يعد يشبعه أبداً فتات الخبز المبتل.

صباح هذا اليوم كالت لي نصيحة جديدة بلا معنى. كنت أنتظر القندس أن يظهر على ضفة النهر وقد نصبت صنارتي وفرشت بساطي وفتحت علبة التمر. أرسلت تستفسر عن أحوالي فجأة. أخبرتها بما أفعله كل يوم منذ وصلت إلى بورتلاند: أحكي للنهر حكاية بلا تفاصيل، وأرمي فيه هلام الأفكار التي تؤذيني، وأمارس عادات لا يعرفونها في الرياض.

- لا تجلس أمام الأنهار التي تجري.. فيجري معها العمر!

هكذا جاءت رسالتها وفي جوفها نصيحة نصف حكيمة لتنضم إلى السابقات التي أحتفظ بها جميعاً بلا مبرّر. نقبت في هاتفي ذات يوم لأجد ما يزيد على مئة نصيحة منها. نصفها يبدأ بلا الناهية والنصف الآخر ينتهي بعلامة تعجب. لمّحت لها مرة أن تتوقف عن ذلك وأنا أخبرها أني اشتريت جهازاً جديداً لم أفلح في نقل الرسائل القديمة إليه. ولو أني جمعتها في جهاز واحد لكان عندي منها الآن نصائح وإرشادات تكفي لنقل قبيلة بدائية إلى عالم متحضر.

لا أدري ما الذي يزعجها في أن أسافر إلى أميركا وأتعلم الصيد وأبوح لويلامت بضعة أسرار تافهة كل يوم؟ الحديث مع النهر أفضل من الحديث معها. على الأقل أن كلامي الذي يسقط في النهر يشبه لقاح الأشجار يحمل في داخله نية الحياة مهما سافر بعيداً. أفضل

بكثير من رسائلي الهاتفية التي صرت أبعثها أخيراً فلا تعود إلا بعد يومين، باردة مثل وجبة منسية على الطاولة.

اعتادت تعليقي بضع ثوان على قصبة الانشغال وعدم التركيز قبل أن تجيب. تفعل ذلك إذا هاتفتها أو تحاورت معها على الإنترنت مثلما كانت لتفعل لو كنا في حضرة سرير أو طاولة مقهى. هذه الثواني القليلة التي تؤجلني فيها لا بد أنها تفسّر ما هو حاسم وأساسي في العلاقة: الانتباه المباشر يعني الشغف وهي لا تريد أن تبدو شغوفة بي. لا حب بيننا. فأنا كما بدأت تسمّيني أخيراً بالإنجليزية: صديق.. بفوائد A friend with benefits!.

لم أفهم معنى التسمية إلا بعد أشهر طويلة رغم أني أعرف هذه النتيجة حق المعرفة منذ زمن طويل. صحيح أني تعوّدت اهتمامها الضعيف وذهنها المشتّت ولكنها الآن تعلق على خبر أرسلته لها قبل يومين في رسالة هاتفية. هذا لا يحتمل.

سخرت بمرارة من تأخرها الفظيع في التجاوب مع صديق بفوائد مثلي:

– ما هي (الفائدة) التي أجنيها من رد متأخر يومين كاملين؟

وجاءني ردّها مباشراً وسريعاً هذه المرة:

– يا عزيزي، لقد كبرنا على إجابة رسائل الجوال بسرعة مثل المراهقين الشبقين.

تبرير ملغوم يليق بشيطانها الذي ينام ويصحو حسب دورة القمر.

أزّ هاتفي مرة أخرى فتوسّمت رسالة منها تلطف مزحتها الثقيلة

ولكنها كانت من البنك ينبّهني أن مبلغ إيجار الشقة قد حسم من الحساب وصارت أموالي أقل. كانت مثل هذه التقنية لتقتل أبي لو أنه طبقها في هاتفه رغم أنها كانت ستريح سكرتيره السوري باسل كثيراً وتخفف عليه من سيل الشتائم الذي اعتاده كلما ناقش مع أبي كشف حساب البنك الشهري. يتجادلان حوله طويلاً ثم ينتهيان إلى إلغاء عدة بنود من مصاريف البيت في الشهر المقبل لا تلبث شيخة أن تعيدها إلى القائمة في الشهر الذي يليه ويوافقها أبي على مضض.

كان ذلك قبل أن يصبح وجه أبي غائماً مثل سحابة غامضة لا ندري ماذا ستمطر. كلما ازداد مرض كبده انكفأ على نفسه حتى لا يكاد يرى الشمس إلا لماماً في ذهابه للمسجد ومواعيد المستشفى بعدما كان يملأ البيت ضجيجاً وسخطاً. أصبح باسل يدير مصاريف البيت كما اعتاد ذلك دون أن يضطر إلى عرضها على أبي الذي لم يعد يهتم بذلك، وبالتأكيد أن نورة ومنى قد استشعرتا هذا التساهل الجزئي في المصاريف فاستغلتاه أيما استغلال، بينما استنكفت شيخة أن تفعل ذلك في مرض أبي.

أعدت قراءة رسالة غادة مرة أخرى بعدما مسحت رسالة البنك التي ذكرتني بأبي مثلما ما يذكرني به كل ما له علاقة بالمال. ابتسمت هذه المرة رغم حنقي وفتحت ذراعي كأني أرسم دائرة في الهواء لآخذ نفساً عميقاً. تخيّلت غادة تكتب هذه الرسائل وهي في عيادة طبيب أسنان أو في انتظار صديقة متأخرة في مقهى.

راقتني تهمة الشبق بعض الشيء. إنها تعترف بحيويتي وقلبي

المعشوشب على كل حال وتشهد بنفسها على مقاومتي المستمرة للصدأ والخراب. ولكن من المزعج أن تصفني بالمراهق وأنا في هذا العمر. هل صارت ماكرة إلى حد أن تمزج لي كلمتين تخفف إحداهما مرارة الأخرى؟ لماذا تتّهمني أنا بالمراهقة رغم أنها هي التي تتمنّع بدلال مغلف بالانشغال؟ أليس هذا هو سمت المراهقة الذي تتّهمني به؟ لعلها صارت في هذا الشفير من العمر عكسي تماماً: يطيب لها التصرّف كمراهقة مدللة بينما تنزعج من الشبق الذي صارت تدفع تهمته عنها كلما التقينا حتى صارت نوبات الجنس تتناقص تدريجاً مع كل لقاء وكأنها لم تعد تحتاج إلى ذلك مني.

أخبرتني مرة بفخر بادٍ على صوتها أن زوجها ما زال يعاشرها كل يوم وكأنها تنفي بذلك تهمة البرود الجنسي الذي يتسلل إلى مخادع الأزواج بعد سنوات طويلة من الاعتياد والأطفال. كنا نشاهد فيلماً تطرّق عرضاً لحالة كهذه جالسين حذاء بعضنا في صالة سينما بعيدة ومنزوية في ميونيخ. وفي طريقنا خارج صالة العرض افتعلت هي حواراً عابثاً لم تقصد منه إلا إيصال هذه المعلومة النزقة وهي تشيح بعينيها بعيداً عني وتعلق على فمها ابتسامة بلهاء وكأنها اكتشفت متأخرة أنه لم يكن يليق بها أن تقول ما قالته.

لم أكن قد سألتها من قبل عن مقاس سريرها الزوجي حتى تزج به بفجاجة على أعتاب سهرة قصيرة في لقاء قصير ضمن عدد قليل من اللقاءات ستنتهي بعد يومين. بعد ذلك تعود إلى لندن حيث تعيش وأعود إلى الرياض حيث أموت. شيء في أعماقها أبى إلا أن يجاهر بذلك حتى لا يبدو أنها تبحث في لقاءاتنا المتباعدة عن

تعويض جسدي لامرأة مُهملة رغم أني لم أعرض بذلك أمامها من قبل.

إنها تعبد جسدها حتماً. تبذل له من التقديس ما يستحقه قبل أن يطويه العمر وترفع الأقلام وتجف الصُحف. ولطالما استعانت بي في عبادته وأوقفتني على مسافة لا تبلغه معها يداي، فتضطرني لأردّد آيات الإعجاب والإخبات لينشق عن صدرها نهر من الرغبة ما كان ليشقه أيّ فعل آخر مني مهما اجتهدتُ فيه. كنت أبذل لها ما أستطيع من الحب كلما أرتني منه ما تستحثني به أن أطلق باتجاهها سرباً من الغناء حتى يرضى جسدها عنها وتبلغ أذنيها حد النشوة الأخير.

هذا ما ساعدني على أن ابتلع استيائي عندما عرضت بعادة زوجها اليومية فلم أعقب عليها واكتفيت بتغيير مسار الكلام. ظننتها في أول الأمر تحاول التأكيد على أن وجودها معي لا علاقة له بالاحتياج رغم أنه تأكيد متأخر جداً. فهمت أخيراً أنها تبشّرني بحاج متبتّل آخر ما زال يفتنه جسدها حتى لا يكاد يفارقه رغم زواجهما الطويل. حاج يشبهني، ويشبه عمّها الذي حكت لي كيف كان يزعم أنه يعلمها بطيبة متقنة وهي مراهقة كيف يتخلق الطفل في رحم فعلمته بدورها كيف يتشكل الشيطان في أنثى.

كرّرت على سمعي طويلاً أنها تكره عمّها مثلما تكره الفئران والحشرات الزاحفة. وكثيراً ما اعتصرت من عينها دمعة ليبدو البوح شاقاً والجرح عميقاً بينما ألتزم أنا بالصمت الصابر والإصغاء المرتاب. تحرّشه بها وهي في السابعة عشرة من عمرها جاء بعد سنتين من تحرّشها هي ببضعة أقارب آخرين ذكرت لي أسماءهم

تباعاً وهي تتخبّط سكراً في ميلانو وأنا أحاول إبقاءها بعيداً عن مسار المارة والسيارات. ولذلك لم تبد غادة لي حملاً بريئاً. كانت ذئبة تلهو مع بضعة ذئاب أخرى في العائلة.

تلك القصص التي أفلتت من لسانها لا تختلف كثيراً عن تلك التي اعترفت لي بها قبل سنوات طويلة من زواجها حينما دأبت على الخروج إلى السوق لتستمتع بجمع النظرات الشبقة من البائعين الجائعين فحسب، تنثرها بعد ذلك على سريرها البكر إذا عادت وتحلم أحلاماً سعيدة. اختزنت كل تلك القصص العارضة في ذاكرتي وكأنها قاموس مهم ألجأ إليه كلما حيّرتني تصرفاتها وألقتني في دائرة صعبة لعلي أفهم ما ترمي إليه.

لم يكن يعنيني أن زوجها تعوّد المرور فوقها في طريقه إلى باب الخروج كروتين زوجي مثلما يلتقط مفاتيحه ويصفف شعره. فلم نكن نعيش واحدة من تلك العلاقات الكلاسيكية ذات الوفاء والغيرة لأن ذلك لم يكن متوقعاً في تاريخنا المتقطع وأمزجتنا المتعاكسة. لم يكن بوسعنا أمام شقة الأميال التي بيننا سوى أن نترك العلاقة تتشكل حتى مرّت السنوات وصارت علاقتنا مثل كتلة من الطين غفل عنها صانع الفخار وهي في يده فصارت شيئاً عجيباً.

فكرت أن أعلق إجابتي على رسالتها يومين أو ثلاثة ولكني خشيت أن يبدو ذلك انصياعاً سريعاً لقانونها الجديد بإطالة أمد الإجابة على الرسائل.

كتبت لها رسالة أخرى على الفور:

- لا تقولي كبرنا من فضلكِ. قولي إنك كبرتِ وحدك!

وجاءني ردّها سريعاً هذه المرة:

- لا يضيرني أن أكبر ما دام عقلي يكبر معي.

- عقلك لا يكبر بل يهرم. وبينما عقلي يتأرجح الآن على ضفة نهر جميل، يركض عقلك محموماً بين أربعة أولاد. ماذا أكلوا وماذا شربوا.

- أنت الذي يهرم غريباً في حبس انفرادي.

- لا بأس. ثمة نساء كثر هنا لا يسألن عن تاريخ الميلاد.

لم يأتني ردّها مباشرة هذه المرة، وانتظرت دقائق طويلة وأنا أتخيّل منها ردة فعل لذيذة وغيورة قبل أن يومض الهاتف برسالتها:

- بالتأكيد لسن بحاجة للسؤال عن عمرك.. سيكشفه لهنّ السرير تدريجاً!

وضحكت وحدي على ضفة نهر بعيد رغم أنها المرة العاشرة التي نقضم فيه نكتة مشابهة في الأشهر القليلة الماضية.

١٢

كانت أمي القندس الوحيد الذي شذّ عن العائلة فملأنا فراغها بالأخشاب والأحزان الميتة. طلقها أبي مرّتين لأنها أخطأت في ترتيب السد الذي يريد. افترض فيها فساد النيّة وخبث العرق الدسّاس الذي يلمّح إليه دائماً عندما يتطرّق الحديث إليها. أما أنا فافترضت في فترات متفرقة من حياتي أنها امرأة جامحة وصعبة المراس وكانت ثورتها على أبي متوقعة. وافترضت فيها بدرية سلسلة من الأخطاء التي ظلت تعلقها على ظهرها عقب كل حادثة ولكنها لا تذكر ذلك أمامها أبداً لأن صداقتها المتأخرة معها تتصادم مع تبجيلها لأبينا في منطقة تغلفها بدرية بالصمت حتى لا ترهق ذهنها باختراع المواقف التي ترضيهما معاً.

السنوات الست عشرة التي تفصل بين أمي وبدرية جعلتهما صديقتين. تلتقيان كثيراً وتتسوّقان معاً وتسلطان لسانيهما على ذات النساء وتنتقدان كل الرجال بمن فيهم أنا. أما الرجل الوحيد الذي لا يمكن أن تتفق أمي وبدرية حوله فكان أبي. بقدر ما كانت أمي لا تكاد

تذكره بخير قط وتسخر دائماً من أميّته وجهله، كانت بدرية تجله كثيراً ولا تكاد تذكره بسوء حتى يوم سفري على الأقل. عليّ الآن أن أتأكد في الاتصال القادم من حال تلك الصداقة بعد تحولات بدرية الدينية.

عندما تركت أمي البيت أول مرة لم يشعر بها إلا بطني الجائع وفمي الذي ظل يفتش عن حلمة لم تعد بالجوار. اضطرّت الخادمة سعدية إلى أن تفطمني مبكراً وقد أرهقتها بالبكاء والسهر. عادت أمي بعد أشهر محاطة برسولات السلام من نساء الناصرية وأزواجهن الذين امتلأ بهم مجلس أبي كما تقصّ علينا أمي القصة مصرّة على أن عودتها تطلبت كل هؤلاء الوسطاء. كان صدرها قد جف تماماً وفمي قد نسي طعم الحليب.

شعرت دائماً بأنها مدينة لي بهذا الحليب الناقص. لذلك أعاملها بالمثل عندما أزورها على فترات متباعدة. زيارتها ثقيلة جداً والكلام معها يشبه الكلام مع معالج نفسي لا نثق به. يسأل أسئلة لا نحبّذها ويصر على أن يحشر في أفواهنا إجابات لم نتفوّه بها قط. كلما زرتها أشعر بأني أؤدي دوراً رتيباً لن أجيده وتؤدّي هي دوراً رتيباً حفظته عن ظهر قلب. بعد تبادل التحيات المعتادة تقول أمي «هاه.. وش تسوّي الحين؟»، بالنبرة التي لم تتغيّر قط مهما كانت ظروف الزيارة أو حالة الطقس. وأحياناً تقول «هاه.. وش صار على...» ثم تذكر آخر شأن أخبرتها أني أقوم به في الزيارة السابقة. ولم أكن أدري إذا ما كانت طبيعة إجابتي ستغيّر طبيعة تعليقها. ما يهمّها فقط هو أن تكون لديها صورة متصلة عما أنا عليه حتى تشعر بأنها أم

واعية. تريد نشرة أخبار مختصرة عن حالي ومآلي لكي تمنحني وصفة حياة جاهزة للتغلب على مشاكلي. وتنتهي الزيارة.

أما بدرية فظلت على وفاق مع أمي رغم أن طفولتها لم تكن أفضل. إنها تخجل من فكرة أن لا تكون العائلة على وفاق فتحاول أن تتوهم عكس ذلك. ويبدو أنها تنازلت عن كل ما فعلته بها أمي أو أنها لم تجد من يتلو عليها حقوقها المسلوبة. انتصرت جينات أمي في جسد بدرية فأنستها أنها كانت طفلة مهجورة. تصالحتا على حالة اجتماعية لا تجعلهما تبدوان غريبتي الأطوار فقط. لم تقتسما الخصال نفسها باستثناء التذمّر من كل شيء. غير أن تذمّر بدرية كان مقموعاً داخل جسدها ويتحوّل تدريجاً إلى بويضات وأطفال، بينما كانت أمي متذمّرة ثائرة يسفر تذمّرها دائماً عن مواقف صلبة وتحوّلات كبرى. هذا ما جعل الأم الصغيرة المطلقة التي لا تقرأ ولا تكتب تحصل على شهادة ثانوية متأخرة لم تعمل بموجبها قط سوى في جمعية خيرية لعدة سنوات قبل أن تترك العمل متذرّعة بأسباب كثيرة.

لم تكن أمي تكره بدرية أثناء طفولتها ولكنها لم تدلق عليها دلو الحب كما ينبغي. تعكس لها بدرية صورة حمل قديم بائس وزوج ممتعض من أنوثة بكره. ولدت في موسم كراهية وفي مدينة تستطيع خلق مثل هذه المواسم بسهولة. وللأسف، لم تستطع بطبيعتها البليدة أن تغيّر شيئاً من ذلك.

الرياض آنذاك كانت تشرب النفط وتتضخم بنحو سريع وهائل وأبي يلهث مع اللاهثين. لم يكن يملك وقتاً كافياً لمعالجة الصداع

الذي تزرعه أمي في رأسه كل مساء، ولم تكن تقبل أن تعيش على هامشه عندما كان خالياً فكيف به مشغولاً. هكذا جاء انفصالهما الثاني إذاً أشبه بوثيقة سلام وليس شرخاً في العائلة. انتقلت أمي للعيش في بيت خالها الذي لم تلبث فيه طويلاً حتى خطبها رجل يكبرها بكثير وجلب أبي الخادمة الحبشية سعدية مرة أخرى لتقوم بكافة أدوار أمي في البيت. رفعت سعدية عن بدرية الكثير من الواجبات المنزلية التي ربما كانت ستعرّضها للفشل ومنحتها فراغاً حاصر حياتها حتى أدّى بأبي أن يلحقها بالمدرسة الحكومية ليملأ وقتها.

ولكن عمتي فاطمة كانت تنسب الفضل لغير أبي «لولا الشيخ رافع صدقيّة لما دخلت بدرية للمدرسة!»، ولا ريب في أنه لو لم ير بنات جارنا الجديد يخرجن كل صباح إلى المدرسة لما تجرأ على أن يخرج بدرية معهن. كان أبي يحبّه بلا مبرّر ولا أعرف سبباً واضحاً يجعله يثق به إلى هذا الحد. فلا أبي كان متديّناً فوق ما هو متوقع من رجل في عمره، ولا الشيخ رافع صدقية كان تاجراً ناجحاً ليثير إعجاب أبي ويكسب احترامه. كان إماماً لجامع ولكن هذا لا يكفي ليمنحه حظوة عند أبي الذي كثيراً ما كان ينتقد المنصرفين كلياً للتديّن «ما عندهم شغلة. كلنا مسلمين». كان الشيخ رافع أيضاً موظفاً في إحدى الوزارات. وفد إلى الرياض حديثاً من ينبع وزوجته أردنية.

طالما عبرت أنا وبدرية الشارع الصغير الفاصل بين بيتنا وبيتهم في الناصرية لنقضي بعض الوقت في بيتهم الأنيق رغم أنه أصغر بكثير

من بيتنا. كان مكوّناً من غرفة ونصف. وتتحول الغرفة المخصصة للبنات نهاراً إلى غرفة معيشة وفي الليل تخرج المطارح من تحت الكراسي وتتحول إلى غرفة نوم لثلاث بنات. كاد أبي يتزوّج الوسطى منهن لولا رحمة الله بها. همّ بخطبتها فعلاً ثم أوجس من نسبهم خيفة. استعانت شيخة بعمتي فاطمة لتنشر الخبر بين أفراد القبيلة لعل منهم من يمكنه أن يعترض على أبي ويصرفه عن المرأة التي لا يعرف لها نسب عريق.

بعد انتقالنا من الناصرية إلى المربع ظل أبي على وصال مع الشيخ رافع حتى تقاعد الأخير وانتقل للعيش في المدينة المنوّرة تحرزاً من المسيح الدجّال. انقطع وصال بدرية مع بناته الأنيقات اللواتي أنقذنها من محيطها التعيس وأدخلنها المدرسة. ماذا كان يمكن أن تكون بدرية الآن لو أنها لم تتعلم؟ كانت تلك نقلةً مضيئةً جداً في حياتها في زمن ومدينة كان تعليم النساء فيهما أمراً مريباً. تغدو صباحاً وتروح بعد الظهر لتفترش مساحة العشب الأصفر الصغيرة في الفناء أو الغرفة التي يخزن فيها أبي سجّاده الإيراني الذي كان يتاجر فيه آنذاك. تقضي كل الوقت غارقة في دفاترها التي كانت تصفها نصب الجدار مثل العرائس وتخاطب كلاً منها بما يجب أن يكون عليه في الغد المقبل. تظل في هذه الحال حتى تنام وقد أعادت كتابة كل حرف عدة مرات.

أما أنا فلم يلحقني أبي بالمدرسة إلا بعد حين. كان يصر على أن يشرع في تربيتي بنفسه قبل أن يحيلني إلى غيره. ولكنه كان ينشغل أحياناً ويسافر طويلاً فأقضي أيامي في البيت مع سعدية وهي تغسل

الثياب وتكنس الأحواش بينما بدرية في المدرسة. حتى إذا عاد أبي أخذني معه إلى دكانه الواسع لينشغل عني مرة أخرى بالبيع والشراء والتحدث إلى جيرانه من تجار السجاد الآخرين بينما أتسلق أنا كومة السجاد الهائلة التي يربو ارتفاعها على الأمتار الستة لأتربّع فوقها متأملاً السوق من عل أحياناً، أو أتقلب يمنة ويسرة كما يفعل الأطفال إذا شعروا بالملل، فإذا رآني أبي كذلك نهرني على أي شأن كان.

أمي تفترض فيّ وفي بدرية شخصيتين ملتاثتين بالقلق الأبدي الذي أورثنا إياه أبي فحرمنا من التمتع بحياة تشبه حياتها مع عائلتها الأخرى. نحن قنادس بينما أمي صارت حيواناً برياً لا يعبأ ببناء السدود بقدر ما يعبأ باهتبال الأرض وانتهاز السماء. ولهذا كان لا يهمّها فشلنا بقدر ما يفاجئها نجاحنا وكأنه كان متوقعاً منا الفشل، أو أن هذا ما ترجوه في ركن خفي من قلبها لتجد أسباباً كافية تلوم أبي عليها.

أما حسّان فهو بالتأكيد محاولة متقنة من البنوة ما زالت تستحق الجهود والآمال. تفترض أمي أني أغار من وجهه المنحوت بعناية ومن عينيه الزرقاوين، وبدرية تفترض أنه مخنث طالما عبث به أفاقو الرياض. لم أسمعها من قبل تستخدم هذه الصفة إلا لوصفه. الحقيقة أني لم أعبأ كثيراً بحشد الافتراضات حوله لأنه من خارج السد. إنه مجرد فتى مدلل كما هو متوقع من وحيد أبويه. هذا ليس افتراضاً بل هو حقيقة لا جدال فيها.

عندما تركت أمي البيت للمرة الثانية ظنوا أنها ستعود عودةً

شبيهة ولكنها لم تفعل ولم نحزن كثيراً. كان غيابها فسحة لنا من أعصابها المتوترة دائماً وضربها الموجع ، وسبيلاً لنا لنكتشف امرأة جديدة جاء أبي بها إلى البيت بعد مدة قصيرة وأخبرنا أنها أمنا الجديدة. فرحنا بها ككل جديد. وكانت على حيادها أسلم على أرواحنا وأجسادنا من نقيق أمي وضربها المفاجئ.

١٣

أغلقت هاتفي بعد رسالة غادة الأخيرة ولملمت حاجياتي القليلة ووضعتها في سيارتي. طويت البساط الذي ما زالت آثار أظافر القندس ظاهرة عليه وألقيته في المقعد الخلفي. أوليت ظهري للنهر الذي عكس حمرة الشفق فبدت أسراب البعوض واضحة وهي تحوم فوقه في كتل كروية متماوجة. قدت سيارتي بضع دقائق حتى وصلت إلى الحي الذي أقطنه. أوقفتها في مكانها المعتاد جوار شجرة لا أعرف نوعها ولكنها تورق ورقاً أرجوانياً منذ أقمت في هذه الشقة وكأن وجودي سمّمها.

قرّرت أن أتمشى قليلاً قبل أن أصعد إلى شقتي رغم أني توقفت عن هذه العادة منذ أن اكتمل اكتشافي للجوار. أجوب شوارع بورتلاند كل يوم مثل مفتش البلدية حتى تغيب الشمس تماماً. أحرص على مراقبة كل التفاصيل ورصد العادات اليومية للمكان، ولهذا أقمت في وسطها حتى لا يفوتني شيء. منذ وصلت إلى هنا بداية الصيف وأنا أشعر بأن ضجيج الوسط يلفني بدوامة من الأمان والألفة.

كنت أتخذ في مشيي مساراً لا يتغير. يبدأ من المبنى الذي أقطن فيه ويمر بجامعة المدينة التي نصبوا في باحتها تمثال القندس البرونزي. أنعطف بعدها لأمشي بمحاذاة النهر الذي تستضيف ضفته مدينة ملاه مؤقتة كل صيف وأنتهي أخيراً في ساحتها الرئيسة التي ينتصب فيها بناء زجاجي أنيق بداخله مقهى لم تنس نادلته طلبي يوماً.

وعندما تغرب الشمس يصبح المشي في هذه الشوارع ذات الإضاءة الخافتة مدوزناً بالحنين. طالما شعرت بأن المشي في المدن الجديدة آناء الليل يختصر الكثير من مهام الغرباء ويساعد على فك طلاسم أهلها بسرعة. في المساء يصعب على المارة الاحتفاظ بأقنعة الصباح الطموحة فيتدحرجون إلى بيوتهم صادقين كالتعب ونزيهين مثلما لا يكونون عادة في حضرة النهار.

صرت أتعب مثلهم وأعود إلى شقتي صادقاً ونزيهاً كما فعلت هذه الليلة. صعدت الدرجات القليلة وتجاوزت باب كونرادو الذي تتراكم أمامه خردته المتجددة. التقطت كتلة من الإعلانات الورقية التي كانت تنتظرني على مقبض الباب ودخلت إلى شقة لا ينتظرني فيها أحد. طالعت فاتورة الكهرباء والماء برضى وحملت قمامتي نصف الممتلئة إلى الخارج وكنست شرفتي الصغيرة وصنعت عشاءً جديداً وأدرت التلفزيون على قناة رياضية وقرفصت أمامه بطيبة راضياً بكل ما يمكن أن تلفظه عليّ شاشته المستطيلة. عندما انتصف الليل أطفأته واسترخيت على أريكتي وأنا أفكر أن المصباح المعلق في السقف يمكن أن يتحول إلى امرأة مضيئة في أي لحظة، تنزل على جسدي وتطعمه قليلاً.

نمت على نزاهة مستعيناً بأحلام جميلة وذكية. في منتصف الحلم قررت أن أكرر هذا السلوك الذي قدّم لي نوماً هادئاً كهذا فربما وقعت أخيراً على الدور المناسب الذي يمكن أن أؤدّيه هنا لتقبلني بورتلاند بعد أن جرّبت عدة أدوار أخرى من قبل فلم تُجد شيئاً. قبل أيام كنت فكهاً خفيف الظل حتى إني شاركت مهرجاً أداء وصلته في ميدان المدينة. ألبسني قبعة طويلة وحملني على كتفيه وهو يقود دراجة بعجلة واحدة. بعد ذلك صرت ماجناً عدة أيام أخرى. أسهر في الحانات القليلة التي تفتح حتى وقت متأخر وأحاول الدخول بشكلٍ ذكيٍ في حوار بين فتاتين يتربّص بهما السكر. ثم صرت رجلاً مثالياً وواثقاً ينبّه المارة بأدب إذا ما ألقوا بنفاية ما في الشارع وهم يمشون. هذه الأيام صرت متأمّلاً وهادئاً. أنام مبكراً وأصطاد السمك على ضفة ويلامت الوادعة.

أسعدني بعض هذه الأدوار وأتعسني بعضها الآخر ولكن أياً منها لم يولّد شعوراً يكفي لأتبنّاه. من الصعب تبديل الأدوار في المدن التي لم نتدرّب عليها بعد. لا يمكن أن نقتحم مسرحاً فجأة فنتناغم مع بقية الممثلين بعفوية. هكذا وجدتني أميل إلى ابتكار روتين يومي يسهل عليّ اقتناص الألفة من وجوه الناس تماماً مثلما تفعل نادلة المقهى عندما تتذكر طلبي المفضل دائماً فأشعر تجاهها بامتنان يفوق ما أكنه لنصف أفراد عائلتي.

عندما أطفأت شمعة السادسة والأربعين شعرت بأن الرياض مملة ومتربة وليس لديها ما تمنحني إياه. شيء ما في شوارعها صار منهكاً من حكايات أهلها وكدحهم الدؤوب عكس الزمن. صار أصدقائي

كائنات خزفية تجمّد في داخلها سائل الحياة. أدحرجهم واحداً واحداً مثل براميل مصمتة نحو رحلة فلا يستجيبون. أقضي ساعتين من عمر الليل الثمين في محاولة جمعهم في مقهى فلا يأتون. أنتظر حتى ينتصف الليل في مجلسي وأنا أراقب نشرات الأخبار وقنوات الأفلام فلا يطرق بابي المفتوح أحد منهم بعد أن كان صخبهم يسكن الهواء وحكاياتهم منقوشة على الحيطان. منذ أن نزلت الأربعون على أعناقهم مثل مقصلة متأخرة أصبحوا يثعبون هموماً وصداعاً ولا تتسرّب ضحكاتهم إلا من النوادر القديمة والذكريات الفانية.

عندما طلق صديقي فيصل زوجته قرّرت أن أجيء إلى بورتلاند. استعرت أحزانه لأتخذ قراراً صعباً كهذا بعد أن وجدت حزني لا يكفي لشيء. الملل وحده لا يمكن امتطاؤه نحو المسافات البعيدة. طفت معه أروقة المحكمة في الرياض شهرين كاملين وهو يسعى للاحتفاظ بوصاية الطفلين. قال لي وهو يحاول أن يدفع عنه نفسه شبهة الحزن والانكسار: «إن لم يحكم لي الشيخ بالوصاية فلن أطلقها. أقسم أن أعلقها مثل حذاء قديم».

بدا أنه لم ينم منذ أسبوع على الأقل. استنجد بي لأكون شاهداً على معاملات الطلاق الذي لم أكن أعرف له سبباً حتى وصف زوجته أمامي بوصف ناب فعرفت أنها خانته. لولا أني كنت مشفقاً على قلبه المخلوع من أركانه لضحكت من ذلك مثلما ضحكت عندما أخبرني أنه سيتزوّج قبل هذا اليوم بسنوات قليلة بعدما اكتشفت أمه تذكرة مريبة في جيب ثوبه فاتخذت قرارها بتدبير جواز سفر أنثوي لابنها ليحل بديلاً من جواز سفره الآثم.

أم فيصل ساعة عتيقة من تلك التي ينتهي الدهر ولا تتوقف عقاربها عن الدوران. ولأنه ابنها الوحيد لم ينفد بجلده من أمومتها القاهرة ولم يبد تعساً بذلك على أي حال. شيء في شخصيته الرخوة كان بحاجة إلى صَدَفَة قاسية كأمه ليظل متماسكاً ويكمل الحياة. كل قراراته كانت تختارها بالنيابة عنه وهو سعيد بهذا سعادة الذي تشعره سلطتها بالفخر لأنها ما زالت تربيه مثل معلمة صارمة في مدرسة داخلية.

خيّرته أمه بين عدة زوجات فاختار التي لعائلتها اسم ذو رنين رفيع، تماماً مثلما يختار الطفل من متجر الألعاب تلك اللعبة الأكثر بريقاً وصخباً. انسحب شغفه بأناقته على قراره الزوجي وراح يحلم بكل التفاصيل الصغيرة التي يمكن أن تحدث إذا تزوّج فتاة فارهة يمنحه نسب عائلتها خيالاً لذيذاً ومباهاة أبدية.

الآن هو لا يناديها حتى باسمها بل يستبدله بكل الألفاظ البذيئة التي تصف امرأة تمارس الجنس مع الرجل بشراهة. باح لي بكل شيء في ظهيرة من تلك التي قضيتها معه في أروقة المحكمة. ساعة في غرفة القاضي وساعة في غرفة الانتظار وساعة في غرفة الإصلاح بين الزوجين وساعة في المطعم الرديء الملحق بالمحكمة. كنت أنتظر بوحه لأني أعرف يقيناً أنه لن يكتفي بما قاله لي من كونها مجرد قضية طلاق ووصاية. لن يلبث أن يدلق عليّ كل التفاصيل حتى لو لم أطلبها.

«الكلبة لقيت في فاتورتها أرقام، ورجعت للبيت لأجد سيارة غريبة أمام المنزل. ركبها رجل غريب وهرب، وعندما دخلت

وجدتها مرتبكة.. و..» وحكاية معتادة كهذه. معتادة جداً إلى الحد الذي عرفت معه أنه يكذب. ولكني لم أجبه بغير المعتاد من الكلام الذي يناسب جرحه الجديد. بعد أيام قليلة أخبرني ونحن جالسان في مجلسي أن زوجته لم تفعل شيئاً مما اتهمها به أمامي وأنها هي التي طلبت منه الطلاق بهدوء لأنها تريد أن تتزوّج رجلاً آخر. بدت القصة أكثر منطقية بعد أن ثقبت الكأس الثالثة حائط خجله من تلك القصة الملفقة التي حاكها على عجل في المحكمة مستدعياً إياها من ذاكرة نمطية حول الخيانات التي لا بد أن يكون فيها أرقام مشبوهة وزائر ليلي وسيارات غريبة.

الفتاة العالية التي اختارها وتزوّجها لم تتحمّل أن تعيش مع رجل بسيط مثله. ولهذا طرحت عليه الانفصال وكأنها استقالة فجّة ضمّنتها بنداً مغرياً بأن يتولى هو وصاية الابن الأكبر بينما يبقى الأصغر معها. أخبرته أنها قد ترحل مع زوج جديد للدراسة في أميركا وأن جميع الإجراءات يجب أن تنتهي خلال أسبوعين لا أكثر. قالت ذلك وتركت المنزل له خاوياً وأوت إلى بيت أهلها الكبير وبابهم الموصد.

ظل حزيناً رغم أنه احتفظ بوصاية الطفلين معاً. ترك رحيلها في قلبه المرهف ندبة ظاهرة من امرأة اختارها ليتأنق بها بين الناس فنبذته مثل بضاعة رديئة. كنت أنتظر له مصيراً كهذا وإن بتفاصيل أقل قسوة. لم يكن حذقاً بما يكفي ليعتقل نبضات امرأة مثلها رأت كثيراً وسافرت كثيراً وارتفع سقف أنوثتها إلى حد لا تستطيع قامة فيصل الكسيحة أن تبلغه.

قلت له وأنا أبتسم وأهز رأسي ببطء:

- آه.. لو أنك كنت لئيماً ولعيناً يا عزيزي فيصل!

- فعلاً! لو أني كنت صارماً أكثر.. كنت لجمتها هذه الكلبة!

ولم يفهم مغزاي من العبارة ولكني تركته يضمّد جرحه بالافتراضات التي تناسبه. لم يكن ثمة داع لأن أخلط أوراقه بعد جهوده الدائبة لتسويغ الحكاية وخنقها فيَّ ذاكرته بشكل مريح لا يهتك قلبه المتصدّع ومعنوياته المهشّمة.

مجلسي في الرياض كان بالنسبة له ملجأ آمناً مليئاً بالسلوى والجذل. كل ساعة ينفقها هنا توفر عليه ساعةً أخرى كان سينفقها وهو يدور في دوائر الهوان مثلما يدور الماء في مرحاض. استطعت أن أكمّم أحزانه جيداً ولكنها دوّت في صدري أنا مثل نذير الشؤم. لملمت ما بقي من عشب القلب وتركت الرياض قبل أن أجف فيها مثل إجاصة بنية مهترئة وأتحوّل إلى جزء من غبارها أيضاً.. بلا تاريخ وبدون سعادة.

١٤

حكايات أمي مكتومة في داخلي مثل الغاز السام. لهذا أبقيها دائماً في قعر الروح حيث لا تبلغها الدلاء. الاتصال بها من بورتلاند من حين لآخر لم يعد مريحاً. ستتذمّر من كل شيء حتى تنتهي المكالمة بعد أن تسألني في آخرها بضعة أسئلة لا تغيّر إجاباتها شيئاً مما سيتردد على سمعي في النهاية من الأدعية الطاردة. أصبحت محطة شكوى دائمة. تفتش عن فرجة في صدور أبنائها لتتسرّب من خلالها وتعض ضمائرهم الرطبة. كل ما يؤذيها في الحياة تحوّره في حديثها لتجعلنا مسؤولين عنه إما لأننا تسبّبنا فيه أو تلكأنا في منعه. حتى المرض الذي لا بد أن يأتي وقد تجاوزت الستين كانت تتذمّر منه وكأنه مؤامرة وليس قدراً.

أصبحت أمي بقعة معقدة جداً لا يمكن تفكيك المشاعر المتشابكة فيها منذ عقود. في عمرها تصبح الأمهات أبسط بينما تزداد هي غموضاً وصعوبة. كأن شيئاً ما في سلوكها يريد أن يمنعنا أن نمارس بنوّة كاملة حتى لا تلوم نفسها على أمومتها الناقصة. تجتهد لتحرمنا

من شرف البر بها حتى نيأس من رضاها ثم تعود لتحرّضنا عليه حتى نمل في طلبه.

كل يوم أحبّها أقل. ومنذ أن بدأت تمرض صرت أشعر بأن الموت ليس قدراً سيئاً بالضرورة. أعلم أني قد أحزن حتى يتقحّل صدري تماماً ولكني مصر على أنه قد حان لها أن ترحل الآن. لم يعد في قلبها زاوية يزورها الضوء ولا ثمرة تعتصرها الحياة. إذا بلغنا الستين ولم نصبح حكماء وجميلين فهذا يعني أننا لن نكون كذلك في السبعين والثمانين، وستصبح أعوامنا الأخيرة هراءً كاملاً.

منذ سنوات أتمنى أن أواري جسدها المترهّل في الثرى ثم أقف بين المعزّين معفراً بالتراب ومتنكراً بالحزن. سأكتشف بعد ذلك اليوم أن المفاتيح الصدئة التي جمعتها منها ولم تكن تصلح لشيء أصبحت تفتح الأبواب أخيراً. أكاد أرى الطريق ممتداً أمامي بعد أن ظلت تنثر في طريقي آلاف الخرائط المزيفة.

ولكني تركت الرياض وما زالت أمي تتسنّمها. امرأة لا تريد أن تفارق المدينة حتى كدت أتساءل أيّهما سيرحل أولاً يا ترى. الحليفتان الأزليتان اللتان تشابهتا في القدرة على مزج الحب والكدر معاً في إناء واحد.

– الله يلعن أبوكم، وأبو أبوكم يا أولاد الكلب. اخمدوا جعلكم ما تقومون!

وتطل بدرية برأسها باكية من وراء سريرها الخشبي المكسور لتصرخ مثل مناضلة منتحرة:

– والله لعلم أبوي انك تقولين لنا يا عيال الكلب!

أنكمش في سريري وأنا أسمع ضربات أمي تنهال على ظهر بدرية وهي متكوّمة فتبدو مثل طرق رتيب على وسادة محشوّة بالقش. أتظاهر بالنوم حتى لا تشملني تلك الغارة الليلية التي تشنّها على غرفتنا منتصف الليل لتتأكد من خلودنا إلى النوم، حتى إذا ألفتنا مستيقظين في حالات نادرة انتفض في داخلها شيطان مريد وأفرغت علينا شيئاً من وسوسته إليها.

كانت تشتم أبي باعتياد حتى ظننت ذلك عرفاً يحدث في جميع العائلات. أحاول أن أبرّر الأمر بعفوية الطفل الذي يلاحظ أننا نحمل اسم عائلة لا تحمله هي. هذا يجعلنا خصوماً لها بالضرورة. لم يكن الأمر مهيناً بقدر ما كان مربكاً. ضربها كان عادياً وغير مبرّح وكنّا نستحقه في أغلب الأحيان ولكنه كان أقل إيلاماً بكثير من أن أسمعها تشتم أبي بفجاجة أمامنا. تزمّ فمها وتخفض صوتها قليلاً لتخرج الشتيمة مركزة ومؤلمة تفتح في داخلي مغارات من الخوف والقلق.

عندما رحلت أمي تغيّرت الأدوار وأصبح أبي هو الذي يشتمها أمامنا. كلما أتينا على سيرتها قطع كلامنا بكلمته الحازمة «والله والتبن»، فيتحوّل الكلام إلى شأن آخر. بين ذلك «الكلب» وتلك «التبن» عشت أنا وبدرية طفولة لا نُحسد عليها بين أبوين يعتقد كل منهما أن الآخر آذاه من حيث لا يغفر الأذى. أبي بإهماله لها وأمي برحيلها عنه. لم ينتبه أيّ منهما أني وبدرية قد كيل لنا الإهمال والرحيل معاً.

تعاطفت مع أبي كثيراً بعد رحيلها قبل أن أنتبه إلى أنه لا مبالٍ ولي

معه حكايات ناقصة هو الآخر. ولكني لم أنشغل بإكمالها بقدر ما أفعل مع حكايات أمي. من الممكن أن نتحمّل مواربة الأبواب غير المحكمة ولكن من الصعب جداً أن نعيش تحت سقف مثقوب. على الأقل أن أبي لم يكن يلصق نفسه بنا حتى يصبح أذاه واضحاً ولكن أمي كانت تفعل ذلك. استطعت بسهولة أن أكنس أبي خارج جبيني منذ بلغت العشرين بينما لا تزال أمي ملتصقة بي مثل بقعة من الوهن الثقيل.

منذ طفولتنا اختلقت أمي لكل منا لقباً قبيحاً تستخدمه في حالتي الغضب والمرح معاً. كل واحد منها كان يشق صدري ويسكب داخلي دلواً من مادة حارقة كلما نبزتني به في مجلس مليء بالأقارب والأطفال. يضحكون وأضحك ثم ينسون وأبكي. كانت مبدعة في نبز كل منا باللقب الذي يفضحه ولهذا ينزل وجعه علينا فظيعاً كآلام المفاصل. لم تفارق ألقابي ذاكرتي رغم أن أحداً لم يناديني بها منذ سنين طويلة ولا أظنني سأتمكن من طمسها تماماً إلا إذا أتلفت نصف دماغي.

أتذكر الليلة الشتوية التي دسست فيها رأسي الصغير بين ذراعها وفخذها بجوار المدفأة المعدنية المضلعة وهي تهاتف إحدى جاراتها وتضحك بحبور. راحت أصابعها تجوس في شعري بعفوية بينما هي مستمرة في الحديث الهاتفي حتى إذا انتهت منه مسحت على رأسي الصغير بحنان وسألتني:

– تعشيت؟

– ايه..

- حليت واجباتك؟
- ايه..
- زين..

.. وكنت أشعر بأني أتقلب في رحمها دافئاً آمناً. ابتسامتها كبيرة والشتاء طيب وتبدو ليلتها سعيدة. ولكنها عندما همّت بالنهوض دقت على رأسي برفق وقالت «يله قم يا ...... خلني أروح أشوف شغلي!». صفعني ذلك اللقب القبيح في أكثر لحظات الأمومة دفئاً. صحت بها وأنا أصر على أسناني وأرتعش من الغضب: «يمممه، اسمي غالب.. غاااااااااااااااالب». وانهمرت دموعي فجأة ورحت أبكي كما لم أبك من قبل.

نهضت من مكانها وحثّت خطاها إلى غرفتها وهي تدمدم بكلام لم أسمعه. لم أعد أسمع ذلك اللقب لفترات طويلة ففهمت أن الرسالة قد وصلت إلى حيث البقعة المذنبة في داخلها. ولكنها لم تمتنع عن ذلك تماماً. صارت تناديني به على فترات متباعدة جداً ربما لتذكرني بأني لا أستطيع أن أفرض عليها كيف تنادي أبناءها.

لم يخلصني من سماجة ذلك اللقب إلا رحيلها عن المنزل. ربّما لفرط ما غابت عن المنزل أياماً كثيرة في بيت خالها لم أشعر بأن طلاقها كان حدثاً مهماً، لا سيما أنها رحلت إلى بيروت فور انقضاء عدتها وزواجها بزوجها الثاني وبقينا نحن في ربقة الناصرية نحاول أن نخترع لنا بنوّة جديدة لأم لم تخطر لنا ببال. سرعان ما راحت بدرية تناديها (يمه)، وبقيت أنا أناديها (شيخة) كما يناديها أبي. ورغم تقدّم بدرية في سباقنا نحو هذه الأم الجديدة بالنداء كنت

أنا الذي ينال منها بعض الحب والحكايات والأثرة التي لا أعرف لها سبباً مقنعاً سوى أن شيخة، وهي في التاسعة عشرة من عمرها آنذاك، كانت تعتقد أن الطريق الموحش إلى قلب أبي يمر عبر ابنه الذكر الوحيد ولن يمر عبر ابنته الأنثى البكر أبداً.

تفترض بدرية أن شيخة ليست إلا قندساً دخيلاً سمحت له أخطاء أمي بالدخول إلى سدّنا، ولكني أجدها أقرب من ذلك وأوثق صلة بالعائلة من أمي. كانت امرأة مهيمنة مصنوعة من طين الرياض الأصلي. ولذلك نزلت على أبي مثل غبار معركة لم يزل يخوضها ولا تزال تثير فيه شهوة القتال. لا أعرف عنها إلا ما أراه في وجه أبي من رضى وغضب لأنها تملك مفاتيحه كلها وتمرّست على مزاجه حتى أصبحت تعرف مواسم الانشراح والعبوس.

قضيت في كنفها طفلاً أكثر مما قضيته في كنف أمي. لم تكن قريبة مني كأم كاملة ولكنها لم تكن قاسية كزوجة أب. عشت معها في وئام حتى بعد أن أنجبت أبناءها الثلاثة تباعاً. كنت واثقاً أنها تستحق مكانها في السد وتجيد تربية القنادس ولا ينقصها إلا أن نمنحها فرواً وأسناناً بارزة مثلنا. كنت أجد صعوبة كبيرة في فهم هذه الأحجية: أن المرأة التي تعيش في بيتنا ليست أمي بينما التي تعيش في بيت آخر مع رجل غريب، هي أمي.

خطبها أبي بعد صلاة الجمعة ولم يكن قد سمع بها إلا صباح ذلك اليوم من أحد أقربائنا. خرج من المسجد باتجاه بيتهم مباشرة وطرق الباب طرقات عالية بيده اليمنى بينما يتدلى بشته الأصهب من يده اليسرى. سرعان ما هرع خالها من البيت المجاور بعد أن

أبلغته شيخة بالطارق ذي البشت الذي يطرق الباب بشدة. عُقد قرانهما خلال أيام قليلة، وبعد رمضان انتقلت شيخة إلى بيتنا. فتاة سمراء نحيلة ترتدي فستاناً عنابياً وفي كلتا يديها خمس أساور ذهبية شديدة اللمعان.

اختارها أبي يتيمة لأنه يريدها كسيرة الجناح حتى لا تفرده وتطير بعيداً عنه مثل أمي. وقليلة الحيلة حتى لا ترهقه بما تريده بقدر ما تتحمّل هي ما يريده. وصغيرة السن ليغيظ بها أمي التي يكبرها زوجها الثاني بعشرين سنة. وجاءت شيخة كما أرادها في سنواتها الأولى قبل أن تسلك طريقها الواثق إلى قلبه المغلق. إذا رأيتها في حضرته بدا كأنه يقلبها في كفه كيف يشاء بينما قلبه كله بين إصبعيها. كانت تغضي له كما تغضي الجارية الكسيرة بينما تسيّر شؤون البيت في آخر المطاف كما تريد لها أن تسير. ولسنوات طويلة كانت وسيطة لي عنده في الحاجات التي لا أجرؤ على طلبها مباشرة منه حتى كبرت واستنكفت أن أطالبها بهذا الدور بينما انشغلت هي بالتوسّط لأبنائها وقضاء حاجاتهم لديه.

أشفقت عليّ منذ أن دخلت بيتنا لأول مرة فوجدتني ابناً منقوص البنوّة تخلت عنه أمه في نزوة بالغ أبي كثيراً في تقبيح تفاصيلها وتهويل أمرها لشيخة. رق لي قلبها وتلطفت معي فبادلتها بالمثل. كنت مرسالها المطيع إلى البقالة، وعينها الآمنة على أطفالها، ومسبارها الدقيق لما يحدث في دكان أبي، وكانت هي مخبأ علاماتي المدرسية السيئة، وطريقي الآمن إلى جيب أبي، والوسيط الذي اشتريت من خلاله سيارتي الأولى ثم الثانية. طالما بدا الأمر

وكأننا نعمل في فريق واحد ولدينا مهمة واحدة: المرور بسلام في حقل أبي الشائك.

ظلت علاقتي بشيخة تتصاعد نحو أمومة ما حتى خانتني عيناي ورأيتها عارية. كنت في الخامسة عشرة وقد حاقت بي عاصفة البلوغ في صيف الرياض الملل والقائظ. عرفت أين أقف تماماً في حوش البيت وبأي زاوية أحدق باتجاه شباكها العلوي مباشرة في المرآة العريضة التي تعكس نصف جسدها إذا وقفت أمام خزانة الملابس. ملأ جسدها البض بصري اللاهث. كانت سمينة بعض الشيء وقد ترهّل بطنها بعد حملين متعاقبين واختفى نهداها خلف حمالة خضراء. اتسعت عيناي لتظفرا بكل أطراف المشهد النادر مثلما نسحب نفساً عميقاً لنظفر بأكبر قدر من الهواء. عدت بعد ذلك إلى غرفتي وتكوّمت فوق السرير. شعرت بغصة جديدة على حلقي ولم تعد شيخة أماً لي بعد ذلك اليوم.

كرّرت ذلك عدة أيام قبل أن ينغلق ذلك الشباك بألواح خشبية ومسامير ولم أعرف ما إذا كان ذلك بسببي أم أني لم أكن المتفرج الوحيد. ظلت شيخة تزيد كيلوغرامين كل سنة من عمرها حتى لم تعد صورتها العارية في ذاكرتي مرحّباً بها على الإطلاق. تشوّشت تفاصيلها قليلاً مع ندرة استحضاري لها في ذهني ثم اندثرت تماماً حتى لم أعد أتذكر من تلك الواقعة غير البطن المترهل والحمالة الخضراء.

١٥

استيقظت من النوم على صباح بلا لون. هاتفي خالٍ من الرسائل وعلى نافذتي ظل غير منتظم لغيمة رمادية كبيرة. نهضتُ من فراشي بتكاسل شديد وبقيت واقفاً وسط الغرفة لا ألوي على شيء. ألقيت نظرة من النافذة على الشارع الساكن فأمطرت السماء على الفور وكأنها كانت تنتظر استيقاظي لتغسل المدينة. ترنّحت نحو الحمام آملاً أن يكون القولون في مزاج جيد هذا الصباح.

تلقيت اتصالاً تسويقياً من مندوب مبيعات سريع الكلام. أخبرته أني لا أتكلم الإنجليزية فراح يتحدّث الإسبانية، أخبرته أني لا أتحدّثها أيضاً فعاد يتكلم بالإنجليزية لدقيقة كاملة. أخذت سماعة الهاتف اللاسلكي إلى الحمام وقرّبتها من المرحاض ثم سحبت السيفون وتركته يستمع إلى صوته للحظات. أعدت السماعة إلى أذني لأجد نغمة انقطاع الخط. ابتسمت ابتسامة لم أتمكن من تفسيرها.

ولجت مطبخي جائعاً أفكر في ما يمكن أن آكله. سحبت دفتري الأخضر الأمين الذي يتدلى من حبل مطاطي مثبّت في سقف المطبخ

ورحت أقلبه بحثاً عن فكرة إفطار. في صفحته الأولى تفاصيل تحضير القهوة السعودية، بينما ملاحظاتي حول نظام الضرائب الأميركي في الصفحة المقابلة. وفي الصفحة الثانية كانت قائمة لسبعة عشر صنفاً من البهار والخضروات مع مرادفاتها الإنجليزية. أرقام فتاة تزورني أحياناً في منتصف الليل لتنفض الغبار عن جسدي في الصفحة الثالثة، تقابلها صفحة الأرقام المجانية لشركات التنظيف المنزلي ونقل الأثاث. عنوان الرجل الذي اشتريت منه طاولة الطعام وطاولة المكتب المصنوعتين من خشب الأوك الذي وجدت في داخله فطراً ونملاً أبيض. توقيعات عشوائية على عدة صفحات وأنا أحاول ابتكار توقيع رسمي بالإنجليزية. قائمة بقنوات التلفزيون التي اخترت الاشتراك بها بعد ساعتين من المسح الشامل. سبعة أنواع من النبيذ مع شرح مبسّط بالعربية عن صفات كل نوع وسياقه التقليدي على المائدة. أسعار صرف العملة وتكاليف الحوالات بين بنكي في الرياض وبنكي هنا. رقم بائع الحطب والموقع الإلكتروني لدائرة الهجرة الأميركية. معايير فرز القمامة المعاد تدويرها والكميات المحدّدة لكل شقة. وصفات سريعة للطبخ في الفرن في صفحات كثيرة بعد ذلك نسختها من أحد المنتديات الإلكترونية.

اقتربت صفحات دفتري من الانتهاء وسأحتاج قريباً إلى حبل مطاطي آخر لأعلق عليه دفتراً جديداً. تذكرت مسَّاحة السبورة التي كانت معلقة بحبل مطاطي شبيه في سقف فصلي في المرحلة الثانوية وكيف سحبته عمداً لترتدّ بقوة وترتطم بوجه معلم النحو الفلسطيني. كنت أعلم أنه سينهال عليّ ضرباً بعدها ولكني بحاجة

إلى أي تصرّف يقيلني من أحداث الأسبوع الفائت. زارني أبي في المدرسة وحوّلني إلى أضحوكة عندما جرّني من شعري الذي أطلته على هيئة ذيل الحصان أمام زملائي بعرض ساحة المدرسة حتى بلغنا السيارة.

فور أن وجّه لي المعلم صفعته الأولى قفزت فوق الطاولة وانقضضت عليه مثل نمر هائج. تمكنت من أن أكيل له عدة ضربات تحت وطأة المفاجأة قبل أن يطرحني أرضاً ثم يلوي ذراعي خلف ظهري ويوقفني على قدميّ مرة أخرى. سحب بيده الأخرى شماغي فبدا رأسي الحليق تماماً جاهزاً لأن يضربه في السبورة عدة مرات قبل أن يفتح الباب ويجرّني باتجاه غرفة المدير. كان يرغي ويزبد وهو يجوب بي ممرات المدرسة بين نظرات الطلاب المندهشة وأنا أبتسم رغم إذلاله لي مثل مناضل عريق قبض عليه للتوّ.

لم تحدث القصة أثرها المنشود. ظلت قصة أبي وهو يجرّني من شعري أكثر تردداً في ألسنة الطلاب من قصتي وأنا أضرب المعلم. فُصلت من المدرسة أسبوعاً لم يعلم بشأنه أحد حتى أبي الذي كان مسافراً عندما حاول المدير الاتصال به. طيلة الأسبوع حرصت على أن أستيقظ صباحاً وأتظاهر بالخروج إلى المدرسة ثم أظل طيلة الصباح هائماً في شوارع الرياض. رأتني شيخة أكثر من مرة أعود إلى المنزل بعد خروج أبي فلم تش بي.

أشعر بأني مثقل بالتفاصيل حتى كأن هذه الدفاتر الخضراء الصغيرة التي استنفدت منها أربعة أو خمسة منذ وصلت ليست إلا امتداداً ورقياً لجبيني وما فيه من الرهق والضجيج. جرّبت أن

أحيلها جميعاً إلى التقاعد مستعيناً بكمبيوتر الجيب الذي وصلني بالبريد من غادة في عيد ميلادي. ولكني فقدت كل ما حشوته فيه من تفاصيل حياتي عندما نكأت بسن القلم ذلك الثقب الضيق في ظهر الجهاز. لم يخبرني أحد أن الغرض من هذا الثقب أصلاً هو إفقاد الجهاز ذاكرته. هذا أحد عيوب العيش وحيداً في مدينة خالية من المعلومات المجانية.

غضبت يومها لأني وثقت بالجهاز إلى حد أن تخلصت من الدفاتر الخضراء فإذا به يمحو كل تفاصيلي ويتحوّل إلى مجرد قطعة خردة ثمينة. أليس متوقعاً أن تهديني غادة هدايا خائنة أيضاً؟ الورق في الدفتر الأخضر لا يخون أبداً بينما هذه الأجهزة الإلكترونية المنشاة على أخلاق السيليكون لا يمكن الوثوق بها ولا بثقوبها المطاطية التي تمسح الذاكرة وتحرّض على الخيانة. لعنها الله ولعن صانعيها المسكونين بهاجس أن كل خيانة في الدنيا يجب أن تحدث عبر ثقب!

لم أتورّع عن إخبار غادة بما فعلته بي هديتها. ولم تكن ردة فعلها أكثر من رسالة صغيرة عبر الجوال تحمل رمزاً لوجه عابس ومحبط دون أيّ كلمة. ركنت هديتها في درج بعيد لا أفتحه إلا في ما ندر، واشتريت عدة دفاتر خضراء جديدة لتساعدني في الحياة وحيداً في شقتي التي قضيت الأيام الأولى فيها أفاوض جدرانها ومساحاتها على أفكار مريحة تجعلني منتمياً إليها بقدر ما أنا غريب خارجها.

أعدت دهانها عدة مرات في وقت قصير. في المرة الأخيرة

دهنت نصفها فقط فاتحاً روح الشقة على لونين متداخلين يكفيانني بؤس اللون الواحد. اشتريت عدة مجلات ديكور حديثة ورحت أقلّب صفحاتها حتى انتهيت إلى أن كل ما فيها مستحيل وغير قابل للتطبيق. طفقت أنقّل الأشياء وأبدّل الألوان وأتكلم مع الكراسي الساكنة والأجهزة الصامتة حتى خلصت أخيراً إلى مساحة بوسعي أن أركن إليها بهدوء وأدخل معها في حالة انتماء تدريجي لا بد أن تكتمل يوماً ما.

في البدء صنعت شقة تشبه مجلسي في الرياض. اشتريت كنبات عديدة ونزعت وسائدها وصففتها على الأرض ثم ألقيت بهياكلها الخشبية في مكب النفايات. عندما تأمّلت المكان بعد ذلك شعرت بأن الحنين الذي يحدثه تشابه كهذا قد ينقلب ضدي يوماً ما، لا سيما أني لن أجد أشباهاً لداود وفيصل في أيّ معرض مفروشات في بورتلاند. استعدت الهياكل من مكب النفايات في اليوم نفسه وقرّرت أني أحتاج إلى ديكور محايد لا يحرّضني ولا يحرّض عليّ. شخص غيري عليه أن يقوم بهذه المهمة المربكة.

دفعت ألفي دولار لفتاة أميركية من أصل ياباني مقابل مجموعة من السكيتشات الرخيصة وصور منزوعة من كاتالوغات محال أثاث موزعة في أنحاء المدينة. وافقت على كل ما اختارته ثم هاتفتها لتكمل ما بدأت. عادت إلى شقتي في يوم آخر وهي محملة بأصص ملوّنة وشتلات لأزهار غريبة. ثم عادت في الليلة نفسها بلوحات مختلفة الحجم ومجموعة من العرائس القطنية لدببة وزعتها في الممرات والأركان. ثم راحت تعمل لساعات على تعليق اللوحات وتثبيت

الأطر وغرس الشتلات في أصصها الجديدة وأنا أراقبها وهي تحوّل شقتي البكماء إلى مكان محايد وجميل مثل غرف الفنادق.

غيّرت ملابسي أثناء عملها وارتديت قميصاً له فتحة صدر واسعة وبللت شعري ثم هرعت لأساعدها. غازلتها قليلاً أثناء العمل فراحت تحدّثني عن رجل تحبّه ورحلات تزلج وقصص لا تمنح إشارات جيدة. عرفت أنها تغلق النوافذ والأبواب بإحكام في وجهي فقررت أن أنصرف عن مراودتها وأساعدها في عملها بلا أحلام. تمنيت أن يبدو لها غزلي ذاك مجرد تصرّف لطيف من رجل نبيل ومهذب. لم تكن جميلة على أيّ حال ولكني كنت جافاً ووحيداً.

عندما طويت ذلك الشيك وقدمته لها منحتني ابتسامة شكر خرجت بعدها لتذوب في المدينة ولم أرها بعد ذلك. تأمّلتها من نافذة الشقة وهي تعبر الشارع بخطوات سريعة وكأنها غنمت ما تخشى أن أستردّه منها قبل أن تدلف إلى سيارة مكعبة وصغيرة وتختفي تماماً. راقبت الشارع بضع دقائق بعد أن ابتلع سيارتها تلك وأنا أدافع بين الإدماع والابتسام في آن واحد. جلست على أحد الكراسي التي ما زالت مغلفة بالبلاستيك وأنا أشعر بتشقق بسيط في روحي من تلك التشققات التي تغرينا بالإمعان في توسيعها حتى نكسر أنفسنا عمداً، وبتلك البرودة المشاكسة التي تفسد علينا متعة الوقوف على شاطئ جميل.

ما زالت الغربة تمرّن أسنانها الصغيرة على حدود وجهي وأصابعي. أعرف أن هذه الأسنان ستنمو لتصبح أحدّ وعلى جسدي أن يصبح أقسى. هل هذه من لعنات الغربة التي لا يمكن التنبّؤ بها

قبل أن تحدث؟ أن نشتهي أنصاف النساء وننكسر على رحيلهن؟ هل إذا دخلنا مدناً جديدة تعود الرجولة إلى مستوى الصفر، وكأن النقاط العاطفية التي أحرزناها في مدينة قبلها لا تحتسب في المدن الأخرى؟

شقتي كانت في وسط المدينة التي تشبه قرطبة بطوب البنايات القديمة الأحمر الذي حوّله المطر الدؤوب إلى لون برتقاليّ مموّه بالخضرة الداكنة لبقايا الأعشاب المتسلقة وأوراق الأشجار التي شرّدها المطر. كلما خرجت لأمشي حاملاً مظلتي عرف الجميع أني لا أنتمي للمكان وما زال يخيفني المطر. قال لي ذلك بائع السوبرماركت الذي يملك قدرة غريبة على اختصار حياته كاملة في قصص صغيرة يسردها للزبائن أثناء الدقائق القليلة التي يدفعون فيها ثمن مشترياتهم ويمضون.

– من أين أنت؟

– ولماذا افترضت أني لست من هنا؟

– لا يوجد بورتلانديّ يتأبط مظلة. رؤوسنا اعتادت المطر.

كان عليّ أن أخلص سريعاً إلى مصالحة عاجلة بين رأسي والمطر حتى لا أظل مفضوحاً إلى هذا الحد لكل العابرين. كل يوم تعلمني المدينة حيلة من حيلها ولكني أحاول تعلم أكثر من حيلة في يوم واحد فتأبى عليّ وكأنها عرفت من ملامحي أني لست نجيباً إلى هذا الحد. كلما تجولت في وسطها محاولاً أن أعجل تآلفي مع المكان أشعر بأني أضيّع وقتي. الشوارع والأرصفة وأركان المقاهي لا تفرز ألفتها مجاناً. إما أن شيئاً ما في هذه المدينة ما زال مستعصياً

أو أني أنا الذي أحاول ابتلاع جغرافيا المكان وتاريخه بلقمة واحدة وكأني أحد الفاتحين ولست مهاجراً محتملاً يتسلل إلى المدينة.

عدت أقلب الدفتر الأخضر بحثاً عن وصفة سهلة لوجبة تطفئ جوعي فلم أجد. فتحت الثلاجة رغم أني أعرف ما فيها سلفاً إلا أني أحياناً أتمنى أن تفاجئني بوجبة جاهزة جاءتني من حيث لم أحتسب ولا تحتاج سوى إلى التسخين فقط. تعجبت من نفسي وأنا أتوخى من ثلاجتي هذه المفاجآت ولا أتوقف عن التعلق بذلك الأمل وكأني اشتريت مائدة عيسى لا ثلاجة صمّاء رخيصة.

هذا المطبخ صار بحق أصعب أركان الغربة، وهذا ما لم أتوقعه. عرفت منذ الأيام الأولى أن هذه الزاوية القاسية من الشقة ليست متعاونة كما يفترض بها وأنها تخلق أحزاناً وتؤلب عليّ طموحي. المطبخ تحديداً هو الذي تحوّل إلى مصنع حزن من بين كل أجزاء الشقة. لا ذلك المثلث الشمسي الذي تصنعه زاوية الشرفة المائلة ولا الكرسي المحدّب بجوارها ولا سريري الذي أنهض منه كل صباح رجلاً أصغر. كل هذه المساحات الخليقة بالحزن لم تورثني إياه كما فعل المطبخ. أشعر أمامه بالصغار لأنه هو الذي يمنحني الطعام ويتحكم في حاجاتي الأساسية كإنسان ويتحداني منذ الأيام الأولى. كلما حاولت أن أتفاوض معه لأصنع وجبة تكفيني عناء اليوم ووحدته أخرج بطعام أقل من طموحي وأسوأ من توقعاتي المسبقة. وهذا يجعلني أحزن. ما معنى أن أغترب إذا كنت لا أجيد صنع طعامي؟ ضعيف حد الاعتماد على فرص حضارية مثل المطاعم لتقيلني من عثرات بدائية مثل الجوع.

كان ما معي من المال يكفي لأن أكون زبوناً دائماً لمطاعم المدينة ولكن لا شيء يشعرني بالوحدة أكثر من طاولاتها التي يتناوب عليها الجائعون حتى ابتذلت تماماً. إن مجرد ولوج باب المطعم يشبه أن تحمل لافتة تقول: أنا جائع . ومجرد الجلوس إلى الطاولة يعني الدخول مع شخص ما في مفاوضة تجارية تستبدل فيها جوعك بمالك. وهي صورة مؤسفة فعلاً.

لهذا تركت كل أخطاء الشقة وتفرّغت لمناكفة المطبخ. منذ الأيام الأولى وأنا أحاول أن أروّض هذه المساحة اللعينة لتصنع لي طعاماً مألوفاً لا يخدعني ولا يلتفّ على فمي البسيط. عليّ أن أتذوّق ما يجعلني مطمئناً وهانئاً ما دامت حواسي الأربع الباقية لا تبتكر لي هذه الطمأنينة المفقودة.

١٦

بعد سنتين من دخولها البيت أنجبت شيخة ابنتها الأولى نورة بعد أن أسقطت جنيناً قبلها. جاءت قندساً خاصاً جداً وقد تفوّقت جينات أبي في رحم الزوجة الجديدة الخائفة ثم لم تلبث أن تداركت ذلك بإنجابها منى التي انقلبت على النهر والعشب والأخشاب وهربت من البيت وفعلت كل ما من شأنه أن يقنع أبي بأن لعنة أمي القديمة ما زالت تلاحقه.

كانت نورة شديدة القلق حتى إنها من فرطه قرّرت أن تبني سدها الخاص داخل السد. لا أحد يعرف عنها الكثير رغم أنها لا تكاد تفارق البيت إلا لماماً. سمعت أن غرفتها تشبه غرف المستشفيات، ناصعة البياض وأغطيتها تُغسل كل يوم. كل شيء فيها حذر حتى نافذتها الوحيدة تطلّ على فناء البيت الداخلي بدلاً من السور الخارجي. غامضة حد السحر ومخيفة أيضاً. افترضت من قبل أنها فتاة تتسرّب في الليل إلى القفار وتعود قبل الصباح. تجمع ساحرات نجد في غرفتها ليبتكرن شروراً جديدة.

كانت تشبه أبي في ملامحه وتخالفه في صفاته. ظلت شديدة النحول حتى تخرّجت من الجامعة فكسيت العظام لحماً قليلاً. طويلة فوق المعتاد وصامتة حد الغموض ونافرة السنين الأماميتين كما يكون القندس قبل أن تحدّ من نفورهما بالجسر المعدني الذي عاش في فمها خمس سنوات حتى استوت أسنانها قدر الممكن ولكنها ازدادت نحولاً أثناء ذلك حتى لا يكاد يراها أحد إلا يظنها مريضة.

حاولت أن تبدو ذكية ومتفوقة ولا أحد يجدها كذلك. كانت تعيش المشاعر المعتادة لأخت كبرى عندما تجيء الصغرى أجمل منها وأذكى. تسعى لاختراع معايير أخرى للتميّز والتفوّق غير تلك المتعلقة بالجمال الشكلي، فتقرأ كتباً غريبة العناوين وتنخرط في دورات لامعة الأسماء. وكل سنة تحاول تعلّم لغة جديدة لا تلبث أن تملّها من الأيام الأولى. ظلت تفتش عن كل ما لم تمنحه إياه مرآتها التي – لو أنها منحتها وجهاً جميلاً فقط – لأغنتها عن الكتب والدورات واللغات.

لم يكن ثمة سبيل لأن أعرف عنها أكثر. الأشهر القليلة التي أمرني فيها أبي أن أتولى اصطحابها إلى الجامعة بنفسي لم تجعلنا أقرب. كانت تعلم أني أفعل ذلك مجبراً رغم أني أكثر الرقباء خيبة. توجّس أبي من سلوكها بعد أن تقدّم لخطبتها شاب تلعثم قليلاً عندما سأله أبي: «من وين وصلت لنا؟» ولا يعرف أحد حتى الآن إذا ما كان الشاب الذي لم يتزوّج نورة قد تلعثم من سطوة السؤال أم كان يخبّئ وراء قلبه علاقة هادئة.

ننطلق كل صباح إلى جامعتها القريبة في صمت مطبق لا يتّسق مع صخب الشارع الصباحي المزدحم. يمنعني النوم المتراكم تحت جفنيّ من الكلام مثلما يمنعها الغضب المتراكم في قلبها منه. لم يعهد أبي إلى سلمان بهذه المهمة لأنه كان صغيراً آنذاك ودوام مدرسته الثانوية يبدأ باكراً وإلا ما كان ليجد كلباً بوليسيّاً أفضل منه لمراقبة الفتيات. اضطر لأن يعهد بالمهمة إليّ. كنت حينها بلا عمل وما زلت أعيش غمرة الخراب الجميل الذي يخفف الخيبات، وكانت نورة مبهوتةً بفقدان خاطبها الأنيق الذي بدا مثالياً لولا أنه لم يجهز مسبقاً إجابات تناسب مكر أبي.

المشاهد التي تطالعنا من نافذة السيارة في الطريق من الفاخرية إلى جامعة البنات في عليشة لا تستحق أن تُصنع من أجلها نافذة أصلاً. بضع أراض خاوية مليئة بنفايات البناء، وأسوار عالية جداً حتى يبدو من علوّها أنها ستطبق على الشارع، وبضعة محلات تبيع ما تحتاج إليه طالبات الجامعة في رحلتي الذهاب والإياب. رغم ذلك لا تنفكّ نورة تحدّق خارجها ممعنة في تجاهلي بالصمت والمكابرة زيادة على إصرارها على الركوب في المقعد الخلفي كما كانت تفعل مع السائق. لم يكن يخفف من حدة مزاجي إلا وطأة النوم وإلا لتقدم ذلك الشجار كثيراً.

عندما دخنت في السيارة تأففت. فتحت النافذة ليتسرب الهواء الساخن إلى الداخل. عندما دعوتها لمحل آيس كريم حديث تعللت بالانشغال دون أن تشكرني على هذه البادرة. وعندما احتك جانب السيارة بسيارة أخرى واستدعى الأمر وقفة قصيرة في انتظار رجل

المرور تظاهرت هي بالنوم ريثما أتصرّف أنا دون أن تبدي أي قلق تجاهي أو تجاه سيارتي. فعلت نورة كل ما يثير حفيظة أخ يكبرها بسنوات كثيرة ولكني فعلت أيضاً ما يليق بهذا الأخ الأكبر فعله تماماً.

عندما توقفت عن إلقاء تحيّة الصباح قرّرت أن أتوقف عن إيصالها. ولجت إلى السيارة صامتة وأغلقت الباب وراءها دون أن تحيّيني. لم تكن تحيتها من قبل تزيد عن «السلام عليكم» ملفوظةً بمزيج من البغض والقرف ولكنها اليوم توقفت عن ذلك أيضاً. أطفأت السيارة وترجّلت منها بهدوء تاركاً إياها في مقعدها الخلفي والسيارة بعد موقفة في الكاراج. مشيت باتجاه فيلتي وكأني لم أرها.

جاءني صوتها من خلفي:

– خير ان شاء الله وش فيك؟

ولم أجب. تابعت المشي محاولاً أن أبدو هادئاً ولامبالياً قدر المستطاع حتى سمعتها تصرخ بصوت عال:

– أحسن! بتذلّني يعني بهالمشوار؟

– ....

– وش فايدتك أصلاً. فاضي وما عندك شغلة!

عندها انفجرت في دماغي قنبلة صغيرة. استدرت هائجاً وانطلقت أعدو باتجاهها مثل ضبع. تسمّرت هي في مكانها واختفى صوتها وهي تراقب اندفاعي نحوها بعينين مذعورتين. عندما اقتربت منها رفعت كفها لتحمي وجهها فارتطمت بها كفي لينتهي الأمر بصفعة

مزدوجة على وجهها. أطلقت صرخة ناقصة ثم أتبعتها بصرخات هستيرية مضاعفة وكأنها تحاول أن يصل صوتها إلى ضيافة أبي ليهبّ لنجدتها. تعلقت إسورتها بجيب ثوبي الأعلى فتمزق. صفعتها عدة مرات على وجهها الصفيق قبل أن تدفن وجهها بين كفيها وتسقط على الأرض متعثرة في عباءتها وهي تصرخ بجنون:

– يا حيوان. وش شايف نفسك تضربني يا سربوت يا الصايع .. يا الصايـ...

وتحوّلت أنا إلى آلة صفع رتيب ومتكرّر. لم أكن أرغب في إيلامها بقدر ما كنت عازماً على تهشيم كبريائها كلها. ولذلك كنت أوجّه صفعاتي إلى وجهها فحسب دون أي جزء آخر من جسدها. بدأت ثورتي تهدأ بعد ثوان وأنا أمتع نفسي بهذا الصفع البطيء الذي أناور به كفيها وهما تحاولان حماية وجهها. أخيراً جعلتها تبكي بعد أن قاوَمت ذلك طويلاً. تهدّج صوتها وهي تصرخ بمرارة:

– الله يلعنك..

ثم انخرطت في بكاء هادر منعني من أن أعرف من كانت تنوي لعنه. تركتها حيث تكوّمت تحت باب السيارة وأقفلت عائداً إلى فيلتي وأنا أتمنى حينها لو يصادفني أبي في طريقي لعلي أصفّي كافة الحسابات في صباح واحد. ولكنه لم يفعل. دخلت فيلتي وخلعت ثوبي الممزق ثم جلست أطالع التلفزيون في انتظار عواقب ما فعلت. مرّت ساعة ولم يطرق بابي أحد فعدت إلى سريري لأنام بهدوء مثل طفل وديع. في الليل، اتصلت بي شيخة عبر الهاتف الداخلي ولم تنجح في عتابي.

– هذولي خواتك ومالهم غير اخوانهم. ما يصير تعاملهم كذا..

– خلاص علميهم يحترمون اخوانهم أجل..

– والله ويشهد علي ربي أني أوصيهم عليك بس انت حن عليهم بعد.

– وشلون أحن عليها. تدخل السيارة وما تسلم كني سواق عند أبوها وش تبيني أقولها؟ شاطرة يا نورة؟

– ما لها حق. غلطانة. بس عاد لو انك كلمتني وأنا اللي بربيها لك.

الحق أنه فاجأني عتابها اللطيف بعد أن توقعت منها وعيداً شديداً. انكشف في داخلي طاغية صغير يطربه هذا الاحترام النادر.

– علّميها إذا ما تتأدب ترى مالها إلا اللي شافته اليوم وبكره أزود بعد!

– ما يصير إلا الخير. العن الشيطان بس. انتو اخوان ومالكم غير بعض.

عادت مهمة إيصال نورة إلى السائق زكي وعدت أنا إلى البيات الحزين في فيلتي وأنا أحمل خدشاً جديداً في طرف القلب. شعرت بعد أيام بأني قسوت على الأخت الأضعف فيما كان يجدر بي أن أسلط ثورتي على من يستحقها. ولكن حظ نورة السيّئ ولسانها الطويل هما ما صبّ عليها الوبال. ظننت بعد قصتي مع بدرية أني أملك خبرة في التعامل مع الأخوات اللواتي يفقدن خاطباً وتصبح أمزجتهن مثل بركة من الوحل والروث ودائماً ما أكون أول من يتسخ بها.

منذ وصلت إلى بورتلاند ونورة لا تعرف عني شيئاً مثلما لا أعرف عنها شيئاً أيضاً. تفعل ذلك مع الجميع. تبني سدّها داخل السد فعلاً. سمعت أنها اتخذت وزوجها سداً جديداً في أحد المجمعات السكنية شمال الرياض. بالتأكيد لن تدعوني يوماً لزيارتها ولن تدعو بدرية أيضاً التي صار لا تلتقي بها أكثر من مرتين في السنة منذ أن تطفلت بدرية باقتراح أحد أقارب زوجها كخاطب لنورة، فأسمعتها الأخيرة ما تكره عن زوجها وعائلته ودقت بينهما ذلك الإسفين الأبدي.

شعور نورة يتعاظم بأنها تورّطت في عائلة لا تناسب الحياة التي هي خليقة بها. لم تبح بذلك يوماً ولكني فهمته من أسماء صديقاتها الفارهات اللواتي تظن أن صحبتهن ستعجل بفرجها وخروجها من الكهف السحيق. تظن شيخة أن فتيات هذه الطبقة لوّثن أفكار ابنتها ولم يعد ثمة أمل لإصلاح الحال، وتظن منى أن أختها الكبرى تقلل من قدرها من حيث تظن أنها ترفعه بصحبة هؤلاء الفتيات حين تبدو تابعة لهن، أما أنا فأحتفظ برأيي لنفسي: إنها تفضّل العيش في فقاعة جميلة من الصديقات أفضل من العيش في قفص يشبه غرفتها في الفاخرية.

لا أكاد اليوم أصدق أنها تزوّجت رجلاً يصغرها بثلاث سنوات بعد أن تأكدَتْ من تزويده بكافة الإجابات المقبولة لأسئلة أبي المحتملة. ولكن أبي لم يسأل كثيراً هذه المرة وقد بلغت عمرها هذا. اكتفى ببعض التقصّيات القبلية ثم وافق بسهولة فاختلط الأمر على نورة بين الغضب والرضى. لم تفهم لماذا لم يكن بوسع أبي

أن يمارس هذه المرونة عندما كان الخاطب أفضل والعمر أصغر. قضت أيام خطبتها معكرة المزاج بسبب موافقة أبي السريعة ثم راحت تثقل كاهل الفتى الغر بالطلبات لتعوّض من رضاها المنقوص عن هيئته وكماله. دفع المسكين ثمن اختلافه عن صورة أحلامها غالياً ولكنه بلا شك مفتون بدوراتها الغريبة وكتبها النادرة واهتماماتها المنتقاة وإلا لما اقترب من سدّنا المنيع لا سيما وهي تعرض كل هذه الاهتمامات على مواقع الإنترنت بشكل استعراضي باهر. لعبت نورة لعبتها الأخيرة واقتنصت آخر الرجال الذين كان يمكن أن تقبل بهم قبل أن تمر سنوات أخرى من عمرها ويطرق الباب صنف آخر منهم، متزوجون ومسنون وطماعون.

١٧

يقولون إن ويلامت فاض عام ١٨٦١ ليدمّر قرىً عديدة ثم فاض مرة أخرى بعد ذلك بأربعين سنة لتصل المياه الغاضبة إلى حيث شقتي الآن في وسط المدينة فذهب الناس إلى أعمالهم خائضين في الوحل والبرك. وبعد الحرب العالمية الثانية فاض فيضانه الأكبر الذي مسح من خريطة الولاية ثاني أكبر مدنها. وعندما جئت بورتلاند لأول مرة طالباً للغة الإنجليزية قبل ثلاث وعشرين سنة كان قد مر عقدان على فيضانه الأخير، وكان الجميع يتحدثون حينها أن الوقت قد حان لفيضان جديد.

سمعت هذا الحديث في حانة الحيّ التي صرت أتردّد عليها بانتظام محاولاً الدخول في نسيج المدينة. رفض جميع الذين ثملت معهم حد الرقص أن يمنحني رقم هاتفه كما رفضت كل فتيات الحانة دعوتي لإكمال السهرة في شقتي القريبة. اتصلت بالمرأة التي تدّعي في الإعلان أنها اختصاصية تدليك وعلاج طبيعي فوافتني آخر الليل وقد بدا جفناها مثقلَيْن من أثر نوم قريب. نزعت مني فتيل شهوتي

الضئيل في دقائق قليلة ثم غادرت دون تحية مثل قطار عتيق.

أفقت هذا الصباح خالياً إلا من صداع بحجم ثملي. انتابتني رغبة في أن أعيش يوماً بريئاً بعد ضآلة الأمس وخيباته. انهمكت في استحمام طويل وصامت ثم أشعلت بخوراً ثميناً وأعددت قهوة عربية وفتحت شباكي الشقة المتقابلين لعل تياراً هوائياً يحمل إليّ قدراً سعيداً أضاع صاحبه. ارتديت ملابس خفيفة واعتمرت قبعة رياضية ثم خرجت من شقتي وقدت سيارتي نحو خاصرة النهر الجنوبية التي يقولون إنها هادئة مثل أهليها.

ولكن ويلامت لم يكن كذلك هذا اليوم. منذ استويت على ضفته وهو غاضب يدفع زبده أمامه وكأنه محيط. ربما كان أهل جنوبه الوادعون يغرونه بالتمادي في غيّه. لو أني أتيته من العنق حيث تلهبه مصانع الشمال بالزيت والحديد ربما انفرجت ملامحه ومنحني اهتماماً أكبر. هذه الأنهار مثل النساء، تصنع جهة الإتيان لديهن فرقاً كبيراً. لو أني أتيت غادة من الشمال كالرجال الواثقين لحوّلت مجراها المبتعد هذا إلى حيث أشاء، ولكني ظللت أقرضها جنوباً جنوباً حتى كفكفت ساقيها، ولملمت أطراف ثوبها، قبل أن تتركني وحدي وتمضي في حياتها المزدحمة.

تذكرت حديث الفيضان الذي سمعته في الحانة وأنا أتأمل جريانه الصاخب أمامي هذا الصباح. «ما الذي يمكن أن يغضب نهراً كهذا يا ترى؟». فرشت بساطي وأخرجت قهوتي وعلبة التمر البلاستيكية ورحت أبحث في جهاز الآيبود عن أغنية فرحة. «ألم يتشبع بالحكمة مع طول جريانه الأبدي؟ لماذا يثور فجأة مثل مريض نفسي إذاً؟».

فاض فنجاني الأول على جانبيه وأنا أملأه فتذكرت أن خطأ كهذا في ملء الفنجان كان يعني صفعة من أبي أمام ضيوفه.

ربما جريان النهر الطويل لا يورث الحكمة بقدر ما يورث الجنون. ومثلما مل هذا النهر حتى التاث عقله فأغرق الناس والقرى سيتقدّم بي العمر يوماً حتى تنتابني لوثة مثله وأفضح عائلتي وغادة. عندما تغلفني الوحدة بفقاعة من الأفكار المتضخمة يصبح كل ما يحيط بي مسؤولاً عني وعن مصيري وإلا صببت عليه اللعنات الثقيلة.

ترى هل سأعلم – لو جننت – أني مجنون؟ هل يعلم المجانين حقيقة ما آلوا إليه أم هم يشعرون بأن العالم من حولهم أصبح فجأة مرتاباً وبلا منطق؟ هل جنوني الذي لم أشعر به وهو يتسلق عقلي هو الذي يوقفني في هذا الصباح الصيفي الطويل أمام نهر كويلامت، لا يعرفني حوله أحد، ولا يعرف أحد في الرياض أين أنا الآن؟ منذ أتيت وأنا أحدثه عن فوضاي وخططي بينما هو مشغول بملاحقة الشمال ونحت الضفة وتسيير المراكب، ومنذ عشرين سنة وأنا أحدث غادة عن أشياء يمكن أن تحدث وتمتعنا بينما هي مشغولة بملاحقة الأطفال والمدن والمشروعات المؤقتة، ومنذ ولدت وأنا أحدث نفسي ببداية جديدة ثم أجدني مشغولاً بإيصاد الأبواب وتضميد الماضي وإقفال الحسابات.

يبدو أن غادة تعلم أني سأجن قريباً وإلا ما نصحتني بالتوقف عن الكلام مع الأشياء التي تجري وكأنها اشتبهت في خلل يتحرش بعقلي. على الأقل ما زالت بالنسبة لها مجرد شبهة، بينما هي يقين لا جدال فيه عند عائلتي الذين لا يملك أي منهم إجابة سديدة لأي

سائل قد يسألهم لماذا أنا في بورتلاند الآن؟ لقد اعتادوا سفري المتكرّر طيلة السنوات الماضية حتى إنهم لا يظنون مقامي هنا إلا واحداً من تلك الأسفار وإن طال قليلاً عن سوابقه.

فكرت في عدة مدن واخترت بورتلاند، المدينة التي درست فيها يافعاً وما زلت أحفظ لها الوداد القديم. لم يدر بخلدي يوماً أني سأعود إليها. طالما ظننت أني تحوّلت إلى غربال عاجز عن اقتناء اللحظات الثمينة رغم أنها تمر بي كثيراً. الذي يعيش مثلي في مدن مزاجية يجد على أرفف حياته أشياء مختلفة كل يوم.. وكلها تختفي قبل الغد. وأنا مثل تلك الأرفف، لا أملك خياراً في ما يوضع فوقي وما يؤخذ مني.

لم أكن أعرف ويلامت آنذاك ولا يهمّني أمره. كان في المدينة أشياء أخرى أكثر متعة من نهر عتيد تعتليه الجسور وتنهبه القنادس. كنت أعلق عليها جموح العشرين وجرأتها وهي تجيد تماماً دور المشجب المتعاون. وقتها قالت لي فتاة شقراء كادت تستجيب لي لولا تسرّعي «كيف وصلت إلى مدينتنا؟ هل نحن على الخريطة فعلاً؟». لم أخبرها أن المدينة اختارها لي موظف مكتب السياحة في الرياض ووافقت عليها دون نقاش.

لم تتغيّر بورتلاند كثيراً عما كانت عليه قبل ثلاث وعشرين سنة، ورغم ذلك لم تعترني ارتجافة الحنين الطارئة التي تجيء عادة عندما نزور مدننا القديمة. كنت أجوب الشوارع وكأني سائح جديد بذاكرة جيدة ولا أكثر. لم تزرع ذرة واحدة تحت جلدي عندما زرتها أول مرة وربما لذلك أمنت العودة إليها في هذا العمر

دون أن أكون مديناً لها بالحنين. هذه المدن المحايدة أكثر أماناً على قلوبنا من مدن الشجن المزايد والقلق الأبدي.

لم يهاتفني أحد من عائلتي طيلة أيام منذ وصولي رغم أني أرسلت رسائل جماعية إلى هواتفهم جميعاً أخبرهم برقم هاتفي الجديد. بعد أسبوع من ذلك اتصلت بي عمتي فاطمة وراحت تسألني عن الطقس والبشر وأخبرتني أن شيخة تجلس إلى جوارها وتبلغني سلامها ودعاءها وأن أبي بخير رغم أني لم أسألها عنه. وفي اليوم الثاني عشر اتصلت أمي أخيراً. سألتني بعد تحية جافة عن تاريخ عودتي وكأنها نسيت أنها ودّعتني في الرياض بدعاء فظ. أخبرتها أني لم أحدّد عودتي بعد. قالت لي بلهجة مستنكرة:

– شلون يعني؟ ما حجزت عودة؟

– لا ما حجزت.

– أعوذ بالله؟ شلون يعني؟ منتب راجع. انهبلت أنت؟؟

ولطالما كنت أشعر بأني أحسن جدلاً مع أمي في الهاتف بعيداً عن نظراتها التي تحدجني بها وكأني لص مغفل. ولذلك طاب لي أن أصبّ الزيت على استنكارها الذي غلفت به مخاوفها وقلقها:

– وش يرجعني يمه؟

– أقول العن الشيطان بس، معك قرشين وتحسب انك بتفلح. ارجع بس وبلا هبال.

– بالله يمه وش عندكم يستاهل الرجعة؟

– لا حول ولا قوة إلا بالله. هذي تاليتها يعني؟

– ... حر وغبار ومشاكل وضيقة خلق...

– أهلك أهلك يالمجنون؟ عاجبتك قعدتك هناك ما عندك أهل ولا ناس؟

– سهلة ذي. بتزوج أمريكية ويصير عندي أهل.

– أمريكية؟ ايه بتلعب عليك يومين وتروح وتخليك..

– ما رحتي بعيد. ميب أول زوجة تروح وتخلي زوجها!

– ....

أنهت المكالمة دون تحية. تحسّست ابتسامة عريضة ارتسمت على وجهي. تلذذت بمراجعة حوارنا القصير ورحت أستعيد ذاكرة نبراتها وصوتها. للمرة الأولى أتوقف عن محاولتي المستمرة لفهم مشاعر أمي تجاهي. أنا الابن الذي انتظرتني بنفاد صبر أن أخرج من بطنها حتى تخرج هي من بيت أبي. كانت الإجابة أسهل مما أنفقته عليها من بحث واستقصاء: إنها لا تحبني ولم تحبني يوماً، ولكنها يجب أن تتصرف ككل الأمهات: تتصل بابنها المسافر وتحثّه على العودة.

تظنني أسافر للعهر والعبث. لا أحد يسافر دون أسباب إلا كان هذا هو الغرض الوحيد الذي يجدر به إخفاؤه ويسهل عليها استنتاجه. لم أسع يوماً لأدحض شبهات أمي وعائلتي حول سفري. الدفاع عن حقائبي وتذاكري يكلفني الكثير من الألم في الرياض. القندس الذي يسافر كثيراً لا يكتمل سده وهم لا يتحمّلون رؤية قندس عارياً دون سد. ولكن على أبي أن يتحمّل غلطته الأصلية عندما بنى سداً كافياً للجميع حتى نسينا جميعاً

لماذا نحن قنادس وتورّط هو في هويتنا الضائعة.

هذه المرة لا شيء يتغيّر بالنسبة لهم سوى أني لم أشتر تذكرة عودة بعد. كان في وجوههم من الوجوم ما يجعلني أودّعهم دون أسف، وكان في جبيني من الخطط المعطلة ما يجعلني أهم بإحداها أياً كانت. وهكذا انقطعت مرساتي الثقيلة وراح يجرفني التيار وحده. حتى داود احتار في عودتي هذه المرة فتوقف عن إرسال النكات العابرة في الهاتف. قبل رحلتي الأخيرة هذه، اعتاد مني أن أسافر وفق جدول منتظم تضعه غادة ولا خيار لي فيه.

لقاءاتي معها طيلة عشرين سنة تصلح أن تكون ملفاً من ملفات المخابرات لفرط سرية التدابير واختلاف المدن. لم تبق مدينة كبرى أو صغرى في أوروبا لم تشهد علينا وتوقّع باسمها على طرف من القصة. أتاحت لها طبيعة عمل زوجها حرية التنقل في خريطة أوروبا الواسعة، ولولا ذلك لما تخيّلت كيف يمكن أن تكون لقاءاتنا في السعودية المغلقة وسط هذه التدابير المتشددة التي تتخذها هي فوق ما يجبرنا البلد على اتخاذه.

الآن، تصفّنا الأربعون على رف غابر مثل طقم قديم من العشاق. لم نعد نصلح لشيء باستثناء تمرير النصائح التافهة وتدبير اللقاءات المتثاقلة. هذا يبرّر الخمسة آلاف ميل التي تفصل بيننا الآن بعد أن اكتشفنا مبكراً أن وجودنا معاً في المدينة نفسها يشبه حشر سلكي كهرباء في مقبس واحد. هذا يبرّر أيضاً خلافاتنا المتعدّدة بسبب تواصلنا الضعيف، وعتابنا الطفولي بسبب أوقاتنا المتخالفة، وثقتنا المهتزة بسبب ظروفنا التي تتغيّر مع تقدّمنا في العمر. ويبرّر أيضاً

تفاصيل كثيرة صرنا نتجنّب النقاش حولها بعد أن كانت محاورنا الأهم ومضمار كلامنا الواسع . كل يوم تصبح مساحة الكلام أقل. . عكس ما هو مفترض بامرأة تعرف عدد شعرات صدري ورجل يعرف مساحة جلدها. ولكني فقدت اهتمامها فعلاً منذ زمن طويل. لم يبق أمامي إلا أن أناقش النهر ويناقشني، فنتحوّل معاً ونحن نتبادل الحديث إلى سبب مقنع ليبقي العابرون بيني وبينهم مسافة آمنة.

١٨

منى تشبه أمها في تشكيل جسدها. كلتاهما تبدو هندسياً مثل معين. نحيلتا الصدر والساقين عريضتا البطن والفخذين. وتقول منى ضاحكة: «هذا عرق خوالي». ولكنه عرق جميل أيضاً ومنى جميلة. عيناها متحفزتان ووجهها متسق الملامح. هي معركة كأمها أيضاً غير أنها لم تجد من يخوضها بعد، أو هي ملّت من الفرسان الخائبين الذين يناوشونها عن بعد.

عرفت في ما بعد أن في مقبرتها عدة عشاق موتى. أحدهم كتب اسمها على سور الأرض الفضاء المقابلة لبيتنا محاطاً بقلب كبير تقطر منه دماء وأوراق. كان رسماً متقناً وخطاً جميلاً. تظاهرت منى بالرعب من الفضيحة وخبّأت داخلها شعوراً مبطناً بالغبطة. طوال عمرها وهي تعيش كنزوة متحركة في مساحة ضيقة. خطبها رجلان فعلاً ورفضهما أبي وشيخة معاً لأن أختها الكبرى لم تخطب بعد ولم تهتم منى بالأمر. يفترض سلمان أنها إثم متخبط ينبغي تقييده قبل أن يضر بجدران السد، وتفترض شيخة أنها طاقة مهدرة لم تجد فسحة

كافية للتفوّق، وتفترض نورة أنها قندس غير منضبط ولا يقلق بما فيه الكفاية.

الذي يجمع بيني وبين منى أن كلينا شعر في المرحلة نفسها من العمر بأن السد الذي نسكنه أصغر من اللازم. جدران هذا البيت الفسيح وأفنيته ومبانيه لم تكن تكفي للطفل النزق الذي يجري في روحينا. ولهذا لم أندهش عندما سمعت وأنا في بورتلاند أن منى انطلقت أخيراً من القوس مثل سهم ظل يُشد لسنوات فجاءت انطلاقته أبعد من المتوقع وخارج الحدود تماماً.

اللعينة! لو أنها هاتفتني لساعدتها كثيراً. ربما جلبتها معي إلى بورتلاند ثم أطلقتها ترعى الحياة مثل خروف محروم. ولكنها بالتأكيد ما زالت ترتاب مني منذ تلك الليلة التي ظنّت فيها أني أنظر إليها برغبة. هل يعقل هذا؟ كل ما حاولت فعله هو مشاركتها السباحة في مسبح المنزل وحيدين في هدأة الليل. هذه هي كل الحكاية. يبدو أن نورة أضافت إليها أبعاداً كثيرة في ذهن أختها الصغرى فتوجّست مني إلى الأبد.

قبلت منهم جميعاً ألا يعدّني أيّ منهم أخاً أكبر ولكنهم الآن لا يعدونني أخاً بغض النظر عن ترتيبه. ألا يعرفون أن القنادس تسبح معاً طيلة اليوم؟ فلماذا خبّأت منى ساقيها ونهديها فور دخولي بملابس السباحة إلى المكان وتقرفصت على نفسها لتخبّئ أكبر قدر من الجلد المكشوف قبل أن تهرع إلى منشفتها لتنقذها من عيني أخيها؟

قضينا بعدها أشهراً طويلة لا نلتقي حتى جمعنا صباح عيد الفطر.

تعمّدت أن أقبل نورة على خدّيها بينما أكتفي بمصافحة منى فقط كما نفعل مع الغرباء. كنت أحاول أن أنتقم لآلام صغيرة ظلت تسكنني منذ تلك الليلة ولا أعرف ما إذا كان انتقامي مجدياً. بعد شهرين ردّت لي منى تلك المصافحة الناقصة في صباح عيد الأضحى بأن انسحبت من المجلس تماماً فور دخولي.

كلما حاولت أن أؤدّي دور الأخ الأكبر الذي يدلل الأخت الصغرى وقعت في شرك تلك القصة الملوّثة. المؤلم أني كنت ميالاً بصدق لهذا الدور لأن منى كانت تستحقه. إنها ذكية ومختلفة بينما بقية إخوتي أغبياء ولا يميّزهم شيء. لو أنها تثق بي قليلاً لحاولت أن أجعلها أسعد ولكنها لا تفعل قط.

هل أكتب؟ ويلامت لا يبدو مهووساً بالأسرار ولا ينقل الفضائح مع جملة الأشياء التي ينقلها تيّاره العجول، وأنا أحتاج إلى فقء هذه الأعين العمياء في صدري حتى تكف عن هذا الدبيب المؤلم. كان هذا قبل سنوات طويلة. قبل حوض السباحة وقصته الصفيقة الملتصقة بجبيني مثل لطخة دهان خاطئة. في عزاء خالتها عانقت منى وأطلت العناق. شممت فيها رائحة العائلة التي تكاد تختفي ولا أدري ما إذا شمت فيّ رائحة مثلها. ظلت قابعة بين ذراعي وهي تتنهّد بخفة. بكت قليلاً وبكيت بدوري. جلسنا على أرض الكاراج الإسمنتية في هدأة الليل وراحت تحكي لي عن ظروف العزاء ورحيل الخالة بينما كنت أحاول أن أتذكر آخر مرة عانقت فيها أحد إخوتي مذ كانوا أطفالاً. الآن منى ليست طفلة. خطت إلى السابعة عشرة ولها عقل نابه وقلب يتحسّس الطريق. لماذا تسند رأسها إلى

جنبي؟ ولماذا أشعر بدوار وترتعش يداي؟

انتهت حكاية العزاء سريعاً وراحت منى تتحدّث عن أشياء أخرى. أخبرتني أنها تريد أن تسافر مثل كل فتاة أخرى إلى باريس وروما ولكن أبي يحرم السفر على البنات حتى يتزوّجن، وأخبرتها أني أتمنى أحياناً أن أقتلع لساني من مكانه وأرميه لقطط الحيّ كلما خانني كالعادة وراح يتأتئ مثل ترس صدئ. أخبرتني أنه يؤلمها ألا تشعر بعاطفة جيدة تجاه أبي، وأخبرتها أني لا أحمل أيّ عاطفة تجاه أبي وأمي معاً. كشفت عن ساقها لتريني آثار حساسية جلدية أخبرها الطبيب أنها من فرط الكآبة والتوتر، وأخبرتها أني لم أذهب للطبيب منذ سنوات خوفاً من أخبار أسوأ من تلك قياساً إلى طبيعة حياتي الخربة. أخبرتني أنها ستتحول إلى القسم الأدبي لأنه لا جدوى من القسم العلمي إذا كان أبي سيمنعها من دراسة الطب على كل الأحوال، وأخبرتها أنا لأول مرة بقصة فصلي من الجامعة وكيف تحوّلت بعدها إلى قطعة من هباء الدنيا. أخبرتني أنها كثيراً ما تحبس نفسها في غرفتها لأكثر من يوم لأنها لا تجد من تشكو لها آلامها، وأخبرتها أن فيلتي الغريبة التي لم تدخلها هي قط تتكدّس في داخلها أطنان من الأحزان التي لا تعرف باباً ولا نافذة. أخبرتني أنها لا يمكنها أن تعيش أكثر بهذا المصروف الضئيل الذي يصرفه أبي للبنات كل شهر، وأخبرتها أنا أني اضطررت أكثر من مرة للاستدانة من أصدقاء حتى لا أضطر لأن أطلب منه قرشاً واحداً.

مرّت أشهر بعد جلسة الكاراج تلك وأنا أعلق منى في منتصف قلبي تماماً. ولأول مرة كنت أجرّب أن أكون أخاً لطيفاً مثل أولئك

الذين نشاهدهم في التلفزيون. كنت آخذها من المدرسة أحياناً لوجبة غداء في مطاعم الوجبات السريعة، أعيرها أجهزة الفيديو والأفلام التي تختار دون تحفظ، أضع بعض المال الفائض عن حاجتي في يدها المليئة برسوم قلوب صغيرة تخترقها أسهم مراشة بالحبر الأزرق، ويبدو أنها أيضاً أرادت أن تكون بمستوى هذا الدور فمنحتني الكثير من حالات العناق غير الضروري، وصارت تخصّني بقطع من أطباق الحلوى الرديئة التي تتعلم إعدادها، وتكتب لي رسائل ملوّنة وأنيقة من حين لآخر، وكشفت لي أسراراً صغيرة يدور أغلبها حول إخوة صديقاتها في المرحلة الثانوية. كل فتاة تحب أخا صديقتها وكأنه فرض عاطفي لا نعلم من شرعه.

إذا جلبت مني إلى ضفتك يا ويلامت فاسألها ما الذي أخمد هذه العلاقة الجميلة القصيرة؟ لماذا سحبت نفسها تدريجاً مثل خيط من الدخان المتسرّب عبر نافذة؟ هل ارتكبتُ خطأ؟ هل بحتُ سراً؟ أم أن الحياة منحتها رجلاً آخر يستقطب مشاعر مراهقتها بشكل أفضل من أخيها الأكبر الذي لا يصلح لشيء؟ هذا معقول. لم يكن بوسعها أن تستمر في تفريغ مشاعرها علي إلى الأبد، ولكني كنت ذلك المجرى المؤقت الذي لا بديل له لتصريف سيل عواطف البنات الذي فاجأتها به السابعة عشرة ولا خبرة لقلبها المراهق به.

إبان ذلك، كانت تناديني (حبيبي) إذا كانت وادعة و(غلّوب) إذا كانت جذلة. وكنت أظنني بصدد ترميم العائلة التي تصدّعت وسأصبح بديلاً كافياً للأب الذي لا يؤدّي دوره كما يجب. تغيّرت عاداتي وصرت رجلاً لم أكنه من قبل. منذ متى وأنا أراقب شؤون

البيت ومشترياته وظروفه؟ منذ متى وأنا أتردّد على المجلس الكبير أكثر من مرة في اليوم لأشرب من قهوة عمتي قدحاً ومن قهوة شيخة قدحاً آخر؟ منذ متى وأنا أتساءل بينهم مثل سيد المكان الجذل «وين سلمان ما شفناه؟» و«كلموا نورة تجي نشوف أخبارها؟».

تأخرت في اكتشافي للحقيقة ولكني تأخرت في البوح بها أكثر. بضع كلمات مغلفة بالسكّر المغشوش من فم مراهقة كانت تمرّن قلبها على عواطفه الجديدة غطت عيني بغشاوة من الأمل الوهمية وجعلتني أرى عائلة غير العائلة التي اعتدتها، وأؤدّي دوراً غير الدور الذي نشأت عليه. تضخمت ذاتي في أشهر عديدة حتى صرت أباً كاملاً قبل أن تفقأني الحقيقة بعد ذلك وتعيدني إلى فيلتي الغربية مثل كيس بال ومثقوب.

عاقون هؤلاء الإخوة. أمّهم الغريبة أرأف بي منهم وأكثر اعترافاً بي كأخ أكبر يسكن في الفيلا الغربية من البيت نفسه. تستشيرني في أمور عابرة، وتبعث لي إفطاراً شعبياً في بعض الصباحات، وتسأل عني حين أسافر فجأة لألتقي غادة في مدينة جديدة، وتخفف عنّي من نقمات أبي ونوبات غضبه قبل أن تنفجر في وجهي. هاتفني أبي ذات مرة ليصبّ عليّ شتائم معتادة ثم لم يغلق الهاتف تماماً في غمرة الغضب فسمعت شيخة وهي تعاتبه: «الله يهديك يا بوغالب. ما يصير تكلمه كذا، تراه ولدك الكبير ومهما يكون سندك وعونك في حياتك!»، ثم سمعت أبي ينهرها عن التدخل بنبرة يفارقها الغضب تدريجاً ويداخلها شعور بالذنب والخجل. هكذا كانت تعدّني شيخة وهي زوجة أب غريبة. أما أبناؤها الذين يشتركون

معي في الأب والسد والأخشاب فيتجنّبون التعالق معي وكأني مجذوم غريب الأطوار، عازف عن الزواج، يتسلل إلى حمامات السباحة، وتخبرهم حافة باب المنزل ومقدّمة سيارتي المعوجة أني أشرب أحياناً إلى هذا الحد، أو أن سلمان هو الذي أوحى إليهم بذلك، وهم يصدّقون كل ما يقوله هذا الابن الصالح.

كان الابن الذي لا يبدو أن أبي استخرجه من رحم شيخة بل صنعه بيديه من طين لازب، فسوّاه كما يريد وشكّله على مزاجه الأبوي وجعله في أحسن تقويم. هذا يعني بالضرورة أنه كان نقيضي في كل شيء ولا أكاد أتفق معه إلا على بضعة مسلّمات كبرى في الحياة ولا شيء غير ذلك. كان يصلي ويصوم. يدرس وينجح. يلازم أبي مثل ظله ويسامره مثل نديمه. وكلما كبر أبي ازداد اعتماده على الشاب اليافع، وما يزال سلمان يتقرّب إلى أبي بكل ما يحب حتى صار سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر من خلاله، ويده التي تبطش، ورجله التي يركل بها كل ما يعترض طريقه.

في غمرة تديّنه التي لم تطل توتّرت علاقته مع العائلة. راح يجد في كل مخالفة شرعية تحدث في المنزل إهانة مباشرة له. ولأنه أصغر سكان المنزل كان هذا يعني أن يخوض في سلسلة من الإهانات اليومية من الجميع بلا استثناء. منى التي لا تغطي كتفيها في الجلسات العائلية وتظل أظافرها مطلية طوال الشهر بما يشي بأنها لا تصلي. ونورة التي تأكل بيدها اليسرى وتكتب في الإنترنت باسم صريح وتخرج مع السائق وحدها دون خادمة ترافقها لكسر الخلوة. حتى أبي نفسه الذي ما زال يجري كل تعاملاته مع بنك

ربوي رغم محاولات سلمان لإنقاذه من مغبة الربا ونقل حساباته إلى بنك إسلامي. الوحيدة التي أحدثت بعض التغييرات في سلوكها كانت شيخة بعد أن رق قلبها لكبريائه التي تتصدع تدريجاً أمام تجاهل الجميع له، فصارت تصوم معه الاثنين والخميس، وتخفض صوت التلفاز إذا دخل، وتضع العباءة على رأسها بدلاً من كتفيها.

ولأنه كان متسلطاً كأبينا فقد آذى نورة ومنى كثيراً بينما لم أفعل أنا ذلك قط. ورغم ذلك كنت ساقطاً من قائمة الإخوة بينما ظل هو متربّعاً في أعلاها. كان تعاملهم هذا مضموماً إلى شؤون أخرى يجعلني أبكي بكاءً خفيفاً في بعض الأحيان قبل أن أتجاوز ذلك مذ تبدّى لي أنهم أكثر ضياعاً مني، ويستحقون الشفقة أكثر من العتب.

١٩

في دورة تطوير الذات التي التحقت بها بعد أن قرأت إعلانها في الشارع أعطانا المدرب ورقة بيضاء وطلب منا أن نكتب أهدافنا في الحياة بكل تجرّد. طمأننا إلى أنه لن يجبرنا على التصريح بها لاحقاً فانكشفت في ذهني أفكار محتجبة. ساد الصمت في الغرفة البيضاء المطلة على وسط بورتلاند المزدحم وبدأت أفكر في أهدافي. شعرت بأني غرقت في غيمة بيضاء ورحت أقبض بيدي على أشياء بضة وزئبقية...

كتبت باللغة العربية إمعاناً في الاستتار:

١. أن أجد دائماً فكرة جديدة انشغل بها حتى لا ينطفئ عقلي.

٢. أن أكون قادراً على مساعدة الآخرين والظفر بشكرهم.

٣. أن أنام مع امرأة غريبة من برج مختلف كل شهر.

طلب منا مرة أخرى أن نكتب في الجهة المقابلة الأسباب التي جعلتنا نرى في ما كتبناه أهدافاً تستحق السعي. قال بصوت متحمس:

«أريدكم أن تتأكدوا أنها أهداف، وليست أشياء أخرى!».

تأمّلت ورقتي مرة أخرى على ضوء ما قال وشعرت بأن كل ما كتبته ربما كان أشياء أخرى. أعدت قراءتها ببطء فبدا لي أن كلاً منها يتشبّث بالورقة بعناد أزلي. ألقيت القلم على الطاولة وملت بالكرسي إلى الوراء متصنعاً اللامبالاة ومسترقاً النظر إلى الجالس بجواري. لمحت هدفه الأول مكتوباً بخط واضح وكبير: النجاح، تلته عدة أسطر أخرى لم أستطع قراءتها. شعرت بالارتباك لوهلة. تخيّلت أنني ربما كنت فعلاً رجلاً بلا أهداف.

قال المدرب إننا كثيراً ما نخلط بين الأهداف والرغبات. رمقته بنظرة حادة لم تعن له شيئاً وهو يومئ برأسه عدة مرات ويكرّر جملته. اعتدلت في جلستي وتناولت الورقة مرة أخرى وأعدت قراءة الأسطر الثلاثة التي دوّنتها. بدا كل منها مرتبكاً كأنه جوبه في لحظة عري. لم أفهم لماذا بدت الرغبة شيئاً أقل من الهدف في جملة المدرب؟ ولكن مهما كان الفرق بينهما لا أتصور أبداً أن عليّ أن أتخلى عن رغباتي التي رافقتني طويلاً لأفتش عن أهداف لم ألتق بها من قبل.

منحنا المدرب خمس دقائق للتفكير العميق في أهدافنا وإعادة صياغتها منبهاً إيانا إلى أنه سيطلب منا التصريح بها للمجموعة هذه المرة. قرأت ما كتبته مرة أخرى ولم أشعر بالرغبة في تغيير أيّ منها. انشغلت بترجمتها إلى الإنجليزية استعداداً لقراءتها على الجميع بعد ذلك.

بدأ المدرب بي «غالب، هل تمانع في مشاركتنا أهدافك؟».

رفعت ورقتي أمام عيني ورحت أقرأ بصوت آلي وقد رسمت على وجهي ملامح دفاعية جامدة. عندما انتهيت علق المدرب ببعض الكلمات التشجيعية وحاول أن يبدو غير مندهش من رغبتي الأخيرة السافرة.

– هذا رائع . هل يمكنك أن توضح لنا لماذا رأيت في ما ذكرت أهدافاً تستحق أن تبذل أقصى جهدك لتحقيقها؟

– لأنها أهدافي. لأنها تسعدني...

– هل كل ما يسعدك يصبح هدفاً بالضرورة؟

– نعم، لم لا!

– هل ستعود إلى نفس السينما كل يوم لمجرد أنك استمتعت فيها يوماً بفيلم جميل؟ هل ستسافر إلى إيطاليا كل صيف لمجرد أنك قضيت فيها إجازة ممتعة؟

– لا، ليس بهذه المبالغة.

– صحيح. نحن نستمتع بالأفلام الجميلة والبلدان الجميلة ولكننا لا نحوّلها إلى أهداف. إنها رغبات تجلب المتعة وليست أهدافاً تستحق السعي.

شعرت بأنه يوبّخني بلطف. هل كان ليردّد الكلام نفسه لو أني كتبت كلمة "النجاح" الصمّاء في ورقتي واكتفيت بذلك؟ عندما صرّح بها المتدرب الذي بجواري لم يعترض المدرّب بل اكتفى بتوجيهه أن يكون أكثر تحديداً في ماهية النجاح الذي يريده وكفى.

هؤلاء الأميركيون يعشقون الأهداف الرقمية المحدّدة

والواضحة. لا يبدو لي أني مخطئ. كل ما في الأمر هو اختلاف ثقافي على ما يبدو. ولكن لو أنه طلب مني أن أكون أكثر تحديداً في أهدافي لكان ذلك أفضل من أن ينتقدها هكذا بفجاجة.

وقفت في منتصف القاعة واستأذنت المدرب في أن أتكلم. طالعتني الأعين الست الأخرى بفضول وأنا أقاطع الترتيب الذي يتبعه المدرّب في إعطاء الدور لكل متدرّب ليصرّح بأهدافه. بدا بعض الضيق واضحاً على ملامحه إلا أنه سمح لي بالكلام.

– طبعاً، تفضّل يا غالب...

– أستطيع أن أرى بوضوح لماذا يبدو ما كتبته أقرب إلى الرغبة منه إلى الهدف، ولكني لا أجد سبباً واحداً في حياتي يمنعني من ممارسة رغباتي كأهداف.

– لا، أبداً. لا مانع في أن تسعى وراء ما يسعدك بالقدر الذي يسعدك أيضاً. ما أقصده هو أن ...

قاطعته بصرامة مقصودة:

– اسمح لي أن أوضح وجهة نظري من فضلك. رغباتي قد لا تبدو أهدافاً في نظرك ولكن الأهداف أصلاً ليست إلا شكلاً معقداً من أشكال الرغبة، أليس كذلك؟ لماذا نهدف إلى النجاح إذا لم يكن النجاح في الأصل يمثل رغبة في التفوّق والتميّز؟

– صحيح، صحيح. صدّقني أنا متفق معك في هذا. ولكن كنت أقصد أنه.. أليس من الضروري أن تكون لدينا رغبات أكثر أهمية من النوم مع امرأة غريبة كل شهر؟ أرجو ألا تظن أنني أسخر منك.. لا لا.. أنا...

– لا يعنيني ذلك. النوم مع امرأة جديدة ليس مرضاً. إنما هو مثل قراءة كتاب جديد كل شهر، وزيارة مدينة جديدة كل سنة، .. و..

قاطعني أحد المتدربين قائلاً:

– ولكن النساء لسن كتباً، ولا مدناً. هناك التزامات ضرورية تنشأ من علاقتنا بهن.

رفع المدرب يديه عالياً وتحدّث بنبرة مسيطرة:

– أعتقد أننا نخرج عن موضوع الدورة إلى تفاصيل ورؤى شخصية لا نحتاج إلى مناقشتها الآن. أرجو أن نحاول التركيز مرة أخرى في الفرق بين الرغبة والهدف. تفضل يا غالب، هل ترغب في الإجابة؟

– لا، أكتفي بهذا. ولكني أريد توضيح نقطة صغيرة. أنا لا أفرّط في التزاماتي كما يظنني السيد هناك.

تداخل صوت المدرّب مع صوت المتدرّب الآخر وهما ينفيان هذا المقصد بشكل متوتر:

– بالتأكيد بالتأكيد.. لا شك في ذلك.

– لم أقصد ذلك. سامحني على عدم الوضوح.

عدت للجلوس مرة أخرى وعاد المدرب إلى استجواب المتدرّبين من حيث قاطعته. لمحت شبح ابتسامة على فم أحد الحاضرين جمّدها بين شفتيه طويلاً. عندما انتهت الجلسة وانفضت المجموعة اقترب مني وسألني بلطف:

– ألا تحتاج إلى العمل؟

- عملت بما يكفي.
- أنت متقاعد إذاً؟
- تقريباً..

فتح ذراعيه وكأنه يريد أن يلقي عبارة ختامية وقال:

- أنت أنهيت أهدافك إذاً ولم يبق عندك إلا رغباتك.
- ربما..
- الآن فهمت. أتمنى لك حظاً موفقاً.

وجدت نفسي بعد دقائق أقتسم معه طاولة صغيرة في مطعم قريب من مقر الدورة ونتناول غداءنا معاً. أخبرني أنه في طور تغيير وظيفته ويحتاج إلى دورة تطوير الذات ليشحذ بها همّته وأخبرته أنني في طور تغيير مدينتي وأحتاج إلى ما يعجنني في المكان بسرعة. شربنا عدة أكواب باردة من البيرة وراح يشرح لي كيف أقضي مواسم بورتلاند الأربعة بين المحيط والجبل والنهر ومعاصر النبيذ. وعندما ربتت البيرة الذهبية كتفيْ الكلام غابت محاذير كثيرة واندلعت التفاصيل على الطاولة.

تجرّأ ليسألني لماذا أرغب في النوم مع امرأة غريبة بالضرورة كل شهر وأردف قائلاً:

- هل اضطهدتك امرأة من قبل؟ هل خانتك إحداهن؟
- لا لا يا صديقي أبداً. كما أني لست رجلاً شرهاً ولا سريع الملل.

أومأ برأسه بتفهّم وكأنه يستحثني للمزيد فقلت:

- هل كشفت مرة عن نهد امرأة من برج الجوزاء؟

ضحك بخجل عابر، وقال:

- لا. برج الحوت ربما.

- أياً يكن. عندما أكشف عن نهد امرأة من برج الجوزاء لا أبالي إذا ما كان أقل جمالاً من آخر نهد رأيته أو لا. حداثته على ذاكرة شهوتي تغفر كل أخطاء استدارته.

- وما الذي يميّز نهد امرأة من برج الجوزاء عن النساء من بقية الأبراج؟

- ربما لا شيء. كل ما أفكر فيه هو أني قد أموت دون أن أكون قد رأيت في حياتي نهد امرأة من برج الجوزاء. وهذا حرمان لا أتحمّله.

- وماذا عن النساء من بقية الأبراج؟

- يؤسفني أني لا أعلم يا صديقي.

- لماذا؟ ألم تجرّب؟ ألم تكن لك علاقات سابقة؟

- أقل بكثير مما تتوقع.

شعرت بأني أحتاج إلى أن أسكر أكثر ولكنه تركني وغادر. بقيت أتهادى بين فوضى الطاولة وضجيج المكان ثم مشيت باتجاه شقتي القريبة وأنا أتساءل إن كنت تحدثت أكثر مما يجب. ربما لم يدعني للغداء إلا ليشبع فضوله حيال رجل غريب الأطوار من السعودية. لا يبدو أني سأرى هذا الرجل مرة أخرى في حياتي.

٢٠

يمر من أمام بيتنا الكبير في الفاخرية شارع عام من خلفه شارع فرعي. وعندما بدأ وجهاء الرياض باقتسام أسماء الشوارع بعد أن اقتسموا أراضيها من قبل، طالب أبي بأن يُسَمَّى الشارع العام باسمه وسعى إلى ذلك سعياً حثيثاً لدى من يعرفهم في الجهات الحكومية المختصة ولكنهم اكتفوا بإطلاق اسمه على الشارع الفرعي الخلفي حتى إذا وصف أبي عنوان منزلنا لزائر غريب كان يسعى لأن يجعله يطوف حول بيتنا قبل أن يصل إلى البوابة حتى ينتهي به إلى الشارع الفرعي أولاً: «... بعدين تروح يمين لين يجيك الشارع اللي باسمي، لف منه يسار.. هذا البيت..». وفي الشارع الفرعي وقف عشيق غض لمنى، وهاتفته: «شفت بيتنا الحين؟ طيب تبي تعرف اسمي.. اقرا اسم الشارع!». ولعدة مرات في السنة الماضية اضطر شفيق، خادم أبي، أن ينظف تلك اللوحة ويعيد طليها بعدما عبث بها صبية الحيّ بالبخاخات الملونة. أما الشارع العام فقد أطلقوا عليه اسم وزير سابق يقيم في آخره.

المسجد الذي بنيناه كان شرقي المنزل. لم يحمل اسم أبي لئلا يسمه الناس بالرياء. ولذلك قرّر أن يسمّيه (مسجد الإحسان)، ونُقش الاسم على قطعة رخام أبيض علقت عند مدخل المسجد. أسفل من الاسم كُتبت عبارة بخط أصغر: (بني على نفقة الشيخ عبد الرحمن بن حسن الوجزي غفر الله له ولوالديه). أبي يسبق اسمه بالشيخ دائماً لأنه اللقب الوحيد الذي يستطيع أن يناله لنفسه دون أن ينتظر موافقة أحد.

في صلاة الفجر بالكاد يكتمل الصف الأول ببضعة مسنين ومعهم أبي وزكي وشفيق وسلمان وعمال البلدية والمؤذن والإمام الذي طلب أبي من وزارة الشؤون الإسلامية تغييره عدة مرات حتى وضع يده أخيراً على ذلك الذي لا يطيل ولا يقصر ويتناسب تماماً مع مزاجه التعبدي. كان موضع أبي من الصف الأول لا ينبغي أن يحتله غيره. تعارفت على ذلك الجماعة الصغيرة في صلاة الفجر ولم يخترق أحد هذا الموضع المحفوظ. أما في بقية الصلوات التي يزدحم فيها المصلون الغرباء فقد كان شفيق يسبقه إلى المسجد فور سماع الأذان ليحجز مكانه بسجادة رمادية نظيفة حتى يصل في ما بعد. وفي مرة وحيدة احتل موضع أبي مصلّ سوداني غريب في صلاة الفجر ولم تدفعه نحنحات أبي الجشة من خلفه ليفسح أو يبتعد فاضطر أبي للصلاة في طرف الصف والسجود على طرف شماغه، واضطر شفيق في ما بعد أن يضيف صلاة الفجر إلى قائمة الصلوات التي تتطلب حجوزات مسبقة.

منذ أن سكنا في الفاخرية وأبي يتعامل مع الناس هنا وكأنه فاتح

منتصر لا ساكن جديد. يبني المسجد ويغيّر أسماء الشوارع ويتدخل حتى في أمزجة العابرين ولوحات المحال التجارية. واضطر صاحب المغسلة المجاورة أن يتكبّد مصروفاً إضافياً لتغيير ماسورة تصريف المياه التي كانت تقطر في الشارع بعد أن وبخه أبي عدة مرات وهدّده بإقفال المحل. ولما لم يكن صاحب المحل اليمني يعرف أبي فقد تخيّل أنه يملك الصلاحية فعلاً فرضخ لمطالبه رغم أن نادراً ما يمر بتلك الجهة من الرصيف أصلاً، حتى إذا فعل يوماً قفز البائع الهندي في محل البقالة المجاورة من مكانه ليقدّم له قطعاً من الحلوى والفاكهة يأخذها أبي منه باستخفاف ليلقيها في حجر المتسوّلة التي تستوطن ركناً ثميناً من الحيّ منذ سنوات.

خلفنا بيت المربع ونوافذه لا تزال موشومة بآثار الشريط اللاصق بعد حرب الخليج ولم ننزعها لأن أبي كان يحدثنا بالانتقال طيلة أشهر الحرب ولم يتمكن من إكمال بناء هذا المنزل لأن جميع المقاولين الذين يعرفهم انشغلوا بمشاريع مؤقتة مع القوات العسكرية في الشمال. حتى إذا انتهت الحرب وعادت الأمور إلى نصابها أكمل أبي بناء بيته على مهل وانتقلنا إليه أخيراً وفي ذهن كل منا حلم فاخر يليق بالمنزل الجديد. كانت شيخة سعيدة بالمطبخ الخارجي المنعزل عن مبنى المنزل، وكان أبي فخوراً بضيافته المستقلة التي تبقي النساء أستر ما يكون عن ضيوفه، وكان إخوتي سعداء بالمسبح الواسع الذي ظل بعد ذلك مهجوراً أغلب السنة، وكنت أنا سعيداً بالفيلا الخاصة لا تجعلني ألتقي أبي إلا وقتما أختار وأكون مستعداً.

ورغم سعادة أبي بالبيت ظل ممتعضاً من الحيّ. بقدر ما قابل الجيران عجرفته تلك بالتجاهل والغضب المكتوم ازداد أبي قناعة بأن المجيء إلى هنا كان غلطة مثلما أن انتقاله إلى المربع من قبل كان غلطة كذلك. تظل الناصرية في رأيه حياً لا يعدله حيّ آخر في الرياض. مهما ذوت الناصرية وانكفأت على حزنها وتاريخها الجريح ومهما فارقها أهلها تباعاً وانتقلوا إلى أحياء أفضل. ظل أبي على عهده القديم بها عندما كانت مسكن الصفوة. ولا يفتأ يذكرنا بسورها العتيد الذي كان يفصلها عن بقية أحياء الرياض قبل أن تتم إزالته بعد انتقالنا منها بسنوات قليلة.

كان بيت الناصرية مستأجراً غير أن أبي أحدث فيه من الترميم ما جعله يبدو كبيت جديد رغم أنه لا يملكه، ودأب الجيران على إثارة النقاش الذي ما زلت أتذكره وأنا أرافق أبي للصلاة في المسجد «لو أنك هدمت وبنيت كان أوفر لك!»، أو يقولون بتعجب «وشوله الخساير على بيت ما تملكه!» ولم أكن بسنواتي القليلة آنذاك أفهم لماذا يكرر الجيران التعليقات نفسها بعد كل صلاة حتى ظننتها جزءاً من أذكار الخروج من المسجد.

قلب أبي الرياض في كفه أكثر من ستين سنة ولم يتجاوز هذه الأحياء الثلاثة تماماً مثل القنادس التي لا تفارق سدودها إلا لتبني سدوداً مجاورة. عندما تركنا منزل الناصرية كان الجميع يهرعون شمالاً ما عدا أبي الذي ظل في الجنوب، وبينما كانت مخططات الأراضي الشاسعة شمال الرياض تنبت بيوتاً ومساكن كان أبي يشتري قصراً قديماً لأميرة هجرته منذ سنوات، فيهدمه ويرفع على

أنقاضه السد الثالث لقندس لا يتعب.

بيت الناصرية كان شعبياً ذا زوايا غير مستوية وأسقف خفيضة بعض الشيء. يمكن أن أحصي في جدرانه عدة طبقات من الدهان المتراكم ولطخات اللياسة التي تغطي فتحات الكهرباء وتعديلات السباكة المتكررة. انتقل إليه والداي قبل أن أولد بعد أنا أقاما زمناً في بيت من طين في حيّ (دخنة) عقب وصولهما إلى الرياض على ظهر حافلة صدئة قطعت بهما المسافة من أبها إلى الرياض في عدة أيام مليئة بالغبار والقيظ والخوف والقلق. ظلت صورة البيت غائرة في ذاكرتي رغم أني تركته طفلاً. لم يزل قائماً على بنيانه الأول حتى اليوم وتسكنه عائلة باكستانية لم تغيّر فيه باباً ولا شباكاً باستثناء لمبة مستطيلة من النيون الأبيض علقوها فوق مدخله بجوار نبتات متسلقة تنبثق من علب معدنية صدئة مصفوفة بمحاذاة السور.

طرقت يوماً بابه في يوم إجازة وطلبت من رب المنزل أن يسمح لي بجولة فيه. تمعن في وجهي بريبة وعدل قبعته المطرزة فوق رأسه ثم رفض. عدت بعد أيام ومعي داود وفيصل وصديق آخر لا أتذكر من كان. طرقت الباب وعندما فتح لي الرجل نفسه قلت له بحزم: بلدية. ثم دفعت الباب ودخلت. تبعني دواد بينما ظل فيصل والرجل الآخر يتناجيان في الخارج. تجولت في البيت وكأني جهاز اكتشاف المعادن، أحاول بشغف أن ألتقط شذرات قديمة من ذاكرتي لا أشك أنها مطمورة في زوايا المكان. تذكرت بدرية طفلةً وجلستها الدائمة تحت شمس الظهيرة دون أن تشعر بحرارتها وهي تلحس الحيطان وتسف التراب وتلعق بقايا الرماد

البارد في الموقد بسبب نقص الحديد والزنك في جسمها. أنفها يسيل ولا يزعجها بينما عيناها شاردتان ومعلقتان في الفراغ الذي يحيط بالأشياء. فخذها مليئة بآثار قرصات الخادمة سعدية الزرقاء الدائرية وذراعاها موشومان بخطوط حمراء طولية لفرط ما تهرشهما باستمرار وهي نائمة.

كان الرجل الباكستاني يتبعني بقلق وأنا أجول في أرجاء البيت ويحك صدغه تارة وخصيته تارة أخرى بحركة متعاقبة مرتبكة. طمأنته أن البلدية تفتش بيوت الحي عشوائياً فلم يُنقص ذلك شيئاً من ريبته وارتباكه. بلاط البيت لم يتغير. المربعات التي تتبعثر عليها أشكال غير منتظمة بألوان ترابية كانت تقول لي أشياء ولكني لا ألتقطها جيداً. لعلها كانت تريد أن تسترجع معي ذكرى اليوم الذي اضطر فيه أبي لتسليم بيت الناصرية إلى مالكه. كان على وجهه مسحة من الحزن أدركتها بحدسي الصغير وأنا أشد يدي على عباءة شيخة مبتعداً قدر المستطاع عن مجاله البصري بعد أن انهال عليّ ضرباً قبلها بساعات لأني ركلت سجادة مطويّة قديمة في غمرة اللعب. ولأني أعرف أن ركل السجاد لم يكن ممنوعاً يستحق الضرب أدركت أن أبي في حالة شعورية سيئة وعظامي لن تتحمّل ذلك.

ضربني أبي في الناصرية وضربني في المربع ولم يفعل ذلك في الفاخرية كما تقول ذاكرة ظهري ووجهي. ليس لأنه صار رؤوفاً ولكن لأن لسانه كرجل مسنّ صار أقسى وطموحه كأب صار أقل. في الناصرية، كان ينصب فلقة صغيرة في فناء البيت تشبه في طريقة نصبها مقصلة الثورة الفرنسية. ولأن نصبها كان يستهلك منه بعض

الوقت والجهد كان الجيران يتناقلون الخبر ثم يأتي الآباء منهم وهم يجرون أبناءهم مستغلين فرصة العقاب الميسرة لتلهب الخيزرانة النحيلة أرجلهم الحافية المتسخة. وإذا لم يكن الآباء حاضرين تزج الأمهات بأبنائهن ليتولى أبي عقابهم بالنيابة عن آبائهم الغائبين. وإذا لم يكن أحد منهم مذنباً يومها كان يُعاقب أيضاً استباقاً لأي ذنب مستقبلي قد يأتي به. وحده أبي كان ينصب الفلقات في الحيّ ويستثمر وقتاً وجهداً في آلية العقاب بينما يختار الآباء الآخرون عقاباً مباشراً وسريعاً كالصفع والركل.

بعد انتقالنا إلى المربع استمر هذا العقاب الفلقي سنوات قليلة قبل أن أصبح أكثر حركة وأشد عصياناً. فشل أبي عدة مرات في تثبيت قدمي على الفلقة فاضطر يعاركني نداً لنداً. يقفل كل أبواب البيت على غفلة مني فيتحول المكان إلى حلبة مصارعة واسعة. يلكمني أبي ويصفعني ويعضني وكأنه يعارك خصماً غريباً في الشارع. أتاح لي هذا العراك أن أجرّب عضلاتي قليلاً في محاولاتي لدفعه عني وقليلاً ما أنجح. مهما كبرت أنا وهرم هو يظل قادراً على أن يطرحني أرضاً ويوسعني ضرباً لأن أبي عندما يعارك يتحوّل إلى فاسق لا يرتدع. يهمّ بلكمي وهو يرفع حاجبيه مثل محارب مندهش ثم يعض لسانه مطوياً مثل الجزارين. يضرب في صمت دون أن يشتم قبل أن تنتهي الجولة. فيصب عليّ وعيده وتهديده بعدها وأنا متكوّم على الأرض مثل حيوان جريح فيوجّه لي الركلة الأخيرة وينسحب لاهثاً متعرقاً.

لا أعرف إذا كانت القنادس تتعارك كما كنا نفعل. كان أبي

يضربني لأنه يؤمن بأن الضرب ينضجني رجلاً كما يريد وأن الولد الذي لا يتعرّض لمستوى الضرب الذي حرص على بقائه ثابتاً طيلة سنوات لن ينشأ صالحاً أبداً. رغم ذلك لم أكن الفتى الذي أراده يوماً. صارت معاركي معه في ما بعد حكايات ساخرة أتبادلها مع أصدقائي وأهلي منذ توقف وأصبح يستنكف عن ضربي. وتيقنت من ذلك عندما عدت من أميركا ورفضت العمل معه في المكتب فثار ثورةً كبرى دون أن يمسّني. عندما أخذله إلى هذا الحد ثم لا يضربني فهذا يعني أنه لن يفعل ذلك بعد اليوم. صرت في نظره أعصى من أن تؤثر فيّ هذه العقوبة البدنية القديمة. تخرّج سلمان من الجامعة وانخرط بكل ولاء في العمل مع أبي فتقبل الأخير فكرة أن تكون خيبته فيّ غير قابلة للتعديل وقرّر أن يقبلني كما أنا: رهانه التناسلي الذي لن يربح.

٢١

لم أشعر بالامتنان لدورة تطوير الذات التي نبّهتني أني رجل أربعيني بلا أهداف رغم أنهم وعدوا في الإعلان أنها ستعلمني كيف أصبح رجلاً أفضل. مرت أشهر قبل أن أعلم أن إعلانات أميركا لا يمكن الوثوق بها مثل إعلان الكرسي القماشي الذي كان يبدو جميلاً في المحال التي تبيعه أمام النهر. وجدته خفيف الوزن وقابلاً للطيّ ومثالياً للجلوس الطويل أمام النهر فاشتريته باندفاع وكأني رجل عاش واقفاً طوال عمره. قلت للبائع إني سأمارس الصيد لأول مرة في حياتي فباعني أغلى صنارة في متجره، معدنية ومعقدة التركيب مثل سلاح ناري يطلق رصاصة عكسية إلى صدري.

عندما أقمت الكرسي القماشي أمام النهر وجلست عليه أول يوم لم أجده مريحاً كما بدا في الإعلان ولم أستطع الخشوع فوقه كما يفعلون. أرغمت نفسي على الجلوس عليه طويلاً لأني كنت أمر بحالة من الإحباط تتضخم معها الخيبات الصغيرة حتى تصبح بؤساً. ظننت الصيد رياضة عميقة تستحق أن أستيقظ من أجلها فجراً

وأعتكف أمام النهر دهراً حتى تتلاشى كل مشاكلي العريقة. هذا الصباح العشرون على ضفة النهر منذ أن قررت ممارسة الصيد وكل يوم يمضي أهدأ من الذي قبله وكأني أنزلق نحو برزخ. منذ أن أشرقت الشمس وانتشر النور وأنا أفقد هدوئي وسكينتي. أتذمّر وتتصاعد الكراهية من قعر القلب الفارغ مثل أدخنة المصانع القديمة. أشعر بأن أسخف شيء يمكن أن أمارسه هو الصيد، لا سيما إذا كان ذلك لأول مرة في حياتي في نهر فظ ومتعجرف مثل ويلامت.

استيقظت قبل يومين في بيت لا أعرف عنوانه. كانت النافذة مفتوحة والستارة البيضاء الشفافة ترقص حول وجهي مثل أطياف موتى. جمدت في مكاني للحظات محاولاً أن أتعرف إلى المكان وأنا أنقل بصري بين أعمدة السرير المعدنية التي تعلقت عليها سترة وردية خفيفة وباب الحمام الذي يتدلى من مقبضه مجفف شعر أسود. التسريحة التي على يساري تحوي أدوات زينة نسائية وبطاقات معايدة معلقة بشكل عشوائي، والمنضدة التي على يميني تحوي كتاباً سميكاً وبضع قناني مياه نصف ممتلئة.

قمت من الفراش ورحت أبحث في الصور المعلقة على الحائط عن المرأة التي جئت معها إلى هنا. تمنيت أن تكون أي امرأة مقبولة منهن، تلك الشقراء الطويلة العنق والقصيرة الشعر أو لاتينية الملامح التي ترتدي زيّ سهرة أسود بياقة لامعة. ولكن ذهني الذي بدأ يصفو تدريجاً مع انزياح غشاوة النوم والسكر كان يرسم صورةً مغبشة لامرأة بضعف وزني، حمراء الشعر وصغيرة

الأنف وكبيرة الزدفين. وجدت لهذه المرأة التي أكمل ذهني تذكرها صوراً مطابقة في أماكن متفرقة من الغرفة فعرفت أنها ولا شك الوحيدة التي سحبت رجلاً غريباً إلى بيتها من وسط ملهى مزدحم بالغرباء والسكارى.

أين هي الآن؟ لماذا تركتني وحيداً في مكان غريب؟ مشيت إلى الحمام وأنا أفكر أني سأجد الإجابة منسوخة بأحمر الشفاه على المرآة ولكني لم أجدها. رأيت في مرآتها العملاقة رجلاً أقيم داخله منذ عقود، بشعر نافر وعينين حمراوين وصدر عار، وبوشاح قماشي صغير يتدلى من عنقه كان يغطي عينيه طيلة الليلة التي بالكاد يتذكر نهاياتها قبل أن يسقط في نوم سحيق. ذكرتني رائحة المساحيق المتناثرة في حمامها برائحتها فاستجمعت أطرافاً أخرى من الحكاية لم تزدني إلا وهناً.

يبدو الملهى أحياناً مثل سباق الخيل. الرابحون يمضون سريعاً ويتجهون إلى منصات التتويج، والبائسون يلملم بعضهم بعضاً آخر الليل ويمضون معاً إلى الإسطبلات الخلفية. كنت جواداً رابحاً يوماً عندما كان يرافقني داود في شوارع الرياض. لم تكن مهمته إلا أن يجعلني أبدو جواداً رابحاً أصلاً بينما يرافقني هو مثل بغل ضل طريقه فاضطر لصحبتي. مر زمن في الرياض كان فيه نوع سيارتي ولون مرافقي يضمنان وجبة عاطفية سهلة لا يحتاج إنضاجها إلى أكثر من يومين.

عصرت بعضاً من معجون أسنانها في فمي وتمضمضت به قليلاً مع بعض الماء. غسلت وجهي فبدت أجزاء من عنقي ووجنتي

لزجة كأنما انسكب عليها سائل دبق له رائحة برتقال. قاومت رغبتي في فهم سبب وجوده على جلدي. قررت أن أخرج من هنا سريعاً قبل أن تعود هي ومعها إفطار وقهوة فأكتشف على المائدة أني قضيت الليل مع مخلوق ستلاحقني ملامحه إلى الأبد. فتشت سلة الزبالة بعجل قبل أن أمضي لأطمئن أني لم أرتكب خطأ أفدح فلم أجد أثراً لأي عازل. خرجت من الباب ورحت أتأمل المكان بعينين تغالبان شمس الصباح الساطعة. أين أنا يا ترى؟ في أي حي؟ كيف سأعود إلى شقتي؟

مشيت بالاتجاه الذي ظننته أعلى ضجيجاً. كان حلقي جافاً ويختلط في رأسي بقايا صداع أمس مع صداع الصباح الجديد الذي قدحته عيناي غير المعتادتين على مواجهة الشمس بدون نظارة شمسية. شعرت بقلق شديد عندما داهمتني في منتصف الطريق رغبة في القيء ودخول الحمام في آن واحد. لم يبد في أفق رؤيتي محل قريب يمكنني استخدام مرحاضه. كنت قد ابتعدت عن بيتها مسافة دقائق فعلاً. عدت ركضاً إلى منزلها الذي تركت بابه موارباً وهرعت إلى الحمام وتقيأت قبل المغسلة ثم جلست على الكرسي أعالج أفكاراً ذاهلة.

هل أرحل وأترك المكان كما هو لتلعن هي بعد عودتها عابراً لن تراه مرة أخرى؟ ولكنني لا أعرف عن ماذا حدثتها أمس. ربما كانت تعرف الآن حتى عنوان بيتنا في الفاخرية وهاتف عمتي فاطمة في الرياض. مسحت أرضية الحمام بمنظفات وجدتها في زاوية مظلمة في المطبخ وأفرغت ما بقي من قارورة عطر بعشوائية، وخرجت من

نفس الباب إلى الشارع مرة أخرى وأنا لا أدري لماذا رحت أردّد دون وعي أغنية محمد عبده «حياتي كلها صبر وجلادة...».

ظننت أني بلغت عمراً أعرف فيه بدقة ما يمتعني وما يؤذيني، ولم يكن ذلك صحيحاً. افتراضاتنا حيال أنفسنا تتشعب كلما كبرنا حتى يصبح اليقين شائكاً وبعيد المنال. مشيت عكس الاتجاه الذي اخترته من قبل محاولاً الوصول إلى الشارع العام. مررت أخيراً بمقهى منزوٍ ولجته فوراً وسألت النادل عن عنوان المكان. اشتريت قهوة واتصلت بتاكسي وجلست على عتبة المقهى مثل حقيبة بلا صاحب.

مرت دقائق وأنا أنتظر وأفكر في كل شيء. غادة وعائلتي وبورتلاند والعمر والصلوات والأموال وما قضمته القنادس من عشب الضفة. بدا كل منهم في صورة مشوّشة ولكل شيء معنى مختلف. تسلقت الشمس ذراعي فبدت بقعة منها يابسة وكأنها مدهونة بالشمع. ماذا فعلت بي هذه الملعونة ليلة أمس؟ يبدو أني كنت لها مائدة عامرة بعد صيام طويل. كل ما أتذكره الآن هو خليط من الصور واللحظات أشبه بما تلتقطه كاميرا وهي تتدحرج سقوطاً من درج طويل.

ولكن يا لها من امرأة طيبة. لقد استأمنتني على بيتها وخرجت إلى عملها أو أيّ شأن تريده. كان بوسعها أن تلقي بي خارجاً فور استيقاظها ولكنها تركت بيتها مفتوحاً لرجل لا تعرفه أو ربما تعرفه. لا أعلم. حتى أبي لا يأمن أن يتركني وحدي في مكتبه دون أن يتحسّس مفتاح خزانته الحديدية الثقيلة في يده وأرقامها في جبينه.

حتى شقيقاتي لا يأمنَّ أن أسبح معهن في مسبح المنزل أو أخرج بهنّ إلى السوق. حتى بدرية لا تأمن أن أدير لها حساباً بنكياً وبضعة أسهم. حتى غادة لا تأمن تصرفاتي في مدينة هائلة مثل لندن.

في الليل ظهر رقم غريب في هاتفي فعرفت أنها هي. تحدثنا قليلاً وضحكنا. حفظت رقمها في جهازي حتى لا أجيب عليه مرة أخرى. أمضيت اليومين التاليين في البيت دون خروج، أشاهد التلفزيون دون توقف وأقرأ في منتديات الإنترنت. نظفت المطبخ والحمام وكنست الأرض وغسلت ملابسي التي تكوّمت وأنجزت الكثير من الأعمال المنزلية التي تتراكم عادة حتى تواتيني صحوة عابرة بين مجون وآخر. صباح الأحد خرجت إلى النهر وجلست أمامه مثل تائب لا يحتاج أن يبوح أو يعترف. أكلت كل البندق والجوز وقرأت ما استطعت قراءته وفهمه من جريدة الأحد السمينة بعد أن ثبَّتّ الصنارة في القائم المعدني المخصص لذلك. دهنت جلدي بزيت الحماية وتظاهرت بالنوم تحت الشمس. تقمّصت الدور بكل دقائقه وتفاصيله بجدية الذي يعتزم ممارسته ما بقي له من الحياة. فعلت كل ما يمكن أن يفعله رجل حر في مكان جميل ولكني لم أتمكن من تشتيت الشعور المتعامد فوق رأسي مثل سحابة عنيدة: أني محبوس في صندوق زجاجي في منتصف الجنة تماماً.

شيء في الخشبات الممتدة كلسان نحيل في النهر يجعلني أقرف. الخشب عندما تنتهكه المياه لسنوات يطقطق بصوت عجوز تتذمّر من كل شيء. طقطقت ظهري معه للمرة التي لا أحصيها ولم يعد ثمة جدوى من تفريغ قلقي وتوجّسي في فقرات ظهري

المتشنجة. مرّت ساعات وأنا أقنع نفسي بأن الصيد مثل الصلاة والشفاء والطهارة وما زالت نفسي تحدّثني أنه عمل ساذج. لا فائدة في أن تقايض وقتك بسمكة. لا عمق ولا تأمل ولا رياضة روحية ولا هراء.

عدلت جلستي عدة مرات ثم مشيت خطوات قصيرة ذهاباً وإياباً حتى طلب مني القابع بجواري أن أتوقف حتى لا تشتبك خيوط صنارتينا. اعتذرت له بلهجة فائقة التهذيب دون أن أعرف مبرّراً لهذا إلا صغار الغربة ووحشتها الداخلية بينما هز هو رأسه وعاد يحدّق في النهر مثل الآخرين. أدهشني أني تصرفت بنفس الطريقة التي تصرفت بها قبل أسبوعين وأنا أمشي في المركز التجاري الكبير وحدي. الرائحون والغادون كانوا يبعثون البهجة في المكان ولهذا ابتهجت أكثر من اللازم. أضحك وحدي وأبتسم وحدي وألقي النكات العابرة على الأشياء وحدي. عندما رأيت رجلاً يعمل بانهماك في كشك صغير أمام محل ملابس داخلية نسائية ضخم اتجهت إليه مباشرة وسألته ضاحكاً: أليست مهنة صعبة تلك التي تتطلب منك الوقوف ساعات أمام محل شهي كهذا؟ ورحت أقهقه. كانت ابتسامتي أكبر شيء رآه هذا الرجل منذ الصباح ووجهي أكثر اتساعاً مما يتحمّله يومه المتعب. أجابني بغلظة مقصودة وملامح مكفهرة: لا.

عاد الرجل إلى عمله وتدحرجت أنا إلى آخر الممر كأن لم أكن. برّرت غلظته بأكثر مما يستوجبه التبرير لشخص لن ألتقي به مرة أخرى في حياتي ولكني شعرت بوحشة وألم. ربما كان متعباً. ربما

كان يكره الوجوه الداكنة واللكنات الغريبة. ربما طرح عليه آخرون النكتة نفسها مئات المرات. ربما لم أتعلم بعد أساسيات الفكاهة الأميركية. أو ربما أنا مجرد رجل تافه وغريب في بلد هائل.

بعد أن انتهت التبريرات المحتملة عرفت أن ضمادي لا يكفي وجرحي الخاطف صغير ولكنه غزير النزف. بحثت عن ركن بعيد وتركت عيناي تذرفان عدة دمعات ريثما تجف الإهانة تدريجاً وأعود إلى الحياة. كنت أعرف أن البكاء في حقائب الراحلين أهمّ من القمصان والأحذية. إنه الفعل الوحيد الذي يرطب جفاف المجهول ويحمي من تقلبات الغربة. ولهذا لم أستصعب القرار ولم أستنكف الدموع. كنت أنتظر أن أبكي في أيّ يوم وأنا راض ومقتنع لأني كنت أعتقد أني أمارس توقعاتي المسبقة وهذا دليل على سلامة الخطة.

بكيت إذاً. في الركن الشاحب من المركز التجاري المزدحم بالناس احتجاجاً على إهانة بائع متجهّم لم يقبل نكتتي. أنا الرجل الذي عمره ست وأربعون سنة وفي ذاكرتي حكايات ومدن وأشخاص ومتاعب. وقعت في البكاء الذي أوكأته يداي ونفخه فمي. ولم أكن مضطراً لهذا الهوان ولا أتذكر أني بكيت منذ سنوات طويلة. ولكني الرجل الذي خرج عارياً إلى البرد احتجاجاً على اكتظاظ خزانته بالملابس المحيّرة.

انتبهت الآن أن الرجل الذي يخشى اشتباك صنارتينا هو أول شخص يحدثني منذ ليلة الرابع من يوليو تلك. هذا يعني أني قضيت أسبوعين من القطيعة الاختيارية الصامتة في المجتمع الذي

هاجرت إليه باستثناء ليلة واحدة استيقظت بعدها في بيت امرأة مجهولة. أشعر بأني موشك على انكسار قريب وسأنزلق قريباً في الشفقة على الذات. سأكون فيها أنا الكسير وأنا الذي يربت كتف نفسه. مرت بي هذه الحالة الملعونة آلاف المرات وفي كل مرة أدلف إليها من باب مختلف.

٢٢

السنوات الطويلة التي عشناها في بيت المربع حفرت تفاصيله في ذاكرتي بعناية حتى أكاد في إغماضة قصيرة أن أمشي في فنائه الواسع الذي تكسوه بلاطات مربعة برتوش سوداء وبنية غير منتظمة، وأتحسّس بيدي رشته البازلتية الخشنة التي يعرف النمل الكبير طريقه فيها جيداً، وشبابيك الألمينيوم التي كانت صرعة البناء تلك الأيام وهي تحيط بزجاج مثلج الشكل وملوّن بالأخضر والأصفر.

فناؤه الخلفي كان حظيرة أغنام قبيل عيد الأضحى وملعب كرة بقية السنة ومكاناً ملعوناً لأحداث أخرى. اختبأت هناك مع أبناء جيران وجلسنا ندخن ونحشر أجسادنا الصغيرة بين جدارين خشنين تبقى آثارهما على جسدي طويلاً بعد جولات الكرة. كنا صبية حديثي بلوغ. تفوح من أجسادنا رائحة عرق لم نعتدها، وأنوفنا سبقت بقية أعضاء الوجه نمواً، وبرز شعر طفيف في أماكن متفرقة من الذقن. إذا تحدث أحدنا اختار كلاماً بذيئاً يجعلنا ننتفخ

برجولة مصطنعة ليجتمع قبح أجسادنا وقبح أخلاقنا معاً.

كلما تذكرت ذلك تمنيت لو داهمنا أبي وانهال علينا ضرباً حتى لا نجرؤ على التورّط في مشاهد قبيحة كهذه ولا نعاود المجيء مرات عديدة ونجد في تلك الزاوية الضالة متسعاً لتجريب الفحولة الجديدة بعضنا على أجساد بعض. كانت الأنثى أبعد من نجمة بينما شقوق المدينة وجدرانها تنوء بالصبية الذين يفتشون عن أي شيء بض يشعرهم بأن ما تكوّن لديهم من أعضاء في سنوات البلوغ هو أشياء صالحة للجنس ولم يتعرّضوا للخداع.

كان على أبي ألا يتركني دون رقابة أجرّب بلوغي على قطع ذكورية سيئة الطعم والرائحة والذاكرة. ربما من أجل هذا لم أزر بيت المربع منذ رحيلنا الأخير منه لأني رجل يرهقني تطهير الذاكرة من موبقاتها. لست بحاجة إلى نبش تفاصيل المكان الذي يسجلني صبياً تافهاً من صبية الرياض، صار في الأربعين الآن كما صار إليها ثلاثة رجال آخرين متفرقين في المدينة كلهم يعرف حكاية الزاوية وتاريخها الوقح، فلا يكره شيئاً من حياته أكثر من أن يلتقي رفاق طفولته في صدفة خبيثة من صدف المدينة.

هذا ما حدث فعلاً. في الطابق الثاني من وزارة التجارة صادفت أحدهم وقد لوّحت ملامحه رتابة الأعمال الحكومية. لم يكن بوسعي أن أنظر إلى وجهه دون أن تقفز إلى ذهني صورة إليتيه. يلعنهما معاً.. ويلعن حيّ المربع ووزارة التجارة أيضاً. كلما رأيت الأطفال يلعبون بالطائرات الورقية على ضفاف ويلامت تساءلت لماذا ورّطني القدر في طفولة صفيقة في حيّ يلهو الأطفال فيه

بعضهم ببعض دون أن يشتهوا جنساً ولا يحركوا عاطفة؟

لو أني نشأت شاذاً ربما كانت هذه الذكريات أخف وطأة علي وربما صارت عندي قصة أنيقة أحكيها في أندية الشواذ في بورتلاند أو أؤلف بها كتاباً. ها هو القدر الذي لم يكتف بتوريطي في تلك البقعة المقيتة من ذاكرتي يسيّرني مثل لعبة ورقية ليحطني أمام مكتب موظف حكومي في وزارة التجارة رفع رأسه ذات صباح وهو يتوقع مراجعاً يتأبط معاملة فلم يتوقع أبداً صديقاً قديماً يتأبط ذاكرة الزوايا الكريهة.

لو أني أنتزع تلك الزاوية البازلتية السيئة من بيت المربع ربما تصالحت مع أيامي هناك. كانت أكثر من خمس عشرة سنة أو تزيد عن ذلك منذ دخلته أول مرة وأنا طفل يبكي بعد أن اقترف ذنب ركل السجاد حتى تركته بعد العشرين والرياض تنفض عنها وعثاء الحرب والصواريخ الضالة. لا أعرف عدد السنوات بدقة، ولا أحبذ جمعها وطرحها، ولكنها بالتأكيد أكثر مما يمكنني أن أتجاهله أو أنساه. هناك كبرت وورثت من أبي ساعدين مفتولين وصدراً عريضاً وشعراً غزيراً كنت لا أحلقه حتى يمس كتفي. علمني أبي قيادة السيارة مبكراً فاكتمل كبريائي داخل الحي. اعتمد عليّ في تصريف شؤونه التجارية الخفيفة في محل السجاد الذي يملكه عندما يكون مشغولاً بوظيفته الحكومية التي ما زال متمسكاً بها بقلق الراعي الجنوبي الذي لا يستغل كل الأوضاع ولا يأمن لشيء. نقل ملكية المحل باسمي تلك الفترة بعد سريان قانون يمنع موظفي الحكومة من تملك المحال التجارية في ذروة اعتماده عليّ كابن

أكبر. كان لانتقال المحل ولو شكلياً لملكيتي مفعول السحر في تأهبي للعمل فيه وبذل أي جهد لتسيير أموره كما ينبغي.

ذلك المدى من عمري هو الوحيد الذي استمتع فيه أبي حقاً بأبوته لي بعد أن أولاني ثقةً ملأتني عزيمة وفخراً حتى حطمت زجاج الكاديلاك التي كان صاحبها يختلي بأختي بدرية في غرفة المجلس. تبعثرت الثقة بعد ذلك وتسربت الرجولة الوهمية من أطراف أصابعي. أجبرني أبي بعدها بأسابيع قليلة على توقيع عدة أوراق لم أقرأها. عرفت في ما بعد أنها لم تكن سوى تنازل له عن ملكية المحل تحسباً من أيّ تصرف أحمق قد يطرأ مني.

عندما غادرت بدرية بيت المربع مع زوجها الثاني الذي أقالها سريعاً من عثرة زوجها الأول كما يجدر بابن خال بعيد، توقفت عن التردّد على محل أبي ودشنت بدلاً منه ملحقاً في فناء المنزل ألتقي به مع رفاقي. وجدت فيه متسعاً لرجولة أخرى لا يمكن أن يحقنها فيّ أبي ولا أن يفرغها من جسدي بعد ذلك ببصقاته وتقريعه. عمرت الملحق بكل ما تستحقه رفقة تختلف وجوهها كل ليلة. كان هناك جهاز الفيديو الأول. ثم منفضة السجائر. ثم رأس الشيشة. وأذكر أني استدرجت خادمة إلى هنا مرتين ومارست جنساً متخبطاً مع متسولة شابة لم تكن مستعدة للجنس مطلقاً.

ثلاث سنوات قضيتها في ذلك الملحق الصغير ولا أتذكر أني عشت أجمل منها حتى تركنا البيت. كم كان الملحق طيباً ومباركاً ومسكوناً بالرغبات العابرة والليالي الفضفاضة، ويقنعني بأن في الرياض ما يستحق أن نعيش لأجله إذا كان السمر جميلاً والأحلام

واضحة جداً. كانت تلك السنوات الثلاث والملحق ذو الباب المعدني اللامع مثالين رائعين لتحالف الزمان والمكان في خلق سعادة موزونة وأصلية. لم تحدث أحداث عظيمة ولا تجارب هائلة. ولم تنعطف حياتي بشدة في تلك الأعوام وذلك الملحق. كانت فقط أعواماً بلا خوف، عبرت من خلالها بهدوء ودعة نحو عقد العشرينات من عمري كجرعة صافية من الزمن.

الملحق ليس إلا عش الأصدقاء المليء بالفوضى والكلام والنكات المعاد تصنيعها. والرياض آنذاك بالنسبة لشبابها لم تكن مدينة كما يعرف الناس المدن. لم تكن شوارع وبيوتاً وبشراً. بل كانت شبكة من الملاحق. وفي كل ملحق أحلام وشاي وأوقات وضجر وحب ومشاكل وتدخين وابتهالات وفيديو وشباب متشابهون في نصف التفاصيل ومتفقون على بقية التفاصيل الأخرى. في الملحق تبدأ رجولتهم وتنتهي، بكل مؤشرات هذه الرجولة، منذ الفزع إلى الباب بأصوات عالية لاستقبال ضيف قادم من ملحق آخر، إلى الانزواء في ظلمة السحَر الأخير لتعليق الشهوة في شماعة الليل والانكفاء إلى المنزل.

عندما نشبت الحرب واستطالت الإجازة الصيفية أشهراً إضافية أحجم الناس عن السفر خارج البلاد فكانت تلك الملاحق ملجأ الكثيرين من الضجرين أمثالي. أعدت طليه وتأثيثه وحوّلته من حجرة مربعة ملقاة في آخر الفناء إلى مكان رطيب وأنيق. جهزته وكأني أنافس به أي ملحق آخر يمكن أن يميل إليه أصدقائي. وربحتهم جميعاً. كنت نجم ذلك الملحق بلا استثناء وكان الملحق

نجم ملاحق الرياض. يستقبل الكثيرين من أبنائها وكأنه مرفق عام في المدينة حريّ بحكومتها أن تخصّص له من ميزانيتها مثل أيّ من الحدائق العامة والمسلخ البلدي بما يقدّمه من ترويح مجاني لسكانها. يلجأون إليه وقد شقت المدينة أرواحهم وتركت فيها أزقة جافة وفجاجاً عميقة ويخرجون وقد أكملت ترميمهم بالنزق والنقائض والرمان الذي كان يصلنا كل صيف من أقارب أبي الأوفياء في أبها.

وغادة كانت هنا.

امتلأ ذهنها بالصور المتخيلة للمكان الذي كلما هاتفتني وجدتني فيه، وعندما زارت الرياض زيارة مفتعلة قررت أن تأتي من جدة لترى مأوى الرجل الذي كانت تؤمّله للحب والحياة قبل أن يسقط من حسبانها مثل ورقة تقويم خاسرة من تلك التي تأتي مذيّلة بحكمة لا يمكن تطبيقها أبداً. استقبلتها في المطار صباحاً وجئنا إلى الملحق يعلو ملامحنا جذل وترقب ثم خرجنا منه ظهراً وقد انعقد حاجبا غادة وامتقع وجهي أنا. تماديت في طلبها وهي تدخل عريني لأول مرة بعد أن كانت كل لقاءاتنا من قبل تتم في جدة حيث الحب أوفر. أخبرتها أن أجسادنا لا تفكر ولكنّي أحبها ولم يسعفني الطريق الطويل بين بيتنا في المربع ومطار الرياض بصيغة صلح تناسب مزاجها الذي تشظى تماماً.

كانت تظن أن جسدها يشبه الجنة.. لا يزورها إلا مؤمن. لم يكن إيماني كما يجب آنذاك ولم أعرفها إلا قبل أشهر قلائل. قبلتها مرات قليلة في جدة ولكن الرياض حرّضتني على أكثر من ذلك في الوقت

القصير الذي منحني إياه جنونها بين طائرتين ولكنه لم يمنحني معه إغواءً سريعاً يناسب الموقف الذي انتهى وهي تجلس بعيداً عني تقاوم دمعة طارئة.

كان الحنق يحتل كل الفراغ الذي اتسع بيننا. حنقها هي وقد فاجأتها بالإغواء الرخيص وأنا أدس فلماً جنسياً في جهاز الفيديو زاعماً أنه غير ذلك، ثم حنقي أنا الذي انكفأت خطتي الساذجة على شبقي اليائس في ظروف لم تكن مدروسةً بما يكفي. ظننت أنها سترتمي عليّ مثل قطة جائعة فور أن ترى مشهداً واحداً من الفلم. لم يكن بوسعي أن أحوك لها إغواءً أنيقاً كما كانت تريد. الملحق الذي احتقنت حيطانه بالذكور الخائبين لا يبعد كثيراً عن الزاوية البازلتية التي تناوب فيها الصبية بعضهم على بعض، في الحيّ الذي فارقته الحضارة مثل الطيور المهاجرة، في المدينة التي لم يبعث الله فيها عاشقاً من قبل. لا شيء هنا كان مهيّأً لمشهد رومانسي رفيع المستوى كذلك الذي كانت تحلم به غادة، ولم أكن أعرف كيف تولد شهقة دافئة بهدوء بين الكلام المرتب والأنفاس المتقنة ولا كيف أقص بثقة ذلك الحبل السحري بين عقل امرأة وجسدها. أيقنت بعد ذلك أن الملحق كان اختراعاً ذكورياً ككل اختراعات الرياض ولا يمكن أن يكون مسرحاً لرقصة البجع ولا داراً راقية للأوبرا. دخول الأنثى بين جدران الملحق يشبه دخول جسم معدني في أجهزة المطارات، يصدر أزيزاً مزعجاً لا يمكن معه أن تنزل الطيور أو تبتسم الزرافات. لا يمكن أبداً.

تصالحت مع غادة بعد عدة أسابيع ولكني نفضت فكرة تأنيث

الملحق عن ذهني بعد ذلك اليو م وعدت مرة أخرى إلى التعامل مع المكان بما هو حقيق به. ولكننا لم نلبث أن تركنا الحيّ بكامله لننتقل إلى بيت الفاخرية الفسيح الذي كشف لنا فجأة حقيقة أن أبانا ثري. هذا السر المكين لم يكن ليخرج من فمه ولا ليتسرّب من تصرّفاته وسلوكه ولكنه اندلع أمامنا فجأة ونحن ندخل بيت الفاخرية لأول مرة فلا نصدق أننا سنعيش في بيت مثله. بعد ذلك صار الشارع الخلفي باسم أبي، ومسجد الحيّ كذلك، وأعاد كل منا ترتيب طموحه وكبريائه ليتناسبا مع السر الذي انكشف.

٢٣

تأكد لي وأنا أجمع حاجياتي استعداداً لترك النهر أني مارست تماماً ما لا أحتاج إليه في هذه الغربة الناشئة: دورة لتطوير الذات ورحلات صيد لتدميرها. جئت بحثاً عن ذات جديدة لا لتطوير تلك الخربة التي أدور حولها منذ عقود، ولا أظن أن المكث طويلاً أمام النهر سيمنحني قائمة حافلة بالأصدقاء الطيبين والنساء الكريمات.

سحبت الصنارة وخلصتها من عشبة بحر عالقة. حملت السمكتين البالغتي الصغر إلى معيار الحجم الخشبي الذي نصبته إدارة المنتجع بناءً على قوانين الصيد الصارمة. ألقيتهما فوقه فبدت إحداهما أقصر من حديه الناتئين ويجب أن تعود إلى النهر بسبب حجمها الصغير رغم أنها ماتت فعلاً. دفعت قبل أيام مئتي دولار غرامةً على اصطياد سمكة أصغر من الحجم المقبول. أخبرت الرجل الذي أوقع عليّ العقوبة أني لا آكل السمك كثيراً وفي الغالب أني أحمله إلى كونرادو الذي يقليه كيفما اتفق ويأكله فوراً.

كنت أشعر بمرارة وهوان لا أعرف من أين تسربا إلى روحي.

المكث طويلاً أمام نهر جار يوحي بالضآلة وعدم التأثير. كل شيء يسير كما خططت له مسبقاً حتى إن مصروفاتي أقل مما افترضت مسبقاً أني سأضطر إليه، ولكنها روحي التي لا يمكنني أن أتنبأ بانتكاساتها مسبقاً. حدّثت نفسي وأنا أرتّب أدواتي في السيارة أني سأعود إلى الشقة وأسترخي في شرفتي الصغيرة. سأسمع طلال مداح وأحقن في روحي قارورة نبيذ أبيض وأذوب في الشفق حتى أستعيد توازني.

من الضروري أن أدبّر لنفسي أفكاراً إيجابية تعينني على تحمّل بقية الأسبوع وأطرد بواكير الحزن التي بدأت تتجمّع مثل البخار الساخن على نوافذ الشتاء. إذا ما استعدت فرحتي بهذه المدينة الجديدة فسأكون بذلك قد تجاوزت أولى بوادر الردة التي دهمتني فجأة أثناء الصيد. لا بد أن أتوقف عن هذه العادة المملة. حتى الأسماك الميتة تسخر مني وهي تراني مضطراً لإعادتها إلى النهر رغماً عني.

أرسلت غادة رسالتين على الجوال لم أستجب لهما. في الأولى حذرتني من الإعصار الذي سمعت عنه في الأخبار، وفي الثانية أخبرتني أنها تمر بمقهى في باريس كنت قد تعاركت فيه مع شاب جزائري قبّل غادة دون رغبتها بعد أن أجرى معنا حواراً عابراً. كلتا الرسالتين ألبستهما غادة لبوساً طيباً ومحباً ولكنها كعادتها في الرسائل تفضح شعورها نحوي دون أن تشعر. إنها لا تعرف أصلاً في أي ولاية أنا وإلا ما حذرتني من إعصار سيضرب ولاية أخرى تبعد ألف ميل عن أوريغون، ولا أظنها نسيت أبداً الحال المزرية

التي تركني فيها ذلك الجزائري مكوّماً على الأرض مثل خروف يحتضر.

من الواضح أن وجودي في بورتلاند صار يقلق غادة وهي تعبّر عن قلقها بنصائح متفرقة حول كل شيء. عندما أخبرتها أني أبوح لويلامت وكأنه إنسان يصغي ويستجيب بدا لها الأمر كأني أمر بحالة لا أؤتمن فيها على ما أفعل، وأن الفضيحة المرتقبة قد تتسرّب نهراً بعد نهر حتى تجدها قد طفحت ذات مساءً فوق سطح التايمز الذي تتنزّه حوله مع صديقاتها، فيشربنها مع القهوة ويثرثرن بها على الإفطار.

أفهم أسبابها عندما تحاول أن تصرفني عن البوح ولكن هل بوسعها أن تفهم أني لم أعد أملك غيره؟ لم يعد ثمة مكان أجلس فيه براحة سوى هذا البساط الملوّث بالأقدار والحكايات. هل تريدني غادة أن أظل إلى الأبد ذلك الرجل الذي يقطع آلاف الأميال من أجل شهوة ملحّة تحرق ظهره؟ أم هل تريدني أن أصنع وأنا في هذه العمر عائلة سعيدة فيها أطفال لا يتوقفون عن الضحك كتلك التي تظهر في المسلسلات التلفزيونية؟

القطارات لا تعود إلى الوراء. إنها تظل في تقدّمها الدؤوب حتى تهرم أخيراً وتتحول إلى كتلة من الحديد الصدئ. ليس أمامي إذاً إلا أن أستمر في الصفير وتجريب المحطات. لهذا أنا أبوح. ولهذا أنا أسافر. ولا أعرف ما الذي يزعجها في ذلك. يصعب عليها أن تفهم أن البوح لم يعد سهلاً كما كان، ويصعب عليّ أن أطبق النصائح العابرة التي تلقيها عليّ بلا مبرّر. هكذا ترسّخ قناعتها حول الرجل

الذي لا يمكن إصلاحه، وترسّخ قناعتي حول المرأة التي لا تريد أن تصلحني حتى لا تتورّط في حبي.

فلتقبل بذلك أو تنشغل بحياتها اللندنية وتتركني. لن أجزع لفقد أذنيها لأن ترتيبهما ضمن الأشياء المفقودة جاء متأخراً بعدما تملصت مني جميعها على مر السنوات. لم يبق من أثر علاقتنا الطويلة سوى البوح الذي لا أريد الانعتاق منه والحنق الذي لا أستطيع أن أنفثه عليها كما يجب. بقية الأشياء التي كان يمكن أن تحدث بيننا وجدتنا أقل جدية مما تتطلبه المحاولة فلم تقض وقتاً طويلاً بين ظهرانينا إلا بما يكفي لتربية حكاية نافرة لا يمكن الاعتماد عليها. ولع يوم أو يومين.. ثم تعود التفاصيل رتيبة.

لفرط ما تأملت جريان ويلامت أشعر بأن الحياة تجري مثله وأنا أحاول أن أصطاد منها لحظات تقيم الأود وأفشل. سلتي الخاوية لا تحوي سوى أشياء لا يمكن الاعتماد عليها. حسابات بنكية تقيني العوز حتى يموت أبي، وبضعة كتب قرأتها أثناء كتابتي لبحث التخرّج ولم أكملها بعد، ونساء كبرن في العمر وغيّرن أرقامهن منذ زمن طويل. ويلامت وحده هو الذي نبّهني إلى أن سنوات عمري التي تتجمّع فوق كتفي مثل أطفال قرية قبيحة لم تستطع كلها أن تخترع طعماً كافياً لأسماك أجمل.

قفزت إلى ذهني نصيحة غادة مرة أخرى ألا أتكلم مع الأشياء التي تجري. ربما كانت تعني ما أشعر به الآن. إنها تقيم في مدينة فيها نهر منذ سنوات طويلة وأنا لأول مرة أحاور هذا الجاري الرهيب. لم أفكر من قبل ما الذي يجعل هذا النهر أكثر مكان أتذكرها عنده وما

الذي يجعل رسائلها الهاتفية لا تتقاطر عليّ إلا عندما أجلس وحيداً على ضفته. ثمة رابط بينهما عييت عن كشفه ولكني لن أتوانى عن اختلاقه إذا تطلب الأمر.

ربما لأن النهر لا يعيرني اهتماماً عندما أكلمه ويستمر في الجريان؟ كدأبها عندما أكلمها وتجري لتلتقط ملابسها وحاجياتها المتناثرة بين الأريكة والحمام، وترتّب زينتها بعجل وهي تنظر في مرآتها الصغيرة، وتلقي نظرات واسعة على المكان لتتأكد من أنها لم تنس شيئاً يدل عليها، ثم تسحب حقيبتها الجلدية الصغيرة قبل أن أنهي كلامي وتجيب عن أطراف أسئلتي بإجابات قصيرة وعجولة تفتح بعدها باب الغرفة وتسنده بإحدى قدميها ثم تحثني على الانتهاء من قهوتي بسرعة حتى يتسنّى لها تسليم الغرفة واللحاق بموعد طائرتها المغادرة.

ذاكرتي معها أشبه بمحاولات المبتدئين لتصوير فيلم سينمائي. مقاطع متكررة ومعادة لنفس المشهد بتفاصيل مختلفة كل مرة قبل أن يختاروا أخيراً اللقطة الأفضل للعرض. وأنا - حتى الآن - لم أجد اللقطة الأفضل في علاقتي مع غادة منذ عشرين سنة رغم ذاكرتي المتخمة باللقطات الخائبة. لم أعد أذكر كم مرة راقبتها وهي تلملم حاجياتها في فندق، وكم مرة استحثتني حتى لا تفوتها طائرة، وكم مرة مشينا في الممرات الطويلة وكأننا نشيّع ميتاً لا نعرفه، وكم مرة صافحتني عند باب التاكسي دون عناق، وكم مرة راقبتها وهي تعلق نظارتها الشمسية الضخمة على وجهها فتبدو مثل سيدة أعمال فاتنة أو تفتح مظلتها الواسعة فوقها فتبدو مثل يمامة مبتلة قبل أن تغيب

أخيراً في زحام الشارع . لم أعد أذكر كم مرة حدث هذا في مدن لن تذكرنا ولن ترانا ثانية. ما أعرفه أنها مرات كثيرة جداً إلى حد أن التفكير في تسجيلها وحصرها يبدو مخيفاً بالنسبة لرجل بدأ يعاني من ضغط الدم والتهابات القولون. ولكنها الآن، وهي تتوارد على ذهني تباعاً وأنا على ضفة النهر، تبدو مثل جريانه فحسب: متتابعة ومتشابهة ومتكررة.. فقط.

قال كونرادو الذي حدثته عن غادة بعد أن ألح علي بأن أحكي له عن نساء حياتي وكأنه كان ينتظر مني مسلسلاً من ألف ليلة وليلة: «إنها علاقة عادية. ما الذي يدهشك؟ الملايين يتسرب بعضهم إلى بعض خلسةً تحت أغطية العالم!». ولكن بعد كأسين صار كونرادو هو المندهش. لم تقنعه تلك الحالة العكسية: «كيف تكون المرأة هي المتزوجة التي تملك حياةً كاملة وأطفالاً، وأنت العشيق الأعزب الذي تعودها في نوبات متفرقة؟».

كان ينتظر مني تفسيراً في تلك الليلة الأولى التي أخبره بها عن غادة قبل أسابيع وكنت أتجاهله وأنشغل بتنظيف مشواة صغيرة في الفناء الصغير أمام شقتينا استعداداً للشواء. عندما التقيته أول مرة في بورتلاند كان قد مر على علاقتي بغادة تسع عشرة سنة. اكتملت ملامحها تماماً حتى أصبح الاستفسار عن جذورها من أجل إرضاء كونرادو يشبه أن أسأله هو نفسه ما إذا كانت ابنته الشابة - التي لها نفس عمر العلاقة تقريباً - ذكراً أو أنثى. هكذا شرحت له الأمر بعد أن ألح في أسئلته. ابتسم بوجهه السمين الضحوك الذي تضرّج بدماء الخمر والسعال المتقطع ثم عاد لينهمك بتقطيع السمكة التي

جلبتها معي من النهر.

المسكين! كان يبحث عن قصص ممتعة وشهية يقضي بها سمره مع جاره السعودي القادم من أقصى الأرض ليلتقي به في هذه المدينة الممطرة ويقيما في شقتين متقابلتين ليس فيهما نساء، فإذا به يواجه رجلاً رتيباً لولا أنه يجلب له أسماكاً مجانية ويتبرّع بشراء أكياس الفحم التي تغذي المشواة ولكنه لا يحكي له الحكايات التي يريد. حكايات كونرادو مملة أيضاً. كلهاتدور حول فتاة ليل واحدة كانت تعوده بلا مقابل عندما كان عامل بناء في هونغ كونغ.

يلمح كونرادو أني عشيق خائب. ماذا كان يريدني أن أفعل؟ أثور على غادة وأطلبها في بيت الطاعة مثلاً؟ يكفي أنها ظلت على علاقة ثابتة معي طيلة هذه السنوات رغم أنها تعيش في لندن وتستقطب عشيقها من الفاخرية. عشرون سنة من العلاقة المتصلة بلا انقطاع. أمي نفسها لم تفعل ذلك ولم تمنحني وقتاً كافياً لأقتطع نصيبي من الحليب الذي ربما كان ليصيّرني رجلاً آخر لو أنه اكتمل.

الذين يقفزون من خارج الحكايات يفشلون في محاكمتنا دائماً. لا نخرج من أفواههم إلا رجلاً منهوباً وامرأةً لعوباً. هل عندهم إطار أوسع للحكاية؟ ماذا عن رجل وامرأة قررا أن يتعالقا بهذا الشكل خارج فرضيات العالم، فيلتقيا بلا حب، ويفترقا بلا عتبى؟ هكذا فعل كونرادو في البدايات وهكذا فعل فيصل وداود من قبل، ولا رابع لهم يعرف علاقتي بغادة.

أما هذا المساء فلم يكن لكونرادو أسئلة مستفزة. كنت قد شربت ما يكفي لأن يصبح إفساد ليلتنا الهادئة صعباً على أية حال.

اتفقنا منذ يومين أن نقضي سهرة سيجار فاخرة على عتبة الشقة ثم نشوي بعدها لحماً وسمكاً. اشتريت السيجار من محل قريب في طريق عودتي من النهر وقارورة نبيذ أرجنتيني ذكره كونرادو بالاسم وحدثت نفسي بليلة صيفية وادعة لا يكدّرها شيء. جلسنا على كرسيين من الخيزران وبدا كونرادو جذلاً كعادته. على الموقد الخارجي كانت كومة من الفحم تشتعل على مهل، وفي مطبخ كونرادو بضع شرائح من اللحم والسمك تنتظر أن تتحول إلى عشاء بسيط لرجلين فارغين إلا من تبادل الحكايات مثلما يتبادل الأطفال الملصقات الملوّنة.

لا أدري كيف اتفق كونرادو الذي أنادمه أمام مدخل شقته في بورتلاند مع فيصل الذي كان نديم الملحق في الرياض. كلاهما أدان هذه العلاقة الشاحبة وكأنه يملك حرملكاً متخماً بالنساء المطيعات. ولكن لا شيء يجعلني راضياً منها الآن أكثر من تأملي كونرادو وهو يتدحرج إلى شقته آخر الليل وحيداً مثل فيل هرم. تزوره ابنته آخر كل أسبوع وتظل تصرخ في وجهه طيلة اليوم وهي تكنس البيت وتغسل الثياب ثم تهدّده بأنها ستكون المرة الأخيرة التي تأتي فيها إلى شقته وهي تسحب وراءها كيساً مليئاً بزجاجات الخمر الفارغة إلى مكب النفاية. وفي الأسبوع التالي تأتي مرة أخرى لتستقبلها زجاجات جديدة وملابس قذرة بالإضافة إلى وجه أبيها الذي ينتفخ ويستدير طيلة الأسبوع استعداداً لأن تثقبه ابنته في آخره بالصراخ والعتبى.

أما فيصل الذي كان يستخدم عتاباً يناسب الرياض وأخلاقها

المقلوبة فقد انعكست معه آية الطلاق بعد انفصاله عن زوجته، فانهار هو ووقع في حالة كآبة حادة، بينما تزوّجت هي سريعاً وأنجبت لأبنائه إخوةً لا يريدهم. طالما ردد على سمعي عبارات لا ألقي لها بالاً «يا رجال اعقل بس وتزوج وانضبط..»، والآن عندما يحتاج إلى أن يخفف من تعاسته كان يربت كتفي ويبتسم ابتسامةً منطفئة وهو يقول «والله أنت اللي عرفت لها!». كان لزاماً عليه أن تكسره امرأة إلى هذا الحد حتى يراني حكيماً. قبل هذا كنت الصديق الذي تشبه نصائحه أوراق الكوتشينة.. لا يمكن الوثوق بها أبداً.

- أعتقد أني سأتوقف عن الصيد يا كونرادو. أتمنى ألا تكون قد اعتمدت كلياً في غذائك على هذه الأسماك المجانية!

انسحب فمه إلى أسفل وتحوّل إلى ما يشبه الثقب العميق وهو يقول:

- لماذا؟

- أظن أنه يؤثر سلباً على حالتي النفسية.

- أتمزح؟ ولكن الصيد مريح للأعصاب. كلهم يمارسونه من أجل ذلك.

- أرأيت؟ عندي جهاز عصبي مختلف عن العالمين!

- ما الذي حدث؟

- لا شيء. فقط أشعر بالحزن كلما جلست على ضفة النهر.

سكت كونرادو وانشغل بتقطيع الخضروات التي أمامه. ظن أني لا أرغب في الخوض في هذا الموضوع رغم أني كنت أريد

العكس تماماً. قلت بعد أن مرت برهة من الصمت:

– ... مثلاً، اليوم شعرت بأن حياتي خاوية من كل ما يستحق الذكر. فكرت أن الحياة نهر جارٍ وأني أحاول أن أصطاد منه أشياء ممتعة فلم أجد شيئاً. مجرد حساب بنكي أرجو أن يكفيني حتى أموت، وبضعة كتب قرأتها دون فائدة، ونساء كبيرات في السن...

ضحك كونرادو كما يفعل دائماً عندما يتطرّق الحديث إلى النساء في أي سياق كان وهتف مثل مشجع ثمل:

– هذا رائع!

– رائع؟؟

– لديك كل ما تحتاج إليه في الحياة يا رجل!

– كيف؟

– الحساب البنكي يجذب النساء الأصغر سناً. والكتب التي لم تكتمل تجذب نساءً متوسّطات في العمر...

– ......

ثم أردف ضاحكاً..

– وأنت عندك نساء كبيرات أصلاً!

اختفت عيناه الضيقتان تقريباً من فرط الضحك وبرزت تحتهما غمازتان في وجهه السمين فبدا لي وجهه مثقوباً بأربعة ثقوب أفقية متشابهة. توقف فجأة عن الضحك ورسم على وجهه ملامح أكثر جدية:

– ولكن عليك أن تتكيّف مع الأمزجة المختلفة!

– وما الفرق؟
– فرق كبير...
ثم راح يلوّح بذراعيه القصيرتين في الهواء مثلما يفعل عندما يهم بتوضيح فكرة ما:
– هذا يشبه أن تقسم نفسك إلى ثلاث مساحات سياسية لكل منها نظام حكم مختلف.
– وماذا بعد؟
– ثم تحاول التأقلم مع الانقلابات المتعاقبة لنساء مختلفات في العمر!
وقف وهو يطرح عبارته الأخيرة بشكل مسرحي قبل أن يتجه إلى الحمام. ابتسمت له دون حماسة وفكرت أنه ربما عليّ أن انسحب من هذه الجلسات قبل أن يبلغ كونرادو حد الثمل ويتحدّث في السياسة كما يروقه. ولكنه سيأكل بعد قليل ويستعيد شيئاً من توازنه. رغم شعثه وثقل ظله أحياناً إلا أنه نديم مثالي مثل داود أستطيع أن أجلبه إلى السمر متى أردت وأغادره دون خجل.
يشتري كونرادو الأجهزة الكهربائية المعطلة عبر الإنترنت ويصلحها ثم يعيد بيعها بربح بسيط. ولهذا تتراكم عند باب شقته أحياناً غسالات ملابس وتلفزيونات مكعبة وأجهزة فيديو قديمة تزحم الفناء الصغير الذي أشاركه إياه في الدور نفسه الذي تشغله شقتانا فقط. لم أتذمّر من ذلك ولم يعتذر هو. هذا ما يعتاش عليه. عندما يستيقظ متأخراً كل صباح ويقرر الذهاب إلى العمل فهذا يعني أن يقطع الأمتار القليلة بين غرفة نومه وفناء شقته. يعود في

آخر النهار من الفناء إلى الغرفة لينتهي يوم عمل كامل.

لطيف كونرادو لولا أنه يحاول أن يدسّ امرأةً تحت عتبة بابي منذ أتيت. إنه يثير حنقي أحياناً ولكنه الوحيد الذي أحكي له الحكايات هنا وسأظل محتاجاً إلى أذن مثله حتى يصبح صوتي مألوفاً في المكان. يقولون إنه عندما ينتهي الصيف في بورتلاند ويبدأ المطر بالهطل يصبح سماع الأصوات أصعب، وتخلو الشوارع من المارة ولن يكون البوح أمام ويلامت ممكناً.

لم يكن يعرف أن قلبي يعوي في الليل ويخيف النساء. أخبرته أن القنادس تحب بطريقة مختلفة ولا ترقص إلا إذا اكتمل السد. وأنا لم يكتمل سدي لأن تصميمه غريب وليس في الدنيا امرأة صبورة بما يكفي لتنتظر اكتماله، كما ليس فيها امرأة مغامرة بما يكفي لإكماله معي. قلت له هذا عندما عرض عليّ صديقة قديمة له ما زالت تملك ألقاً طفيفاً. قال لي: «لا أنصحك بامرأة أفضل. النساء في أعمارنا محدودات الاستخدام. كمادات دافئة فقط!».

ذكّرني دأبه هذا بمحاولات غادة قديماً أن تزرع زوجة ما في أصيصي المكسور بعد أن رحلت. قلت لها بامتعاض: «هل تحاولين التخفيف عن ذنبك؟»، وقالت: «ذنبي؟؟ وهل ما زلت تراني مذنبة بعد كل هذه السنوات؟»، والحقيقة أني كنت أراها مذنبة ومجرمة حتى كسرتُ نابها الأيمن بالمنفضة الرخامية، ثم مرّت عدة سنوات استطعت خلالها أن أحوّل بيدق الذنب إلى خانتي لأني لم أتحمّل أن ألومها طويلاً. حوّرت ذاكرتي وأعدت تفسير المواقف بصعوبة. زرعت في داخلي شعوراً بالأسى وتحوّلت إلى مجرد صديق وفيّ

يلعق يدها كلما ربتت عليه، ثم مرّت سنوات أكثر ونضجت الحكاية وانطفأت تحتها النار وبردت الذنوب. سلخنا جلودنا الموشومة بالعشق وارتدينا ثياب الأصدقاء الفضفاضة التي يمكن أن يحدث داخلها أيّ شيء دون تبرير.

أليس من المخيف أن نتحوّل إلى شخصين مختلفين تماماً بمجرد بلوغنا هذا العمر؟ تسعة عشر عاماً من الطهو البطيء لعلاقة صغيرة جداً حوّلتها إلى شيء لزج وغامض! ولو أنّنا بقينا معاً ربما ظللنا كما نحن أو توهمنا أنّنا كذلك. عندما أراها الآن كل بضعة أشهر لا أجد في وجهها مفتاحاً واحداً لذاكرتي الموصدة ولا أظنها تجد في وجهي أية أبواب أصلاً.

هي وكونرادو يحملان همّ جسدي الذي لم أحمل همّه بنفسي. هي حاولت تزويجي قبل عشر سنوات تقريباً بامرأة أردنية تقيم في الرياض، وهو يحاول أن يربطني بفتاة صينية لا أدري من أين تؤتى. تزعم هي أن الوحدة ستحوّلني إلى رجل متوحش يوماً ما، ويظن هو أن عظامي باردة مثله وتحتاج إلى مدفأة أنثوية مؤقتة. كرهت منهما معاً هذه الحلول التي تشبه ثرثرة الصيادلة غير الموثوقة.

غادة لم تعد لمثل هذا منذ أن تجاوزنا الأربعين وقلت لها: «لا تفتحي أمامي موضوع الزواج.. إلا إذا انفصلتِ عن زوجكِ!»، فلم يرقها تلميحي الفج وخشيت أني ما زلت أَسعى لذلكَ فعلاً فخافت على أسرتها وأطفالها ولم تعرض عليّ هذا الأمر بعد ذلك البتة. أما كونرادو فأعتقد أني سأصارحه بالأمر في الأيام القليلة القادمة رغم أني لا آخذ كلامه بجدية غالباً. أعوامه الستون التي

لم يقض منها الكثير هنا ونشوة انتقاله إلى أميركا بعد أن كفلته ابنته وإفراطه في شرب الخمور القويّة تبرّر له هذه الخفة وأنا لا يعنيني الأمر. المهم أنه يصغي أحياناً وسأتدبّر أنا أمر جسدي مثلما فعلت طيلة العقود الأربعة الماضية. سهل تدبير أمر هذا الجلد الذي ألبسه وشهواته العاجلة. القندس يجب ألا ينشغل بهذه الأمور وإلا نام في العراء بقية عمره. دائماً هناك امرأة كافية لبعض الوقت.

٢٤

تفصل بين المباني الثلاثة في بيت الفاخرية ممرات صغيرة وملاحق متعدّدة. أتقن أبي بناء هذا السد وكأنه شعر بأنه الأخير. جعل المبنى الأول لضيافته ومجالسه التي يقيم فيها ولائمه المعتادة. وفيه يقع مكتبه الصغير الخالي من الأوراق الجديدة والمليء بالقديمة التي لا تتحرك. في طرف المكتب سلة تنغرس فيها مجموعة من لفائف ورقية لمخططات عقارية اشتراها أبي وباعها منذ سنوات وما زال يزيّن بها مكتبه المنزلي بزهو. وفي الضيافة أيضاً مكتب صغير لسكرتير أبي السوري باسل الذي ظن عندما وفد إلى الرياض قبل ثلاثين سنة أنه استُعمِل لينظم اتصالات رجل أعمال نشط فانتهى به الأمر إلى منظم ولائم بسيط ومعقب للشؤون اليومية، بالإضافة إلى مسؤوليته عن تسديد فواتير الكهرباء والهاتف والماء وتغيير أسطوانات الغاز وشراء لوازم المنزل والإشراف على أعمال الصيانة البسيطة، ثم استخدمته نورة ومنى بعد ذلك في تلخيص مناهج المدرسة وإجراء بحوثهن الجامعية، ثم صار سلمان يبعثه إلى المطار بحقائبه قبل أن يلحق به.

كان يقوم بأي وظيفة لا يقوم بها أحد، وهو راضٍ بذلك ما دام حجم العمل مقبولاً وما دام قادراً على ضبط موجاته مع موجات أبي بحكم التمرّس. تحوّل تدريجاً بالاحتكاك والمعايشة إلى قندس أيضاً، ونمت له كرش ضخمة من كثرة الأكل وقلة الحركة.

كنت مراهقاً عندما وصل باسل إلى الرياض وأبي يمد يديه بحذر شديد ليجمع الأراضي الشمالية الخالية التي تدور حولها الظنون بتوسّعات حكومية مقبلة. شعر بأنه بحاجة إلى من يعينه في ترتيب الأوراق وجمع الأرقام وتوثيق الصكوك فاستقدم باسل الذي كان مهندساً وموظفاً سابقاً في الحكومة السورية واعتمد عليه كثيراً في تجارته العقارية الجديدة، لا سيما بعد أن أبدى باسل حذقاً هندسياً ورؤية محاسبية أثارت إعجاب أبي الذي كان آنذاك لا يزال غارقاً في تجارة السجاد المكدّس في دكانه الضيق، وظن أنه محظوظ بهذا المهندس النابه الذي يعلم ما لا يعلمون، ويرسم تلك المخططات المتقنة، ويجيد التفاوض مع المقاولين وعمال البناء، ولا يتقاضى أجراً كبيراً.

عاماً بعد عام، اكتسب أبي خبرة أوسع في عمله العقاري بعد أن تخلص من دكان السجاد وصار يقضي أغلب يومه في غرف مصنوعة من الصفيح في وسط مخططات واسعة شمال الرياض. تقلصت قدرة باسل على إبهار أبي بما يفعل وأصبح الأخير يكتشف أخطاءه بسهولة ويقرّعه عليها دون أناة. ثم طلب منه أبي أن يتوقف عن مرافقته ويمكث في المكتب الذي استأجره وسط المدينة ليسوّق أراضيه التي في شمالها. تراجعت أهمية الأعمال التي يعهد

بها إليه تدريجاً فلم يعترض وإن راح يبدي بعض التذمّر من حين لآخر. استقدم أبي محاسباً مصرياً وأحلّه في المكتب نفسه مع باسل فأوجس الأخير خيفة وكفّ عن التذمّر، وعندما تأكد أبي من قمع تلك البذرة الناشئة نقل كفالة المحاسب المصري إلى أحد شركائه.

وعندما انتقلنا للفاخرية لم يعد باسل موظفاً عند أبي فحسب بل أحد سكان المنزل أيضاً. منحه أبي غرفة صغيرة في الملاحق الخلفية قريبة من غرف العمال فصار يستيقظ صباحاً ليقطع الممر الصغير الذي يفصل بين مبنى الضيافة وملاحق الخدم متجهاً نحو المطبخ لتناوله الخادمة طبقاً ساخناً من البيض المقلي أو الفول ورغيفين من الخبز وكأس شاي بالحليب يحملها جميعاً في صينية مستديرة وينزوي في إحدى الحجرات الخلفية لمبنى الضيافة، فيتناول إفطاره ثم يأخذ في تصفح الصحف الصباحية التي يجلبها شفيق حتى تتناهى إلى سمعه حوقلات أبي الصباحية وهو مقبل باتجاه الضيافة، فيطوي الصحف ويحملها تحت إبطه ويهرع ليكون في استقباله.

– صباح الخير أبو غالب.

– صباح الخير. هالحين ما جو اللي يصلحون المكيف؟

لا يرد أبي التحية الصباحية دون أن يلحقها بسؤال ما توارد على ذهنه بعد صلاة الفجر. وغالباً ما يكون حول شأن يعدّ باسل مسؤولاً عنه. حتى إذا جاءت الإجابة غير ما يتوقعها تسنّى له أن يوبّخه قليلاً أو يستمر في طريقه نحو المكتب ليقرأ الصحف ويستقبل ضيوفاً عابرين أو يخرج في شأن ما حتى يحين وقت الغداء الذي يتناوله مع شيخة. وطيلة ذلك الوقت، يقبع باسل في مكتبه الصغير الملحق بالضيافة

على مرمى نداء من أبي، يتناول قدحاً من القهوة التركية تلو آخر، ويكمل قراءة الصحف التي انتهى أبي من قراءتها، ويتلو قليلاً في قرآن ذي غلاف جلدي يمكن غلقه بسحاب، ويتبادل مع زكي نكاتاً بائتة حتى يرتفع أذان الظهر فيخرجون جميعاً إلى المسجد قبل أبي.

كان يناديني (أبو الغلب) حتى كبرت وصار يناديني (الشيخ غالب) وهو يبتسم ابتسامة لا تخلو من سخرية. لم أكن أحبّه لأني على يقين بأنه وشى بي عند أبي أكثر من مرة، ولذلك كنت أتعمّد أن أكلفه بأعمال لا يحبّها فيقوم بها أحياناً ويتجاهلني أحياناً كثيرة أخرى. وكلما حاولت توبيخه مثلما يفعل أبي كان يتهرّب من ذلك التوبيخ بخبث: «خلاص يا شيخ غالب. أنا راضي بكلام أبوك. نروح نحكي له وهو يحكم بيننا!».

ظل يكبر معنا بهدوء الرجل الذي استيقن أن الرياض هي محطة حياته الأخيرة ولن يعود إلى حمص مرة أخرى، لا سيما وقد تزوجت ابنتاه وهاجرتا مع طليقته إلى كندا، وهو راض بما يمنحه إياه أبي من راتب وإجازات عشوائية، وبالعمل القليل الذي لا يتحدّى شيخوخته وأعراض السكري التي تداهمه من حين لآخر. ولذلك أصبحت أيامه في الرياض تشبه تقاعداً مريحاً بينما لا يزال على رأس العمل.

بعد أن يأوي أبي إلى مضجعه قرابة العاشرة ليلاً يصعد باسل إلى سطح مبنى الضيافة. يشعل جمراً ويعد أرجيلته الطويلة وكأساً كثيفة من المتة ثم يتكئ على أريكة مخلوعة من سيارة (الجمس) القديمة التي تحولت إلى سيارة الغنم بعد أن استغنى عنها أبي واشترى

لشيخة وبناتها سيارة جديدة. اضطر باسل لفك هذه الأريكة الأخيرة ليتيح مساحة كافية لحشر عدة أغنام معاً في السيارة عند الإعداد لوليمة ثمّ سرّبها إلى مجلسه الليلي في سطح مبنى الضيافة.

وحتى ينتصف الليل، يظل باسل ينفث دخان أرجيلته ويستمتع بنسائم الرياض التي لا ترق إلا ليلاً، ويقلب قنوات التلفزيون المكعب القديم الذي أعطته إياه شيخة ووصله (زكي) في مستقبل القنوات الذي أعطته إياه منى، ويلقي بصره بين فينة وأخرى على ما تبلغه إياه عيناه البنيّتان من أسوار الفاخرية، بقصورها الفارهة عن يمينه وخرائبها الشعبية عن يساره. يشاركه شفيق هذه الجلسة الرائقة أحياناً، محتسياً كوب شاي مثقلاً بالحليب والسكر، ويتجاذبان أطراف الحديث مما يتيسّر لهما فهمه من لهجتيهما المتنافرتين. شفيق الباكستاني يجيد العربية أفضل من أبناء جاليته في السعودية، ويحفظ القرآن كاملاً ولم يعد إلى باكستان منذ دخل السعودية أول مرة قبل أكثر من عقدين. هو أيضاً يعتقد أن الرياض محطته الأخيرة، وتمنى على أبي أن يدفنه في مكة إذا ما مات هنا وأجابه أبي وهو يضحك «الله يحسن خاتمتنا وخاتمتك يا شفيق».

لا أتذكر أن باسل الهادئ دائماً قد ثار إلا مرتين. الأولى عندما نسي التجهيز لوليمة من ولائم أبي التي أوصاه بها منذ الليلة السابقة. فوجئ أبي في ظهيرة الغد أن ليس هناك طعام لضيوفه الذين يملأون المجلس إلا ما حضرته الخادمات من طعام جانبي خفيف فأمر سلمان أن يهرع إلى مطبخ عام لينقذ الموقف. وعندما

غادر الضيوف استدعى أبي باسل. وفور دخوله طوح أبي من بعد بعلبة المناديل المكعبة فأخطأته، فشتم أباه وأمه معاً في لعنة واحدة. عندها ارتجف جسد باسل الممتلئ وتشابكت خطوط جبينه المتعرجة وصاح «اشتمني أنا.. ما عاجبك طولي؟ شو دخل أبي؟ شو دخل أمي» وهدر بغضب هائل «هيك يا بو غالب.. بعد هالعِشْرة بتشتم أبي وأمي عشان شوية غنمات؟ الله لا يبارك في هالمصاري ياللي ما بتحفظ العشرة...»، وغادر المجلس دون أن يأذن له أبي ودون أن ينتعل حذاءه، راح يدب فوق الرخام الذي تلهبه شمس الظهيرة حتى خرج من باب البيت ثم جلس على الرصيف وهو يلوك في فمه كلاماً لا نسمعه. ظل شفيق في المجلس مع أبي بينما لحق زكي بباسل «يا باسل ما يصحش كده، خليك حليم بقه. الشيخ معاه حق برضه! اخزي الشيطان بس وصلّ ع النبي».

بعد صلاة الفجر في اليوم التالي استدعى أبي باسل في المجلس الذي يتناول فيه قهوة الصباح المعتادة فجاء الأخير مقطب الحاجبين وعلى وجهه غيمة من قلق. أومأ إليه أبي أن يجلس قريباً منه ثم قال له بصوت هادئ ووقور:

– أنا ما قصدت شتم الوالدين. ما يجوز شتم الوالدين. أنت سمعتني غلط.

– صار خير يا أبو غالب.

– بس الله يهديك لو أنك تسمع الكلام مثل ما نقوله؟ بس أنك أحياناً تصير طبل. الحين ما سمعتني يوم أقولك جب لنا ذبايح الناس جايينا بكره؟

هكذا اعتذر أبي اعتذاراً مبطناً باللوم كما تعوّده باسل الذي يعرف أن أبي لا يعتذر بسهولة ولكنه لا يتوانى عن فعل ذلك بذكاء متى تطلب الأمر.

ثورة باسل الثانية لم تكن بسبب أبي بل بسببي أنا عندما طلبت منه أن يساعدني في تهريب فتاة من مدرستها الثانوية.

- وَلَك صرت قواد إلكن كمان!!

رحت أزم شفتي لأبدو جاداً وأكتم ضحكي:

- الحين أنت وش دخلك؟ اركب السيارة، ورح جب البنت، وخلاص!

واتسعت عيناه دهشة قبل أن يكمل هديره:

- وهالبنت شو راح تعمل معك بالله؟ تعلمك القراية؟ ما لقيت غيري بهالبيت يعمل هيك عمايل؟ الله يخليك لا تطلعني من طوري يا غالب!

تركته واستدرت عائداً إلى فيلتي قبل أن يتركني هو وتركت الفتاة أيضاً. قاطعته أشهراً طويلة دون تحية فلم يأبه لي.

أما زكي، المصري النوبي، فقد قدم للسعودية مهندساً كهربائياً قبل أن يكتشف أبي أنه كهربائي فحسب بدون هندسة. انتقل خلال خمس عشرة سنة تقريباً بين عدة أعمال متفرقة عهدها إليه أبي في مشاريع مختلفة قبل أن ينتهي أخيراً في خدمة المنزل والعائلة. كان يصلح الأعطال الكهربائية، يجدّد طلاء الجدران، يعيد برمجة القنوات الفضائية، ويرافق باسل بعد أن تقدّم في العمر إلى سوق الأغنام ليساعده في حملها إلى السيارة.

وعندما شاخ أبي ودكت السنون همته أخيراً تقلص عدد الذين يعملون معه من عشرات الموظفين والعمال إلى هؤلاء (الثلاثة الذين خُلفوا) كما يحلو له تسميتهم أحياناً. ورغم عنجهيته في تعامله معهم كان يخفي خلف ملامحه المكفهرة دائماً وداً متراكماً وامتناناً أخوياً بطول السنوات التي قضوها في خدمته بكل إخلاص ولمعادنهم الأصيلة التي لـمّح إليها مراراً وهو يوصي سلمان بهم خيراً بعد أن تولى الأخير إدارة شؤون أبي وما بقي من أمواله.

خلف مبنى الضيافة الذي لم يكن يشغله سوى أبي وهؤلاء الثلاثة أقام أبي فيلا العائلة التي تسكنها شيخة ونورة ومنى وسلمان وأبي وعمتي فاطمة وثلاث خادمات أندونيسيات. وهي أكبر مباني البيت حجماً ويضم مجلس النساء الكبير، وفي قبوه حمام سباحة يحرم فيه أن تسبح القنادس بعضها مع بعض، ولم يعد أحد يستخدمه منذ سنوات وظل مهجوراً حتى نصح الطبيب أبي بمزاولة السباحة فعادت إليه المياه بعد جفاف طويل.

لا أتذكر أني دخلت هذا المبنى منذ سنوات. لم يكن هناك أيّ مبرّر لي، أنا الأخ الأكبر غير الشقيق، أن أتجول فيه مثل فرد من أفراد العائلة. ولم تكن عندي رغبة لولوجه على أي حال إلا في المرات النادرة التي أزور فيها عمتي فاطمة فتصبّ عليّ عتبها كل مرة على ندرة زياراتي ولكن كلماتها سرعان ما تتساقط على الأرض قبل أن تصلني. عتابها لطيف ومنكسر على كل حال. يبدو أحياناً أقرب إلى التحرز من القطيعة منه إلى تحققها فعلاً. القطيعة عند عمتي تعني المسمار الأخير في نعشها. لا يمكن أن تعيش وحدها

دون آذان صاغية وأرواح مجاورة لأنها تبوح كثيراً. ولهذا يمتهنها أبي ولا يلقي لها بالاً. يبدو أنها باحت بما يكفي ليموت زوجها قبل أن يتمّا معاً أشهراً قليلة، ويبدو أيضاً أنها باحت بعده بما يكفي لئلا يتقدّم لها رجل آخر. هكذا جمعت بين مرارتي الترمّل والعنوسة في عمر واحد فتحولت إلى قندس لا يعتمد عليه ولا يوكل إليه قرض الأشجار ولا جمع الجذوع ولا حتى رعاية الصغار، وينتظر الجميع أن يغرق في النهر قريباً.

غرفتها النائية من فيلا العائلة هي الوحيدة التي تطل على فناء الرجال والشارع المفضي إلى المسجد معاً. اختار لها أبي هذه الغرفة المتاحة من كل جانب لعل رجلاً ما يخطفها ويريح كاهله الذي تورّط بها منذ خمسين سنة ولكن أحداً لم يفعل. ظلت عمتنا الأرملة تعيش معنا في البيت حتى غزت شيبات جريئة مفرقها اللامع. تتربّع كل يوم في مجلس النساء قبل أن تأتي شيخة وتتناول قهوتها المبهرة بالنخوة عكس قهوة شيخة المبهرة بالهال. ولهذا كان يجب على الخادمات أن ينصبن دلتين في الموقد طيلة اليوم مثل المرأتين اللتين تتنازعان السيادة الأنثوية على البيت الكبير. ولكني أفترض أن عمتي فاطمة أقل كفاءة من شيخة وقدراتها ضعيفة، كما أنه ليس عندها معركة تخوضها مع أبي لتحصد نجوماً جديدة. ولذلك كانت مناورتها الوحيدة في معركة السيادة الأنثوية هي أن تستيقظ مبكراً جداً لتجلس في رأس المجلس حتى يبدو أنه مكانها المعتاد الذي يحجز لها وليس الذي تسبق إليه.

٢٥

عندما قرّرت غادة أن تتزوّج زفّت إليّ الخبر وكأنها تقترح أن نخرج في نزهة. كانت تحدّثني عن تفاصيل قرار محسوم لا ينقضه أي احتمال صغير لإمكانية ارتباطنا نحن رغم أنا كنا قد قطعنا معاً مشواراً يقترب من العامين. التقيتها فيه عدة مرات في أماكن صعبة بجدة وصرنا نتبادل كلمات من قبيل (حبيبي) و(حبيبتي) بشكل عفوي وكأنا نتدرّب على عمر مقبل. صحيح أن احتمال نجاحنا في الزواج كان شبه معدوم غير أنه انعدامه لا يعني أن قلبي صار علبة عصير فارغة. كان عليها أن تتدرّج في إعلامي بهذا القرار بدلاً من أن تطوح به أمامي بهذه البساطة. ألم يكن من اللائق أن تشنق دمعتين على شرف حكايتنا الجميلة؟ أن تبكي قليلاً على كتفي وتخبرني أني سأظل في قلبها إلى الأبد؟

كان رأي أبي معلوماً لي دون أن أضطر لمفاتحته، تماماً مثلما تعلم هي مسبقاً رأي أبيها. كل من العائلتين كانت تتعالى على الأخرى مما جعل المعادلة أصعب فعزفنا عن حلها قبل أن نحاول. عندما

خطبها شاب من الطائف قال لها أبوها: «يا بنتي خليه يروح يشوف له ناقة يتزوّجها!». أخبرتني غادة ذلك وهي تضحك. عندها عرفنا أن مصير الشاب الطائفي في مجلس أبيها لن يكون أفضل من الجنوبي، لا سيما وقد أكملت الرياض نسجه على غير ما يحبه أبوها بالتأكيد.

كان أبوها يشترط شاباً حجازياً حنكته الحجاز جيلاً بعد جيل، وكان أبي يشترط فتاة ذات نسب أعرق من بئر ارتوازي. وبالتالي كانت فكرة الجمع بين الأبوين في مجلس واحد ليباركا هذا الزواج تحتاج إلى معاهدة دولية. ونحن لا قبل لنا بالمفاوضات والحيل ولم نكن نفكر في قطع مشوار طويل كهذا. الحب شيء والنضال من أجله شيء آخر.

ولكن ذلك لم يوقفنا عن الاستمرار في العلاقة بتوقعات منخفضة. صحيح أن لقاءنا صدفة عبر شباكين في جدة يشبه قصص الحب الشعبية ولكنا لم نتصرّف كنهايات هذه القصص. نجونا من هذا المنحنى الرتيب واخترعنا أحداثاً لا تحكى وتفاصيل لا يمكن تسريبها خارج ذكرياتنا معاً. من الممكن أن نفسّر افتراق طريقينا بكلمات قصيرة طيلة العمر ومن الممكن أيضاً أن نحوّلها إلى درس ثقيل.

قضيت وعائلتي إجازة الربيع في جدة بعد أدائنا عمرة سريعة في مكة. وافق أبي بصعوبة على أن نقضي بضعة أيام في جدة ومرّر هذه الموافقة وكأنها معروف ضخم ينبغي أن يكمم مطالبات شيخة السياحية إلى الأبد. والحقيقة أنه كان مشغولاً بملاحقة معاملة معطلة في الديوان الملكي الذي انتقل إلى جدة مؤقتاً. كان سيبقى

في جدة في جميع الأحوال ولكنه يحب أن يصطاد هذه العصافير المتعدّدة بحجر واحد.

اشتريت ذلك العام مرقاباً حرارياً من الحجاج الروس في مكة تأمّلت به جسد غادة كاملاً من نافذة شقتنا قبل أن أعرف من تكون. لم أميّز تفاصيل كثيرة وسط ذلك الهلام الأحمر الذي كان يتراءى لي ولكني رأيت ما يكفي لأن يشعلني مثل فتيل مغموس في الزيت ويضيئني طوال الليل. كتبت لها ثماني صفحات مختلطة بين مختارات شعرية ونثر وأرقام ودسستها وسط صندوق حلوى بسيط وطلبت من منى التي كانت طفلة آنذاك أن تأخذها إليها مباشرة وكانت خير رسول. رأيتهما عبر مرقابي في غرفة غادة وهي تلاطفها وتعانقها. تحدثتا قليلاً ثم عادت منى ولم أسألها عن أي شيء ولم تسألني هي. عنّفتها شيخة كثيراً على تصرّفها ذاك وتبرّمت بي حد طلبها من أبي أن نقطع الإجازة ونعود إلى الرياض لعلها تبقي ابنتها بعيداً عن عقالي المنفلت.

علقت غادة بصنارتي التي رميتها بلامبالاة في أحد شبابيك جدة ولم أعوّل عليها أن تعود بشيء. ولكن الذي يعرف جدة يعرف أنه عندما يكون الموسم ربيعاً يلقي البحر على المدينة أطناناً من اللقاح الذي يتنفسه الناس ولا يرونه. يصبح الحب حالة عامة والشوارع مليئة بالقلوب الخصبة. هكذا استهلكت جدة كل ما في أعصابنا من الجنون وأعادتني إلى الرياض مثل إناء خوى من الطعام وتورّط في البقايا. كنا معاً في العشرينات من العمر، أخترع لغادة كل ليلة بطولة جديدة وتخترع لي هي تصفيقاً يناسبني. قضينا أسبوعي الربيع مثل

نملتين تعرفان ماذا سيحدث لو حل الشتاء وهما بلا قوت.

قليلاً ما تحبّذ غادة أن تقلب هذه الصفحات من العمر عندما كانت ابنة ثانية لأب متوسط الحال قبل أن تتزوّج دبلوماسياً وتتغيّر حالها. برّرت ذلك لي بأنها ترى أن إعادة مناقشة الحب قد تنقض الشروط القديمة. اتفقت معها في ساعة من ساعات الانسجام القليلة على ألا نرتكب ذلك لأن المومياء قد تعود إلى الحياة إذا تحرّك التابوت. كدنا ننسى أكثر التفاصيل ما عدا تلك الومضات الواضحة التي لا ندري أيّ رتوش أضافتها عليها مخيّلتنا دون أن نشعر. لم يكن بوسعي أن أتكلم كما تريد ولا هي أيضاً.

كانت غادة عاشقة مثالية لفتى صاخب ولكنه لن يتزوّجها مطلقاً كما تقول القبيلة التي في دمه، وكنت عاشقاً لحوحاً لفتاة حرة ولكنها لن تتزوّجه أيضاً كما تقول المدينة التي في دمها. هكذا تركنا القصة مفتوحة دون تدوين تفاصيلها حتى إذا اضطرم الحب بيننا رمينا باللوم الثقيل على الآباء، وشتمت هي جنوبي المتخلف وشتمت أنا حجازها المتحذلق. أما إذا خفت الحب وتحوّل إلى علاقة باهتة كتلك التي نعيشها اليوم تذكرنا معاً بأنها ربما جاءت أبهت لو كنا تزوّجنا فعلاً.

بالتأكيد كنت أحبها ولكني لم أكن أعرف نوع هذا الحب. أعتقد أني مارست معها نصف أنواعه على الأقل. أحببتها باستخفاف في البداية لأني كنت أظنها سهلة المنال بسبب استجابتها السريعة. فكرت في البداية أن بنات جدة كلهن كذلك ولكن عشرين سنة من الدوران حولها مثل أطواق زحل بخرت هذه الفكرة تماماً. أحببتها

بعد ذلك بصدق عندما استشعرت أنها تحبني بالصدق ذاته، ثم بجدية عندما خدشت قلبها الجديد في ملحقنا بالرياض دون أن أحترم المسافة التي قطعتها من أجلي، ثم أحببتها بالجنون الذي كان قشتي الأخيرة التي أحاول أن أعبر بها المحيط. أحببتها بحنق في أوقات تردّدها المريب ونزواتها الغامضة، ثم أحببتها بحزن عندما بدأت تتحوّل إلى امرأة لا أفهمها. أحببتها بشك عندما صارت تحبني أقل. وعندما رتلت عليّ قرار الغياب تلك الليلة في جدة أحببتها بالغضب المتوقع من عاشق راحت تخلعه حبيبته بأدب.

رميت عليها علبة المناديل التي كانت أمامي ثم المنفضة التي كسرت طرف نابها ثم رحت أركل الأريكة بغضب. عند ذلك قامت هي إلى حيث علقت ملابسي وأخذت عقالي الصوفي الأسود ووضعته في يدي بهدوء وطلبت مني أن أضربها. ثم قرفصت وخبّأت وجهها بين راحتيها. ضربتها مرتين أو ثلاثاً بكل ما مكنتني إياه ذراعي من قوة. ثم جلست بجوارها ورحنا نبكي معاً.

شعرت بأني دخلت في دوامة هلع أبدية وكُتِبت ضمن الضالين في مهمه العشق. تراءت لي صور يائسة في الليالي القليلة التي بكيتها فيها مثل طفل جائع لن يرضعه أحد. وبقيت في حالة الوله حتى انقشعت وحدها مثل جرح سطحي. استيقنت بعد ذلك أن البكاء المرير على عتبة العشرين يشبه بلوغ الفتيان الحلم.. يقشرون الطفولة عن أجسادهم ولكنها تبقى دفينة في زاوية صغيرة من الروح إلى الأبد.

افترقنا فراق الذين لا يتصوّرون ظروفاً أخرى. مرت قرابة السنة

دون أن نلتقي. حاولت جلب امرأة أخرى تساعدني على تخفيف حنقي المتصاعد على قرارها المفاجئ بالتوقف عن الحب ولكن ذلك زادني حنقاً. فهمت بعدها أن المرأة الثانية تعمل في القلب عمل النادبة المستأجرة في المأتم: تقضّ مضاجع الموتى فحسب. أخبرت تلك المرأة ألا تتصل بي مرة أخرى. شتمتني كما يليق بامرأة لم تهاتفني أصلاً إلا لأن صديقاً طلب منها ذلك. هاتفني الصديق النبيل الذي يعير فتياته مؤقتاً للخارجين من علاقات مكسورة فشكرته على ما قدم ورفضت عرضه بتدبير فتاة أطيب قلباً.

انصرفت إلى ملحقي وعمّرته بكل شيء يجعلني مشغولاً من أول النهار إلى آخره. قطعت الطريق المشؤوم بين وسادتي وقلبي فلم يعاودني الأرق بعدها. التحقت بوظيفة مؤقتة في مستشفى حكومي دون علم أبي. كان راتبي يتحوّل إلى تذكرة سفر في اليوم نفسه الذي أقبضه فيه. سافرت إلى مصر وسوريا والمغرب وتونس والبحرين والأردن وتايلند مع أصدقاء قادرين بصخبهم على أن يفرقوا بين المرء وحبيبته حتى انطمست ملامح غادة في قلبي ولم يبق إلا أثر قديم لا يمكن ملاحقته. لاحظ أبي غيابي المتقطع عن المنزل فطلب مني أن أريه جواز سفري. رفضت ذلك فأقسم أن يكلم مسؤولاً يعرفه لمنعي من السفر. توقفت عن السفر لاحقاً، ليس بسبب تهديد أبي ولكن لأني خسرت الوظيفة التي كنت أموّل بها سفري بسبب غيابي المتكرر. اندلعت حرب الخليج بعد ذلك وأصبحت تلك العادة الوليدة غير ممكنة.

وفجأة عادت. وجدت رسالة صوتية منها في جهاز الرد الآلي

الذي انتشر في أسواق الرياض آنذاك واشتريت أحدها وصرت أسجّل فيه ترحيباً غنائياً أغيّره كل ليلة حسب مزاجي العاطفي. وعندما ضغطت زر الاستماع للرسائل اندلع صوتها في الملحق مثل قنبلة حارقة. ميّزت نبرتها الساخرة فوراً بعد سنة من الغياب وهي تعلق على الأغنية الترحيبية لنبيل شعيل «هلي يا قمرة علينا»:

– يا واد يا هووه... مين القمرة دي؟ عايش غراميات وحب والناس في حرب ومشاكل. المهم. كيف أخبارك؟ أنا غادة فاكرني؟ لا تكون نسيتني يا بو الشباب؟ ولا تكون ملخبط في صوتي. أنا مو ليلى ولا عبير. حكلمك مرة ثانية. معليش ما عندي تلفون خاص أعطيك رقمه. بااااي.

قضيت ساعتين في الملحق أعيد رسالتها عدة مرات لعلّي ألتقط منها إشارة ما رغم أني لم أكن أعرف ما هي الإشارة التي أريد. هل كنت أتمنى أن تعود فعلاً؟ وكيف ستعود؟ ومتى؟ هل يجب عليّ أن أستجيب بسهولة أم أتمنع مثل فارس جريح؟ داهمني النوم قبل أن تتصل بي فقرّرت أن أنام في الملحق في انتظار اتصالها. غيّرت الأغنية الترحيبية في الجهاز إلى «قال جاني بعد يومين» لسميرة سعيد. قرابة الفجر رنّ الهاتف مرة أخرى وكانت هي. جاء صوتها هادئاً ورصيناً وكأنها لم تكن الفتاة التي سجلت رسالة ساخرة قبل ساعات قليلة. تحدثت بأسلوب حميم وأخبرتني قصصاً كثيرة.

كنت قد أقنعت نفسي بعد زواجها بأنها كانت طفولة قلبي ولا بد أن أكبر. وبالتأكيد هي ساعدتني على تمكين هذه القناعة عندما عرضت عليّ الجسد الذي نثرت فوقه بذاري الأول لأوسعه ضرباً

وأطفئ كبرياء المراهق الأخير. لم أكن أعرف وقتها أنها كانت تعالج نفسها أيضاً عندما انتزعت مني سبباً تاريخياً يخفف من تأنيب ضميرها إلى الأبد. ولكن عودتها غير المتوقعة بعثرت مشروعاً مرتباً للنسيان ولم أعد أفهم ماذا يتعيّن عليّ فعله.

ثم غابت مرة أخرى!

سبعة أشهر مرت بعد مكالمتها تلك التي قصرناها على بضعة حوارات سخيفة تحاول أن تتدارك ما فاتنا من قصص ثم أنهت المكالمة على وعد أن تتصل بي متى سنحت لها فرصة. زرعت في أذني قبلة دافئة وشهوانية قبل أن ترحل فشعرت بأن المكالمة القادمة ستكون بداية لعهد جديد من علاقتي بامرأة متزوّجة بزوج لا تريده. لم يسعفني ذهني بعد تلك المكالمة سوى بتصورات بسيطة: إنها تفشل في زواجها وتريد أن تتأكد من استطاعتها فتح صفحة جديدة معي.

تأخرت طويلاً تلك المكالمة الثانية فتداخلت تصوراتي مع بعضها في بقعة حمراء وسوداوية مثل كتل اللافا الملتهبة. كلما عدت للملحق ولم أجد رسالة منها في هاتفي ازداد غضبي. يوماً بعد يوم، تراكم هذا الغضب حتى شعرت بأني أربي في صدري وحشاً صغيراً. لم تبق أغنية ذات معنى إلا وضعتها في جهاز الرد الآلي لعلها تعبّر عن شعوري كما هو. أغنيات العتب والغضب والتهديد واليأس والمساومة والاستعطاف والحزن والكراهية والطرد والخضوع والتساؤل تعاقبت كلها على جهازي حتى كاد يفقد عقله. وكان عقلي أيضاً على وشك التفحم في وادٍ من الحيرة والترقب.

طال غيابها شهراً بعد شهر فدبت الحمّى في جسدي بنفس رتم غيابها حتى اشتعلت ولم أعد أفكر جيداً. أوجعني أن لا أتمكن من الوصول إليها متى أردت بينما بوسعها هي أن تدق الأرقام السبعة بسهولة. قررت ذات يوم في غمرة من اليأس والتدخين أن أفتعل كماً من الضوضاء يعكر عليها صفو حياتها. اتصلت بمنزل عائلتها مدّعياً أني موظف في الخطوط السعودية وأطالبها بتأكيد حجز قبل إلغائه ومرة أخرى بأني صاحب محل الزهور الذي تتعامل معه منذ سنوات. وأخيراً استطعت انتزاع رقم منزلها الجديد من خادمة.

اتصلت لترد هي على الفور. عندما سمعت صوتي شعرت بأنها ترتجف. وأنا أرتجف. حتى كأن الأسلاك التي بيننا اتصلت بأعصابنا مباشرة. استمعت إلى كل شتائمها التي استمرّت ثلاث دقائق تقريباً ثم أفرغت شتائمي بدوري. بعد أن انتهت المكالمة استقبلت عدة اتصالات من نساء لا أعرفهن. كلهن مارسن أسلوباً مبتكراً لتهدئتي. عرفت أنها حشدت لي مجموعة من صديقاتها المقربات لتخديري مؤقتاً حتى يتسنّى لها التصرف في هذا الرجل الذي لم يلتزم بدستور الغياب وقرّر أن يصنع فضيحة موقوتة.

لم أخطئ أبداً. كنت أمارس الدور التاريخي بكل دقة. ماذا بوسع العاشق فعله إذا اكتمل القمر غير أن يعوي مثل ذئب جائع؟ ماذا بوسع الجرح المفتوح سوى أن يثعب كل الدماء التي فيه قبل أن ينكفئ على نفسه ويتخثر؟ ماذا بوسع الأغنيات المتراكمة في جهاز الرد الآلي سوى أن تتحوّل إلى أشباح راقصة تتخاطر على ذهني بإرهاق حتى تتحول إلى قرار ما؟

اتصلت بي أخيراً بعد عدة ساعات. بدا حوارنا ثقيلاً ومرتبكاً وكأننا خصمان في محكمة أجبرا على انتظار الجلسة في غرفة واحدة. أخبرتني أنها ستسافر لزواج إحدى قريباتها في القاهرة بعد غد ثم تعود لجدة وبوسعنا أن نلتقي. كنت مستسلماً إلى حد أني لا أستطيع أن أتصوّر حيلة ما تدبّرها لي. أغلقت الهاتف بعد أقل من ربع ساعة من الحديث واتصلت بوكالة السفر لأحجز مقعداً في طائرة الغد إلى جدة.

فكرت في ما يمكن أن يحدث في لقائنا المرتقب. كنت واثقاً بأنها تعد لي كلاماً يشبه مباضع الجراحين سيفتح قلبي ويخرجها منه إلى الأبد. قررت وأنا أتأمل طبقات السحاب من نافذة الطائرة المزدحمة ألا أمنعها من ذلك. سأكون شاكراً لها لو أعادتني إلى ما كنت عليه من قبل: شاباً مشغولاً في ملحق. هكذا ولجت مطار جدة مثل مريض يلج المستشفى متأهباً لتلك الجراحة المرتقبة. كنت مقتنعاً بمسؤوليتي تجاه كل ما يحدث كرجل بدأ يستعيد وعيه على مهل.

ولكنها خالفت كل توقعاتي.. كعادتها. الفتاة التي كنت أظنها ستوقع معي معاهدة الفراق الأخير في غرفة فندق حزينة بجدة انغمست فيّ كما لم تنغمس امرأة من قبل. اقتحمت الغرفة مثل راقصة غجرية وعاملتني كما لو كنت باروناً صقليّاً. كبّلتني الحيرة وأنا محبوس بين أطراف سرير تسكنه نمرة مجنونة. لم أكن أتوقع على الإطلاق أن تزيد غادة من تعقيد العلاقة بهذا الجنس المحموم ولا أن تدخل بنا منعطفاً جديداً يزيد طريق العودة وعورة وغموضاً.

لم أفهم ما الذي ترمي إليه. فكرت أنها ربما ظنتني سأقنع منها بالعشاء الأخير وأكتفي أو ربما تحاول أن تقلب الأدوار إذا صارت هي التي تريد وأنا الذي أتمنع، فأزهد فيها تدريجاً. لم أفهم. جئت لأتفاوض على الخلاص من قصة حب مرتبكة وجاءت هي لتنسج حولي خيوطاً لزجة بامتداد جسدي كله.

- ايش هذا كله يا بنت؟!
- اشتقت إليك!
- لم أتوقع أن يحدث هذا أبداً!
- سيحدث دائماً...
- لماذا؟ هل أنتِ موشكة على الطلاق؟
- ياشيخ فال الله ولا فالك. زوجي لا يعيبه شيء...
- هل تحبينه؟
- أحبه؟ همم... نعم. أظنني كذلك...

قالت ذلك بخجل مصطنع وكأن الذي سألها هو أبوها وليس عشيقاً عاري الصدر ما زال يحتضنها. بعد ثوان من الصمت فرّت من السرير وراحت ترتب شعرها بشكل روتيني ثم تكلمت وهي تنظر إليّ عبر المرآة:

- أنا أحتاج إليكما معاً.

ضحكتُ بعصبية، وقلت:

- لماذا؟ هل هو عاجز جنسياً؟

وأتذكر كيف رنّت ضحكة غادة في الغرفة قبل أن تجيبني بهدوء قاتل:

- أنا حامل في شهري الثاني يا عزيزي!

مرت أشهر وأنا أقلب شؤون تلك الليلة في ذهني قبل أن أفهم أنها ربما كانت أذكى امرأة سأحبّها في حياتي أو أكثرهنّ وقاحة وهي تقرّر بسهولة أن تقسم نفسها بين رجلين وكأن قوانين الكون قابلة للتفاوض. اشتعل هذا السؤال في رأسي بضعة أشهر قبل أن أطفئه بالتجاهل. فكرت في ليلة موؤودة الفجر أن نصف امرأة أفضل بكثير من الترنّح حنيناً في شوارع الرياض. نصف امرأة تحل في موسم الصيف خير من أربعة مواسم قاحلة إلا من أشباح نساء. نصف امرأة في جيب رجل يحتقره أبوه وتكرهه أمه ويتجاهله إخوته خير من التحوّل سنة بعد سنة إلى أحفورة أثرية في ملحق من ملاحق المدينة.

ولكنّي تبيّنت على مر السنين أن غادة لم تكن تقسم نفسها بين رجلين بقدر ما خلقت من نفسها امرأة جديدة تعيش كل منهما حياةً مختلفة. هذه المرأة الجديدة هي التي بقيت على وصالها تسعة عشر عاماً، وهي التي قالت لي ذات يوم إن لعبة الحب لن تجعلها سعيدة، وهي التي صيّرت وجهي مألوفاً في الفنادق والمطارات والمقاهي المنعزلة، وهي التي جعلت كونرادو يسخر مني وينظر إليّ كعشيق يُساءُ استغلاله، وهي التي نبّهني فيصل بعينين صادقتين من احتمال أن تكون قد دسّت لي عملاً سحرياً في أعماق البحر.

نقلت لها كل ما قالاه عنها ولم يبدُ أنها تأثرت بتلك الإهانات. تمنيت أن تغضب ولكنها لم تفعل. تعرف جيداً أن العتبى والرضى

لعبتان عاطفيتان قد تنزلقان بنا مرة أخرى إلى عمق البئر مباشرة. ولذلك تحذر من أن نتصادم، فنغضب، فنتخاصم، فنشتاق، فنعتذر، فيتاح بذلك لشرارة صغيرة من العاطفة أن تتسلل من نافذة هذا الاعتذار إلى قلبينا المصمتين.

٢٦

عدت إلى شقتي نشوانَ وعلى حافة السكر. لاحظت أن كلبة كونرادو ألفتني أخيراً ولم تعد تفاجئني بالنباح العالي الذي أعجب عندما يصدر من كلبة ضئيلة مثلها. رمادية وطويلة الشعر شديدة العصبية وجبانة ولا تحمل أيّ صفة نبيلة للكلاب. حتى أنفها احتاج إلى أسبوع ليألف رائحتي ويعرف أني جار جديد يخرج كل يوم من شقته ويعود بعد حين وليس كلباً شبقاً يترصّدها.

مررت بجوارها وهي تراقبني بصمت. جمعت فواتيري وبريدي من صندوق البريد ودلفت إلى شقتي وأنا أشم رائحة نفاذة. في حلكة الشقة لمحت دائرة حمراء متوهجة في داخلها دائرة أصغر أكثر توهجاً ثم دائرة أصغر. ضربت جبيني بكفي متمتماً بكلمة إنجليزية نابية أحاول تعوّدها منذ أتيت وهرعت إلى الموقد المنسي لأطفئه فوراً. توقعت أنها تنطفىء وحدها إذا ظلت موقدة لوقت طويل ولكن لا أحد يخترع ما يناسبني. سبع ساعات منذ تركت شقتي في الصباح وهذا الموقد الكهربائي يبدّد حرارته في الشقة الخالية.

طفحت قهوتي العربية من الدلة التي فوقه وتبخرت تدريجاً تاركة خيوطاً من الحثل والبن الأشقر الميت على ردفي الدلة وكتفيها.

داهمني قلق وخوف وأنا أنظف الموقد من بقايا البن المحترق بصعوبة. ماذا لو احترقت الشقة قبل أن أوقع بوليصة تأمين مناسبة؟ هل بوسعي أن أعتمد على نفسي بقية العمر بعد ما دمت أنسى إطفاء المواقد وشراء بوالص التأمين ولا أعرف الفرق بين الهدف والرغبة؟ كم أخشى أن أكون قد تسرّعت في قدومي إلى هنا.

ابتسمت محاولاً الاقتناع بأن الأمر كاريكاتوري ولا يستحق اللوم الذاتي. ولكني أشعر أحياناً بأني رحلت إلى بلد لا أعرف كيف أعيش فيه وحدي. رغم التخطيط البائس وعشرات الأوراق والحسابات الدقيقة التي حاولت بها أن أكتب خطة متقنة لهزيمة القدر. كنت أزعم أني أستطيع تقطير السعادة في دورق مثل كيمائيّ مجنون والآن سأحتاج أن أقضي ساعة أخرى صباح الغد لأصنع دلة قهوة جديدة.

رميت الدلة في حوض المطبخ وقررت أن أكمل تنظيف المكان لاحقاً. أما الآن فيجب أن أخرج مرة أخرى لأطفئ في مكان ما فتيل القلق الذي اشتعل. رائحة الشقة أشبه بمحل حدادة مكتوم وفي داخلي أزيز يشي بالصداع الذي تسبّبه حالة انتباه مفاجأة في غمرة سكر. دخلت حمامي وتأملت ذقني النابتة في المرآة وقرّرت أنها لا يمكن أن تذهب معي إلى أي مكان. أخرجت أدوات الحلاقة وصففتها أمامي وكأني أشاهدها لأول مرة. دهنت ذقني بكريم مرطب ثم غسلته ثم دهنته مرة أخرى بكريم آخر ثم غسلته، ثم

طمسته وراء رغوة الحلاقة الكثيفة وأنا أتمنى ألا تخذلني بشرتي هذه المرة.

ليس في بورتلاند حلاق يقبل أن يحلق وجهي. تردّدت على أكثر من محل فرفضوا جميعاً وكأني أطلب منهم إجراء عملية جراحية صعبة. شعرت بالامتنان تجاه حلاقي في الرياض. سأكتب له رسالة أشكره فيها على جهوده طيلة سنوات من التفاوض مع ذقني حتى صار يعرف موضع كل شعرة فيها ويستطيع التنبؤ بسلوكها في النمو والاستطالة.

«إلى الحلاق المحترم / مخلص قانوني. ما زال اسم عائلتك يثير الضحك يا عزيزي. المهم. أعترف لك بالفضل وأشكر لك جهودك المخلصة في تخليصي من شعر وجهي طيلة سنوات. أنت لست حلاقاً يا مخلص... أنت جنرال. لم تتوان أبداً عن قمع ثورات الشعر كلما تجاوزت منابتها وطفت على السطح. موسك لا يرحم المتمردين والخارجين عن قانون البشرة. أتمنى أن تنتهي مشاكلك المتزايدة مع كفيلك وأن تسمح لك القوانين الجديدة التي أقرأ عنها في الصحف بأن تمتلك المحل وتصبح مستثمراً أجنبياً يساعدنا على مقاومة قوانين الطبيعة التي تعاندنا في عقر وجوهنا!

غالب - بورتلاند»

جنسيته التركية ليست من الجنسيات التي تدخل أميركا بسهولة وإلا كنت جلبته مع بقية أدواتي الأخرى رغم أن علاقتي معه ليست

عميقة إلى حد التضحية ولست إلا زبوناً وفياً وهو حلاق قنوع. الحقيقة أنه الشخص الوحيد الذي صنعت معه أطول علاقة إنسانية لم تنقطع بعد. حتى عائلتي نفسها كنت أقطع علاقتي بهم من حين لآخر. الأكثر إثارة للإعجاب أنها علاقة صافية لم يعكرها شيء أبداً، لا مشكلة ولا جدل ولا حتى اختلاف عابر في وجهات النظر. شخص يحفظ وجهي منذ أكثر من عشر سنين كيف لا أجلبه معي عندما أهاجر؟ لو كنت متزوجاً لجلبت زوجتي. لو كنت أباً لكان أطفالي يرهقون كاهلي أينما ذهبت. كيف نصطحب الناس الذي يرهقوننا ولا نصطحب الذين يساعدوننا على الحياة بوجوه نظيفة؟

حالما تستقر أموري في أميركا سأجلبك إلى هنا يا عزيزي مخلص. سأفعل المستحيل حتى أساعدك على هجرة مرتبة ولو منحتك خمسة في المئة من أموالي. ستكفيني البقية لعدة سنوات دون عمل حسبما تقول آلتي الحاسبة شرط أن أنفق بتدبّر أو يتفاقم مرض أبي. ولكن حتى ذلك الحين عليّ أن أتعلم أبجدية الحلاقة الذاتية التي حرمني محلك الصغير من تعلمها.

لا يبدو الأمر مسلياً ولكني عازم على تجاوز هذه المعضلة. سأعقد اتفاقاً مع حلاق ما في مكان ما من المدينة في أحد أيامي اللانهائية القادمة. العلاقات الشخصية أهم عوامل النجاح في المجتمعات الحيوية وأنا أملك مهارات كافية لأكون عمدة بورتلاند يوماً ما. سينتخبني نفر من الناس ولا ريب شرط ألا تخذلني بشرتي الآن.

حالما جففت وجهي كانت هالات وردية صغيرة قد بدأت تطفو

على سطحها فعلاً. تصاعد القلق في داخلي مرة أخرى. إذا كانت بشرة وجهي حسّاسة إلى هذا الحد فلماذا أهاجر؟ حتى جلدي الملتصق بي منذ ولدت يخذلني بلا توقف. كيف أهاجر من جلدي وأتحوّل إلى قطعة لحم هاربة؟ يلعن الله جلدك ووجهك يا غالب. حتى جيناتك خربة وسيئة الصنع.

عدلت عن الخروج بهذه الوجه الملتهب وقررت أن أفتح علبة بيرة وأحتفظ ببقايا نشوة السكر التي في رأسي بعد أن تشتتت قليلاً بفعل الدلة المحترقة والحلاقة السيئة. فتحت الشباك لتهوية الشقة من رائحة البن المحترق وفكرت أن أطلب بيتزا وأستلقي على الأريكة وأتفرج على التلفزيون وأخلق ليلة أميركية كسولة. سرعة التأقلم عامل آخر من عوامل النجاح في المجتمعات الحيوية. طلبت البيتزا فعلاً دون أن أبالي بالحسابات التي أجريتها قبل أيام وثبت لي بعدها أن البيتزا صفقة خاسرة دائماً. اثنان وعشرون دولاراً قسمة ثماني شرائح تساوي دولارين وخمسة وسبعين سنتاً قيمة كل شريحة من العجين المضمخ بالصلصة والخضار الميتة، سآكل منها أربعاً وأبقي أربعاً للغد. هذا يعني أن عشاء كل ليلة يكلفني أحد عشر دولاراً، وهو مبلغ يكفي لشراء وجبتين من ماكدونالدز. وفي الرياض يكفي لثلاثة عشر شاورما تكفيني أربعة أيام من العشاء الهانئ في فيلتي التي تحمّلت نزوات فريق كامل من أشقياء الرياض طيلة سنوات، لا تكاد الفيلا تزف أحدهم إلى الرشد والتعقل حتى يعوّض البقية فراغه بالتدخين والغناء والبلوت والأفلام الجنسية.

كان هذا قبل أن يغيبوا تباعاً عن الحضور ولا يبقى في الفيلا إلا أنا وداود وفيصل.

– هلو. كان آي أوردر بيتزا بليز؟

– ....

– ميديوم.

– ....

– فيجيتيريان. أونلي فيجتابل.

– ....

– يس ذات إز ماي آدريس.

– ....

– ثانكيو. ثانكييييو.

لا أعرف ما الذي انتهى إليه داود هذه الأيام. تركت الرياض وهو قائم عند سرير والدته التي تغسل كليتيها بانتظام في المستشفى العسكري بعد أن فشلت كليتاها تباعاً ثم الكلية الثالثة التي تبرّع بها داود ولم تلبث أن ذوت في جنبها بعد سنتين وفشلت هي الأخرى. لا بد أن أكتب رسالة أخرى إلى داود لأطمئن عليه هو الآخر.

«خالي العزيز داود، يا لك من نديم وفيّ. لونك الأسود ليس إلا انعكاساً فوتوغرافياً لبياض شاسع يملأ داخلك. وأنا أحبّك ولا أعرف ما أقوله لك أكثر من ذلك في هذه الرسالة التي لن تصلك لأنك لا تملك صندوق بريد، وبالتأكيد لا تملك بريداً إلكترونياً، ولكني سأدسّها في يدك متى التقينا يوماً ما. كن باراً بأمّك ولا

تسمّمها بكليتك الثانية أبداً. أخبرني إذا ما احتجت إلى مساعدة ما وضاقت بك السبل..

غالب - بورتلاند»

أغلقت الستائر ووصلت التلفزيون بسماعات إضافية حتى أشعر بالاحتواء. تأملت ذقني في المرآة مرة أخرى فوجدت بضع هضبات وردية صغيرة قد تكوّنت فعلاً وأصبحت بشرتي مثل سطح المريخ. راودتني فكرة أن أطلق لحيتي لتلتقي مع بقية شعر جسدي فأتحول إلى قندس حقيقي ثم أهجر شقتي وأقفز في النهر بحثاً عن عائلة وسد.

وصلت البيتزا وبدأت بأمركة ليلتي ببطء. جلست على الكرسي المواجه للتلفزيون تماماً ورحت أمضغ عشائي وأقلب في القنوات بحثاً عن مباراة كرة سلة أو كرة قدم أو حتى بيسبول. أي شيء أميركي يناسب مزاجي المخطط بالأحمر والأزرق هذه الليلة أو الذي أحاول تمويهه بذلك حتى ينسى ذكريات الرياض الشقية، ورسائل غادة المتأخرة، ودلة القهوة المحترقة، وأم داود المريضة، وكبد أبي المستقيلة، وسرطان أمي الشرس، وأبناء بدرية المنغوليين، وكرش باسل المتضخمة، وعشاق منى الملاعين، وزوج نورة المقلاة.

أعرف أني حزين ولكني أعرف أيضاً أن عينيّ الآن مستديرتان مثل أغطية المشروبات الغازية وبشرتي طافحة بالبثور الوردية، والبيرة

المتراكمة في دمي منذ ساعات تخدّر أعصابي، وأنا منزو وحدي في آخر شقة في آخر حيّ في آخر ولاية. لا يراني إلا كونانً أوبرين الذي بدأ وصلته الليلية فعلاً. ولكني اتفقت مع الروح المضطربة ذات المشاريع المؤقتة على أن هذا الرحيل مشروع لا يمكن رهنه بالظنون. سأستمر فيه دون أن أستسلم حتى أسقط أخيراً أو أعيش سعيداً.

أكاد أقسم إن كونان أوبرين مهما بدا مبتهجاً وضاحكاً فهو مثلي تماماً... في صدره مزرعة من الحزن لم يحرثها أحد. سيرته لا تقول شيئاً وأنا لا أحتاج إلى أن أقرأ سيرته حتى أتثبّت من حدسي. لا أحد يشم رائحة الحزانى والخائفين مثلي. يبدو في الأربعينات. ربما يكبرني بعام أو عامين، ولم يغامر بالرحيل مثلي، ولكن لا أظن ألفته مع المكان قد شفعت له إلا تدبير هذه الضحكات المستأجرة التي يجني من وراءها الملايين.

ربما يجب أن أكتب له رسالة أيضاً. كل ما يصله من رسائل المعجبين تخاطب وجهه الضاحك ولا أعتقد أن أحداً قد خاطب قلبه الباكي. ربما سيدهشه أن شخصاً مثلي اكتشف أحزانه. ربما أزعجه ذلك وعبّر عن انزعاجه بواحدة من نكاته ليلة ما فلا يفهم فحواها من الملايين الذين يشاهدونه غيري.

«عزيزي كونان، أنا لا أتقن الإنجليزية ولا أعتقد أنه سيعجزك أن تجد مترجماً عربياً لرسالتي. أنت حزين يا رجل. أعرف هذا. ربما أنت خلقت لشأن آخر غير صناعة النكات ودغدغة الناس. ربما أنت أمّنت مستقبلك مبكراً فانصرفت لصناديق ماضيك. ربما أنت تعيش

في قفص من الزجاج الباهر يراك فيه الناس ولا يلمسونك. كل هذه الأشياء ممكنة. لن أستغرب إذا رأيتك يوماً عند بابي. سأستمع إلى ما تقول بأذني صديق. لا تتردّد.

غالب - بورتلاند»

على الملاعين الذين يبيعونني صناديق البيرة أن يبيعوا معها أوراقاً ومظاريف. لا تطرأ هذه الرسائل على ذهني إلا في هذه الحالة المتأرجحة بين الصحو والسكر. وغالباً ما يكتبها ذهني وتعصيني يدي وأنساها غداً.

٢٧

اغتلنا الحب معاً ثم رقصنا على جثته في كل مدن العالم. دبّرت غادة هذا الاغتيال الأنيق ثم ذلك التأبين الغريب بمهارة بالغة: «أنا، يا غالب، يا عزيزي، يا نور عيني، باختصاااااار.. بغضّ النظر عنك وعن هيئتك ومستواك وشخصك... لا أعتقد أن لعبة الحب ستجعلني سعيدة». ثم أغلقت الباب وراء صوتها سنة كاملة قبل أن تعود فجأة وكأنها قضت تلك السنة في عالم العجائب وتحوّلت إلى امرأة مسحورة بلا موقف.

ظلت نبرتها تلك وهي تنطق الجملة بشكل متقطع مقصود ترنّ في أذني كل صباح على مر السنوات. حفظتها في دماغي مثل الفورمالين السائل وما زلت أذكرها بالنبرة التي نطقتها بها يوم كانت في العشرين من عمرها، بصوتها الدقيق الذي يشبه صرير قطعتين من البلاستيك محشورتين في بعضهما، وأظفارها المقضومة حتى لم يبق من أحدها سوى شبه ظفر، وعينيها الذكيتين اللتين تتحركان من اليمين إلى اليسار بحركة لا إرادية كلما همت بالكلام. طالما

بدت بهيئتها تلك شديدة الطموح حد أنها عندما تمشي تبدو كأنها تهرول وعندما تتكلم تتصاعد نبرتها لاإرادياً مثل العد التنازلي لإطلاق صاروخ صغير.

الآن اكتسب صوتها أنوثة أعمق مثلما اكتسب جسمها وزناً إضافياً. استدار وجهها الذي لم أكن أظنّه سيستدير أبداً لفرط ما كانت ملامحه القديمة حادة وصقيلة. استطالت أظافرها بعد أن توقفت عن قضمها واكتست ألواناً وزخارف بالغة الدقة. وتناعست عيناها حتى صارتا تتحدثان نيابة عنها في كثير من الحالات. وبدا لي بمرور الأعوام أن جميع الصواريخ انطلقت فعلاً وتحوّلت غادة إلى قاعدة إطلاق قديمة هادئة ورزينة.

كان جسمها أجمل قبل عشرين سنة ولكنّ وجهها أجمل الآن. وكان سلوكها معي أفضل عندما كنا يافعين في نقطة الصفر حتى إذا تحوّلت إلى زوجة دبلوماسي يظهر أحياناً في الأخبار والصحف، وتحوّلت أنا إلى حامل شهادة ثانوية يطعم القنادس تمراً في بورتلاند، تغيّر هذا السلوك كما لا بد له أن يتغيّر. ولكنّه تغيّر بطيء، حدث دون أن أشعر، مثل انتشار نقطة حبر في بركة ماء صغيرة.

بكيت بعد الحب قليلاً ثم نسيته كما طلبت مني. أما هي فلم تبك مثلما أنها لم تنس. ظلت قاتلة طيبة تعتني بقبر ضحيتها بلا ملل. لا تريد أن تبعثه من موته فتتورّط به ولا تريد أن تنطمس معالم القبر فتأسى عليه. شعلة مجوسية لا تنطفئ أبداً ولا تحرق المعبد. حاولت طيلة هذه السنوات من خلال سلوكها الموارب في لقاءاتنا وعباراتها المدسوسة في حواراتنا أن تقول لي بمواربة: «لا تحبّني

أرجوك.. ولكن ابق دائماً على قناعة بأني امرأة تستحق الحب!».

منعت الحب من المثول في حضرتنا وهشّته بقسوة ولكنها لم تنفه خارج الأسوار نفياً أبدياً. تفر من علاماته الواضحة وتتمسّك بجذوره العميقة. لا تفرح لباقة ورد أبعثها إليها في عيد ميلادها السابع والثلاثين، والثامن والثلاثين، والتاسع والثلاثين، بقدر ما تشكر لي إنجازي معاملة حكومية بسيطة لها لا تريد أن يعرف عنها زوجها. الرموز التي تذكرها بحالة الحب التي جمعتنا من قبل تربكها كثيراً وتمنعها من تقبيل أطفالها كما يجب واستقبال زوجها كما يليق.

كانت تريد أن تعيش سليمة من الانفصامات، ومن أجل ذلك قطعتني أنا من المنتصف. لا تريد أن تبدو مبتذلة وبلا أخلاق في علاقتها معي ولا تريد أن تشعل بيننا حباً لا تؤمن بكماله ولا تملك تضحيةً كافيةً له. بدا ذلك معقولاً ومقنعاً ما دام أحد غيرنا لن يشهد على ما أشهده ولن يطالبها بتبرير. فهمت ذلك الجانب من شخصيتها ولم أحاول التصادم معه منذ أن عادت لمهاتفتي تلك الليلة المخيفة في الملحق حتى هاتفتني ذلك اليوم على ضفة ويلامت. وبيننا عشرات الأرقام التي تغيّرت، والدول التي تعاقبت، والظروف التي تبدّلت، والسنوات التي جففتنا في أصصها مثل أعشاب نادرة. كل هذا مرّ علينا غير أن سطراً من ذلك الميثاق الغبي لم تخالفه أكثر تصرفاتنا رعونة وأقصى حالاتنا تمرداً. أربعة قوانين كبرى: لا ينبغي أن نحب. لا ينبغي أن نفترق. لا ينبغي أن نختلف على ماهية العلاقة. ولا ينبغي أن

نستورد تعريفاً لها من أي مكان خارج الحيّز السري الذي نفكر فيه وحدنا فقط.

عندما اضطجعت جوارها ذات ليلة في باريس، حنت ساقها فاتخذ الغطاء الذي كنا نلتحف به شكل خيمة صغيرة جداً، ثم رفعت طرفه حتى حوى رأسينا معاً في ظلام دامس فبدونا مثل طفلين يلعبان في بيت من الوسائد. حرّكت يدها في الفراغ الصغير المحتبس بين جسدينا والغطاء وهمست لي برفق: «هنا نحن وحدنا. ووحدنا نقرّر ما نفعل». لم أكن أعرف أيّ فيلم شاهدته وقرّرت أن تطبقه على قصتنا ولكني كنت ممثلاً متعاوناً وقليل المطالب. ربما ساعدني على ذلك تباعد لقاءاتنا صيفاً بعد صيف. لو أنا بقينا قريبين من بعضنا لظل الحب يكبر حتى يتحوّل إلى عملاق ساذج، ولو افترقنا تماماً لجف الحطب المتكوّم في قلبينا وصار اشتعاله سهلاً.

لم أكن أنا ولا هي نريد أن نكون مجرد ضحيتين أخريين للحب.. ولا فريستين سهلتين للحزن أيضاً. تسعة عشر عاماً ونحن نمارس هذه المناورات على الحب وهو دائخ بيننا مثل شعب متعب. لم يستطع أن يجمع بيننا ولا أن ينقلب علينا ولا حتى أن يجمع حوائجه ويرحل. كلما التقينا في مدينة غريبة أطفأنا له ثورة وأعدناه إلى أول السطر. تراجع هذا الحب من المتن إلى الهامش في مؤامرة حكناها معاً. وبدلاً من أن يظل سيد هذه العلاقة المترهلة جردناه من حقوقه التاريخية تدريجاً حتى تحوّل إلى مجرد سبب أدّى إلى تعارفنا لا أكثر من ذلك ولا أقل. مثله مثل اجتماعات العمل، ومصادفات الانترنت، ومعارض الكتاب، وعثرات المشاة، ومقاعد الطائرات

المتجاورة، ونوافذ الشقق المفتوحة. لم نعد نعشق لأننا قرّرنا ذلك أو تفادينا مبكراً أن تغرينا هذه المعركة بخوضها. ولو خضناها وانهزمنا خرجنا حزانى، ولو انتصرنا خرجنا منهكين.

هي التي كشفت هذه المعادلة الحكيمة مبكراً وأنا الذي صادقت عليها دون اختيار ثم اقتنعت بها تدريجاً. كان صعباً أن نتفق على قرار كهذا ولكن الأصعب أن نبقى متفقين عليه طيلة هذه السنوات دون أن نضطر إلى الاستعانة بعوامل قهرية كالفراق لتجبرنا على النسيان. ولا أدري كيف فعلناها دون أن تنقطع أنفاسنا؟ يبدو أن المناكفة بعد الحب هي التي تمنع مشاعرنا من التكتل في عروقنا مثل جلطة دموية، أو لعلنا مارسنا ذلك طيلة سنوات حتى احترفنا الأمر وصرنا أقدر على التحكم في أمزجتنا وتقلباتها.

منذ أن انعقد طريقانا مثل حبلي صوف، فلم نعد نملك أن نلتقي ولا حتى أن نفترق، عرفنا أنها علاقة من تلك التي لم يتقن الحب صنعها، ولم يعرف كيف يتخلص منها، فترك الأمر لنا.. وانصرف. ولم يمض وقت طويل حتى تعلمنا أنه إذا أردنا أن نخنق حباً قديماً، فعلينا أن نسخر منه باستمرار!

٢٨

- بدأ صبياً حتى تعلم السياقة، وأصبح سائقاً.

ساقته الأقدار من قريتنا إلى الرياض ليخبرني ما لم أعرفه عن أبي من قبل. جاء للعلاج كعادة سكان القرى عندما يقصدون العاصمة واستضافه أبي في بيتنا كعادته مع عابري السبيل من الأقارب. لم يكن أبي يلتقيه إلا في مواعيد الطعام الرسمية بينما أقضي أنا معه أغلب الوقت. آخذه إلى مستشفى الشميسي وأعود به في مواعيد متفرقة إلى واحدة من غرف الضيافة في البيت. عندما أيقن أبي أني لن أكون يوماً مساعد رجل أعمال كما يريدني قرّر أن يجعلني مسؤول ضيافة على الأقل، يسند إليه مثل هذه الأعمال الاجتماعية التافهة والشؤون المنزلية اليومية أو أي عمل آخر يقنعه جزئياً بأن إنجابه لي لم يكن استثماراً فاشلاً.

بدأ ثابت يحكي لي عن أبي الكثير أثناء صحبتي إياه من البيت إلى المستشفى دون أن أسأله ذلك. شعرت حينها بأني وقعت على كنز صغير من حيث لم أحتسب وفي وقت حرج من بحث التخرّج

الذي لم يكتمل قط بعد أن تركت الجامعة ولم أعد إليها أبداً. كنت طالباً في قسم علم الاجتماع بجامعة الملك سعود واقترح عليّ الدكتور أن أكتب بحثاً عن الآثار الاجتماعية على العائلات القروية النازحة إلى المدن الكبرى. كان ذلك الموضوع هو آخر ما وافقت الدكتور عليه قبل أن أدخل معه في سلسلة من الخلافات والشجارات أدّت أخيراً إلى فصلي من الجامعة.

– صبي يا عم ثابت؟!

– نعم.

– ماذا يفعل بالتحديد؟

– يكنس أفنية الدار، يساعد المزارع والطباخ، يقف على الباب للحراسة، يصب القهوة أحياناً في المناسبات الكبيرة. العمل ليس عيباً.

– ولكن الذي أعرفه انه جاء للرياض وهو كبير.

– في القصور يا ولدي العامل الصغير والكبير كلاهما يدعى صبي.

– وكم ظل يعمل عندهم؟

– لا أدري ولكنه سرعان ما ارتقى. هذا ما أتذكره أثناء إقامتي الأولى في الرياض سنة واحدة عملت خلالها مزارعاً قبل أن أعود إلى القرية، وعندما زرت الرياض ثانية بعد سنة مع ولدي الأكبر لأبحث له عن عمل وجدت أباك يعمل في وظيفة لها مكتب.

في السيارة ظل يحدّق في الطريق بعينين ضعيفتين ووجه مسكون بالضجر والقلق معاً. ظننت أنه لم ينم جيداً فرحت أقود

بهدوء وبطء لعله يغفو قليلاً. يده تتشبّث بالمقبض العلوي وكأننا سنهوي بالسيارة من عل بينما الأخرى تستند إلى فخذه وتتحرك سبابتها كل برهة إلى الأعلى دلالة تسبيح ودعاء يتمتم به بلا توقف. قطعنا ثلثي الطريق وعندما اقترب شارع المعذر من نهايته كنا نمر من حيّ الناصرية. بدأت ألاحظ التفاتاته يمنة ويسرة.

– هذي الناصرية؟

– نعم.

– أبوك كان يسكن هنا. الله يسقي.

– أذكر هذا يا عم ثابت.

– وأنا زرتكم هنا أكثر من مرة.

– متى؟

– قبل أن تولد.

ثم ابتسم ابتسامة مائلة وقال:

– أيام ما كان: أبو بدرية!

طفحت على سطح ذهني أسئلة عديدة ولكني قرّرت تأجيلها ونحن على وشك الوصول ولا أريد أن ينقطع حديثنا. ولجنا إلى غرفة انتظار مزدحمة ومليئة بالأجانب. كان يبدو جلياً أن انتظارنا سيطول ساعة على الأقل ولم يكن المكان مريحاً. خرجت إلى الممر وحدّثت أحد الموظفين أن المريض يحتاج غرفة هادئة ينتظر فيها. كانت نبرتي التي جعلتها متعالية عمداً ومفتاح سيارتي الضخم وهو يتدلى من يدي مقنعة بما يكفي لينقلنا الموظف إلى غرفة صغيرة جانبية ننتظر فيها بهدوء.

فتحت جهاز تسجيل حملته معي مذ صارت الحكايات أغزر وطرحت أسئلتي تباعاً. أطرق ثابت قليلاً ثم أغمض عينيه وكأنه يخلطها أسئلتي جميعاً خلف جبينه قبل أن يحكي بروية:

«أتيت الرياض في عهد متحول مختلف لأبحث عن عمل في سوق الرياض بدلاً من سوق القرية الصغير الذي لم يعد ينفع بشيء. لم أكن أعرف أحداً فيها غير أبيك. قصدت الناصرية مباشرة حيث يقيم وكان الوضع يبدو غريباً ومضطرباً وأنا لا أعرف أحداً أسرق من فمه خبراً أو تفسيراً لما يحدث وأراه أمامي. كان الجنود يملأون الشوارع ويتحركون بدأب غدواً ورواحاً مسلحين ببنادق حديثة. وفي أحد الشوارع الرئيسية رأيت دبابة. أول دبابة أراها في حياتي، بينما راحت تمرق بين الفينة والأخرى طائرات صاخبة الصوت. بدت الناصرية كثكنة عسكرية. لم أجرؤ أن أسأل أحداً من الذين استوقفتهم عما يحدث واكتفيت بسؤالهم عن عنوان أبيك. قرّرت أن أؤجل دهشتي حتى ألقيها بين يدي من أثق به. وصلت أخيراً إلى بيته وطرقت الباب فلم يجب أحد. تعالت طرقاتي اليائسة فاقترب مني أحد الجنود الذين كانوا يمشطون الشارع وسألني بتودّد:

– من تريد يا أخي؟

– قريبي، عبد الرحمن الوجزي، أظن هذا بيته.

– الرجل حمل زوجته والطفلة في سيارة بيضاء وخرج من الحيّ ولم يعد منذ يومين.

– إلى أين؟

– لا أدري. اسأل جيرانه.

طرقت باب الجار القريب لأسأل. أخبرتني زوجته من وراء الباب أن عبد الرحمن الوجزي ذهب إلى بيت صديق له في المربع يدعى بن بريم. لم أكن أعرف عنوانه ولم أجرؤ أن أذهب إلى المربع لأفتش عن بيت رجل لا أعرف إلا اسمه. قررت أن أبيت في المسجد. طرقت باب الجار مرة أخرى وناشدت المرأة أن تخبر أهل الوجزي بأني أتيت وسأصلي كل الأوقات في المسجد فليوافني هناك إذا رجع.

حتى الآن لم أكن أدري ما الذي يحدث. اتجهت للمسجد وكان الوقت ظهراً بينما لم يحن وقت الصلاة بعد. جلست أريح ظهري المتعب في باحة المسجد الذي لم تزل أجزاء منه مبنية بالطين وأنا أدعو الله أن ييسّر أمري ويثبّت قلبي. كان أبوك قد سبقنا إلى الرياض قبل ذلك العهد بعدة سنوات بعد انتهاء عزاء جدّتك الطيبة التي ماتت وهي تشتكي من بطنها وتركت عمّتك فاطمة وهي صغيرة في رعاية خالها. لا أتذكر أني ودعته حين سافر لذلك لم أثق بأنه سيحسن استقبالي وأنا هنا. الجميع قالوا إنه رحل على عجل في سيارات حكومية توسّط له خاله بمقعد فيها ليلتحق بالعمل في إحدى وظائف الحكومة التي فتحت أبوابها للكتبة والجنود.

بعد أن فرغنا من الصلاة وجدته فجأة يشد ذراعي من الخلف ثم يسلم عليّ سلاماً حميماً ويقبّل أنفي. كان شديد الحماسة لمرآي وعلى ملامحه علامات انتظار طالت لأي رائحة من القرية تعيد له ثقته وإباءه الذي لا ريب خدشته المدينة كثيراً. سألني عن العشرات من أهل القرية بأسمائهم واستحلفني كثيراً أن يساعدني فيما أنا هنا من

أجله. لم أخبره بذلك لأني كنت أشك في قدرته على المساعدة. كان يافعاً وأنا أكبره بعدة سنوات. شكرته كثيراً فأقبل عليّ يعانقني مرة أخرى ثم دسّ في جيبي مبلغاً من المال لا أذكر قيمته وأقسم بالطلاق أن أقبله منه.

سألته عمّا يحدث في الناصرية فأخبرني أن مجلس الحل والعقد أصدر قراراً يقضي بعزل الملك سعود وتنصيب الملك فيصل ملكاً على البلاد. غمرني خوف شديد من هذه الأنباء وكدت أعود إلى القرية فوراً خشية أن تندلع حرب أو تغير الدول المجاورة علينا ولكن أباك طمأنني أن لا شيء من هذا محتمل: «سعود ولاّ فيصل.. كلهم خير وبركة يا ثابت».

لم أقض في الرياض أكثر من سنة. الرياض لم تمنحني عُشر ما منحته لأبيك ولا أقل من هذا العشر. قرّرت أن أعود إلى الجنوب وأنا أفكر أن بائعاً في سوق بعيد من قرية صغرى أفضل حالاً من مزارع في مزرعة ضخمة من مدينة جديدة. هكذا ضللتني الأيام الخائنة وأخرجتني من السباق الكبير الذي كانت تخبّئه الرياض. عدت إلى أبها مخموراً بحكمة بائسة وسعيداً بقرار عودتي إلى قريتي وذويّ غير آس على ما خلفت في الرياض من الغبار والشظف.

الراكب أيّاماً إلى الجنوب كان أنا. أغنّي ما يطرأ على لساني من أشعار السوق وأبدو طرباً ومبتهجاً بالعودة التي اخترت والمال الذي ادّخرت. لم أحدس آنذاك أنني كنت مغفلاً تامّ الغفلة. أردّد أغنيتي الفقيرة دون أن أعرف أني خلّفت ورائي وطناً من الأغاني يوشك أن يبدأ مهرجانه الكبير.

أما عبد الرحمن الوجزي فأخلص لعمله وأنعم عليه أربابه بثقة وتقريب فارتقى شأناً بعد شأن. وعندما زار أحد أقاربي الرياض بعد عودتي منها بست سنوات تقريباً أخبرنا أن والدك صار كاتباً رسمياً يتسلّم راتباً من الحكومة ويعيش في بيت فسيح ولديه سيارتان. فُتحَت له سماء طيبة وفُتِح لنا في الرياض بيت رجل كريم يقري أضيافه قرى طويلاً ويقضي حوائجهم ويسعى معهم.

منذ تلك الأيام لم أزره إلا مرتين. مرة لأباشر إلحاق ابني بالكلية الحربية ولم يتيسّر ذلك لعرجه الواضح ولكن أباك تدبّر له حينها وظيفة حارس لمبنى حكومي. الثانية عندما سافرت للكويت بحثاً عن علاج وركبت الطائرة من الرياض. كان أبوك حينها قد أصبح تاجر سجاد إيراني فاخر وعرض عليّ أن أعمل عنده فأبت نفسي الغبية ذلك ورددته بلطف وريبة.

– أنت رجل سوق يا ثابت والرياض فيها الخير. لتبق مع ابنك هنا وتباشر العمل بمحل السجاد حتى أتفرغ أنا لأمور أخرى. ولك مرتب شهري. ماذا تقول؟

– لا. لا أحتاج. شكراً لك.

– فكر جيداً. في الجنوب لا رزق ولا تجارة.

– أهلنا هناك ومردّنا إليه.

– أهلك حيث تُرزق، والجنوب والرياض كلها وطن واحد.

– لا تطل عليّ يا عبد الرحمن. المال ليس كل شيء. وفي الجنوب خير ونعمة والرب واحد. وسوق القرية يكفيني ويكفي عيالي.

لم يبق في جبيني المتغضن الآن من حِكَم الدنيا إلا ما قاله أبوك آنذاك «أهلك حيث ترزق»، ولم يبق من نواقيس الندم أشدّ استفحالاً في قلبي إلا ما قال «أهلك حيث ترزق». أقسم إنها مزقتني مراراً وتعاظم رنينها في ذاكرتي الآن وهو يستضيفني للمرة الثالثة في هذا القصر الكبير ويوصي بمن يقضي لي شؤون المستشفى ومواعيده وأنا هرِم أرتجف مرضاً.

تقضي الحياة بغير ما تقضي ظنوننا فيها يا ولدي. كلما نظرت إلى أبيك اختلطت في داخلي مشاعر غيرة وحب وأمان وحسرة. أعترف لك، رغم أني أسكن بيته الآن وآكل من قراه، لكني لا أحبذ كثيراً أن أجلس معه في مجلس واحد. إن سيرته الطويلة تتواطأ مع الزمن ليجعلاني أكثر مقتاً لشبابي وظروفي. ربما كنت أنا رب هذا القصر لو أني بقيت في الرياض.. ربما؟ إني لا أحسدكم. المسنون الذين بلغوا من الوهن مبلغه مثلي لا يحسدون يا ولدي.. إنهم يتحسّرون فقط. ولتكتشف أنت وحدك يا ولدي أن بين الحسد والحسرة دائماً زقاقاً موغلاً في اليأس.

منذ ذلك العهد حتى الآن لا يزال أبوك بطل القرية وسيّد حكاياتها وأساطيرها. عبد الرحمن الوجزي الذي يعيش في الرياض. المتمكن من كل شيء. ذو الصلات الوثيقة بالمسؤولين والأمراء والشيوخ. الرجل الذي يتدبّر كل أمر ويملك بيده حلول كل مشكلة تحمل صاحبها من القرية إلى الرياض بعد أن امتلأ رجاءً ورهبة. السيد الذي يقصده كل ذي حاجة. غيمة الأمل التي تظلّل كل البائسين من أبناء قريتنا البائسة».

٢٩

مطار بورتلاند وحده يربت أكتاف المسافرين.

في المرات القليلة التي سافرت منه وعدت إليه لاحظت أنه لا يملك مسارب أرضية يتخلص عبرها من دموع المشتاقين ليواصل عمله المتقن، بل كان يجمعها مثل الوقود السائل ميراثاً لمسافرين آخرين لا يملكون دموعاً ولا أهلاً. بدا لي أليفاً ورحباً حتى إني تمنيت لو كان له وجه أتجه إليه وأشكره بعد أن عرفت قبله مطارات لا تفهم أكثر من حركة السفر ومواعيد الطائرات. هذا أول مطار يشذ عنهم. ربما لأنه يرضع من النهر مباشرة ويفهم مشاكل القنادس، وربما لأنه يفكر قليلاً في الوجوه التي ترحل وكثيراً في الوجوه التي تأتي.

كنت أبحث عن وجه آتٍ هذه المرة. جاهدت كثيراً لأمنح عينيّ المجهدتين قدرة على مسح المكان بأقصى زاوية ممكنة حتى لا أفوّت على نفسي الوهلة الأولى. قالت غادة إنها ستأتي قبل أسبوعين من اليوم وضيّعت أنا أسبوعاً كاملاً لاعتقادي أنها مزحة. ليس لأنها لا تزور أميركا إطلاقاً ولكن لأن تصرفاتها أخيراً جعلتني أوقن أنها لو

أخذتني كرجل، وقسمتني على عدد الأميال التي ستقطعها من لندن إلى بورتلاند، لما خرجت بناتج يستحق المسافة. كنت على يقين متزايد بأنها ملت منّي وتوشك أن تدبّر سبباً لإنهاء العلاقة. وكنت أتصرف فعلياً بدوري بلامبالاة وكأن العلاقة شارفت على الانتهاء فعلاً.

ولكنها قالت إنها ستأتي ولهذا أنا هنا. أغازل مطار بورتلاند بذهن مرهق وقلب قلق وأنتظر أن يطرح علي غادة من أحد بواباته العديدة بشكل مريح. لأول مرة في حياتي رغم لقاءاتنا الكثيرة أستقبلها في مطار. لم تكن تسمح بذلك في أيّ من المدن الأخرى. ربما جعلتها بورتلاند النائية تخفّف من قوانينها الصارمة وربما هي هنا لتعلن البيان الختامي ولا طائل من الحذر. كنت أقاوم احتمالاً عنيداً يصر على أن يقفز فوق جبيني أن تكون غادة هنا لتخبرني أن ظروفها الاجتماعية وأبناءها الذين كبروا لا يجعلون من بقائنا على قيد الوصال أمراً ممكناً. إنها هنا لتودعني كصديقة خاصة بعد أن ودعتني آخر مرة قبل سنوات طويلة كحبيبة وحيدة. ورغم مقاومتي لهذا الاحتمال ومحاولتي لأن أقمعه بتفسيرات مختلفة، غرقت في دوّامة من القلق رغم أني ظننت أنها لم تعد تملك الكثير مما يمكن أن تحزنني به. فزعت من هاجس أنها هنا لتقول لي وداعاً بطريقة مبتكرة. لم يكن فراقها ما يخيفني بقدر ما هو عجزي عن تصور حياتي بدون هذه العلاقة التي استمرت عشرين سنة. لا أعرف الكيفية التي اعتمدت بها روحي على هذه العلاقة ولا الطريقة التي تفاعل معها قلبي. ولذلك بدت لي مثل قطعة غامضة من بناء قديم... لا أدري ماذا

يمكن أن يحدث لو حرّكتها من مكانها!

لم أنم جيداً. وإذا استثنيت تلك الإغفاءات المحتالة فالأحرى أني لم أنم أبداً. مثلما أني في طفولتي كان يستحيل أن أنام في الغرفة التي تصدر ساعتها صوت التكات الرتيب، يستحيل عليّ الآن أن أنام تحت وقع الانتظار والترقب. عرفت أنني حتى أنام جيداً يجب أن أفقد صلتي بالصباح ومفاجآته وحتى أستيقظ وادعاً يجب أن أنسى الليلة الماضية وأحزانها. ولم أستطع أبداً أن أنتهي من بناء هذا السد الذهني الهائل بين الليل والنهار. النوم عدو قديم على كل حال لا يمكنني أن أتوقع منه تعاملاً رحيماً.

قرّرت بعد سهر ونكد أن من المخاطرة غبر المبرّرة أن ننهي هذه العلاقة. إنها علاقة لا تكلفنا شيئاً ونحن نتواصل عن بعد مثل قمرين صناعيين لا يلتقي مداراهما سوى مرة كل سنة. أنا في الأربعين الآن ولا يمكن أن أتنبأ بآثار انكسار كهذا على روحي المتعبة. إذا كانت غادة في طريقها إلى بورتلاند لتتلو عليّ أسباباً تافهة للرحيل فمن الحكمة أن أقطع عليها الطريق وأصعّب عليها المهمة. عليّ أن أثبت لها أني لست الرجل المتهوّر الذي يزورها في لندن دون موعد ويترنّح في وادٍ من الخراب والبوهيمية. يجب أن أبدو متماسكاً وعلى هيئة تقنعها بأنها ربما أخطأت في تفسير سلوكياتي الأخيرة وأني ما زلت الرجل الذي اعتنى بسرها جيداً منذ عشرين سنة.

أسبوع متواصل من التعب والتغيير. نقلت كل قطعة أثاث في الشقة إلى كل مساحة أخرى يمكن أن تحتلها وخرجت بعشرة أشكال محتملة لشقة تستحق أن يحدث فيها ما سيحدث مهما كان.

أعرف أنها تنتقي فنادقها من شكل غرف النوم قبل أن تسأل عن موقع الفندق وثمنه. هذا يعني أنه سوف يتعيّن عليّ في أسبوع واحد أن أدخل في منافسة حادة مع كل فنادق بورتلاند لأظفر بها معي في شقتي.

حطت طائرة واشنطن منذ دقائق وأنا أجوس بين المسافرين مثل فأر مذعور. سكنتني منذ الصباح قناعة عميقة بأن طريقة استقبالي لها قد تؤثر على قرارها في موضوع السكن وعليّ فعلاً أن أبادر لاستقبالها استقبالاً هادئاً ورشيقاً. فكرت في الملامح المثالية التي ستجعلها أكثر ميلاً لمقاسمتي شقة صغيرة في مدينة ممطرة لعدة أيام واخترت أن أبدو مشغولاً وعملياً. ولهذا منذ أوقفت سيارتي في مواقف المطار، أزمّ شفتي وأقطب جبيني قليلاً لأتمرّس على هذه الملامح ريثما تصل. كنت متأكداً أني لو اصطنعت البرود واللامبالاة فربما ظنت أني أحاول تنفيرها من الشقة لأني أسكن مع امرأة أخرى، ولو بدوت مهتماً وحنوناً لظنت أني مثل المراهقين الشبقين الذين لا تريد أن تكون منهم، ولو أني بدوت مرتبكاً أو خجولاً ربما ظنت أن مشاعري القديمة قد طفحت إلى السطح وأني أفتعل الدراما التي تفر منها غادة فرارها من الأسد.

لمحتها واقفة قبالة متجر من متاجر المطار تحاول أن تدسّ نقودها مرة أخرى في حقيبتها الصغيرة. كانت ترتدي بنطال جينز ضيقاً وينسدل على كتفيها معطف سكري اللون ينسدل من فوقه هو الآخر وشاح صوفي. ثم جاء شعرها المصبوغ بالبني المشقر مثل محاولة مكشوفة لصرف الانتباه عن ملامحها العربية. وقفت على

مقربة أمتار منها في الطريق الذي يتعيّن عليها أن تسلكه باتجاه صالة الحقائب. عقدت ساعدي أمام صدري ورسمت ابتسامة الاستقبال التي لا أنوي إبقاءها طويلاً قبل أن أرسم على وجهي ملامح الانشغال والعملية التي تمرّست عليها. كان من الضروري أن يبقى ساعداي معقودين حتى أترك لها حرية اختيار الطريقة التي ستحيّيني بها في مكان مزدحم بالأعين سواء كانت عناقاً طويلاً أو قبلة صغيرة على الخد.

رأتني أخيراً ولكنها لم تتجه ناحيتي. ابتسمت لي عن بعد ثم عقدت حاجبيها بغضب كوميدي وأشارت إلى باب دورة المياه وهي تتجه إليها. وقفت أنتظرها وأنا أشعر بحنق صغير لم يلبث أن تلاشى عندما عاودتني قناعتي بأن الترتيبات المسبقة لا تنفع كثيراً معها. لم يعد ممكناً الآن أن أنتظرها حتى تخرج وأنا مستمر في عقد ذراعي وكأني حارس ملهى ليلي. عليّ أن أبتكر أثناء الدقائق التي ستقضيها غادة في دورة المياه وجهاً جديداً أستقبلها به.

قرّرت أن أدعها تراني ولا أراها. أدرت وجهي بعيداً عن باب الحمام وأخرجت هاتفي الجوال وأجريت مكالمة غير مهمّة مع الرقم المجاني للبنك الذي أتعامل معه. طلبت من موظفة البنك معلومات لا أحتاج إليها وتفاصيل أعرفها جيداً. وأثناء ذلك شممت عطر غادة والتفتّ إليها بنصف جسدي وكان أن عانقتني عناقاً تلقائياً جداً وأنا ما زلت على خط المكالمة.

- الحمد لله على السلامة، كيف كانت الرحلة؟

- طويلة وباردة.

مشينا جنباً إلى جنب باتجاه صالة الحقائب. رحت أقطع الطريق بالأسئلة التي أعددتها من قبل لأبدو عملياً ومشغولاً. «كم حقيبة معك؟»، «أين بطاقات الحقائب؟»، «هل لديك ما تفصحين عنه لموظف الجمرك؟ اوه..صحيح، رحلة داخلية..». ثم رحت ألتقط حقائبها برشاقة وهي تتأمّل المطار بعينين بدا عليهما بوضوح آثار نوم مضطرب.

سألتها أخيراً عن سبب الزيارة وأجابت بما لم يكن يجدر به أن يفاجئني. ابنها الأكبر سيلتحق بجامعة أميركية في واشنطن دي سي. ولد بعد لقائنا بسنتين وأصبح الآن طالباً جامعياً. فرصة مواتية لأتفقد ذلك الأخدود الذي يشقه الزمن في صدري بدأب وأنا أتجاهله بدأب شبيه حتى يكون بوسعي يوماً ما أن أزعم أنه داهمني على حين غرة.

– ولماذا واشنطن دي سي؟

– سأطمئن عليه أكثر عندما يكون قريباً من السفارة.

– هل تحتاجين إلى أيّ مساعدة؟

– أوه نعم، دعواتك!

– منذ متى صارت دعواتي مفيدة؟

وضحكت غادة ضحكة مكتومة ولم تعقب. شعرت بأن وراء صوتها قلقاً عميقاً وفسّرته بأنها توشك على فراق ابنها لأول مرة. أخبرتها أن برنامج البعثات الحكومية صنع كثيراً من هذه الحالات وسيكون بخير. ولكني لم أكن آملاً أن تصنع كلماتي أثراً كبيراً. لم أجرؤ على سؤالها إذا ما كانت ستسكن عندي أم لا.

كلما قطعنا بسيارتي ميلاً باتجاه بورتلاند كنا نقترب من اللحظة التي سيحسم فيها شأن السكن. رحت أفكر إذا ما كان ينبغي عليّ أن أسلك طريقاً أطول دون أن يفضحني جهاز الملاحة الصغير المعلق على الزجاج الأمامي والذي تراقبه غادة باهتمام. كنت لا أزال سعيداً بعناقنا التلقائي الجميل. لم يكن حميماً ولا قوياً وبالكاد شعرت بانحناء نهدها على صدري ولكنه جاء تماماً كما أحتاج منها دون أن تقلّ عليّ فأحزن أو تكثر فأرتبك.

سألتها لأكسر دقيقتين متصلتين من الصمت:

- لماذا لون شعرك بنيّ هذه المرة؟

- أوه.. مجرد قرار لحظي اتخذته عند مصففة الشعر في واشنطن.

- وكيف هو ابنك؟

أطلقت تنهيدةً بدت مصطنعة من أم تختلق المسؤولية ثم أجابت:

- والله ما أدري يا غالب. أحياناً أشعر بأن الأم لا تصلح لهذه المهمة إطلاقاً. كان يجدر بأبيه أن يكون معه ويساعده في إتمام إجراءات البعثة والسكن ولكنه مشغول.

- ....

- ثم إن هذه الملحقية ترفع الضغط!

- الملحقية؟

- الملحقية الثقافية المسؤولة عن الطلاب المبتعثين.

- وماذا سيدرس؟

- هذا همّ آخر. لم يقرّر بعد حضرته!
- تبدين عصبية. هل هذا كل شيء فعلاً؟
- خلاص، ما عاد أتحمّل.

شعرت بأن باب البوح على وشك أن يشرع. هنّأت نفسي على ترتيب الحوار بهذا الذكاء الذي أدّى إلى استدراج بوحها دون أن يفضح فضولي. إلا أن وصولنا إلى قلب بورتلاند دون أن تذكر غادة أيّ معلومة عن نيّات سكنها كان يضعني في مفترق الطرق الذي لا يمكنني معه الانسياب في القيادة دون أن أستوضح منها.

- هناك مطعم إيطالي قريب من هنا. هل أنتِ جائعة؟

قاطعتني غادة سريعاً وهي تتناول حقيبتها وتفتش فيها:

- أوه.. لا شكراً، أكلت في الطائرة.

ثم التقطت من حقيبتها ورقة مطوية ولوّحت بها أمامي وهي تقول:

- الماريوت لو سمحت يا غالب.

٣٠

كانت ليلة عادية جداً يا غالب، تقبع راضيةً بمكانها بين الليالي العادية المتراصة في تقويمنا الجبلي. في القرية، من النادر أن تتغيّر الأجزاء التي يتركب منها الليل. كل شيء كان مألوفاً لحواس الناس. حتى أصوات الجن التي تأتينا من الجزء الغائب من الجبل أصبحت مألوفة كبكاء أطفالنا وثغاء شياهنا. ذلك ليل الجبال يا ولدي. إنها لا تثبت القرية مكانها كالأوتاد فحسب بل تمنح الليل سباتاً خاصاً تسكبه في عيون المتعبين من حرث اليوم وحصده ورعيه وبيعه.

الجبال جادة جداً عندما يتعلق الأمر بصناعة ليلها الكثيف. تنسجه من الظلام لتجعل الناس يهجعون هجوعاً مضاعفاً مستشعرين حضورها فوقهم مثل حراس أمناء، فلا يخشون دونه إلا دواب الليل وطوارقه النادرة. جدك، حسن الوجزي، مات في ليلة من تلك. والليالي العادية تتلوّث بالأحداث أسرع من غيرها مثلما أن الأردية الأكثر بياضاً أسرع اتساخاً. لا أدري ما إذا كان موته حدثاً جسيماً أو عابراً. كان رجلاً ضعيفاً وجريحاً ومحموماً منذ أسابيع . الجميع كان

يترقب وفاته الوشيكة ويعدّونه ميتاً لا محالة. ورغم ذلك يحزنون. إن شيوخ القرية وعجائزها يزعجهم الفقد أياً كان ومهما اعتادوا حدوثه لا لشيء إلا لأنه يغيّب لوناً من اللوحة التي دأبوا على تأمّلها طيلة حياتهم. ولذلك هم حزانى على كل غائب، بؤساء عند كل نازلة، فلا فرق لديهم بين الأحداث الجسيمة وغيرها. دموعهم دائماً بالسخونة نفسها.

هل يمكن أن تكون وفاة شيخ مريض محموم في قرية نائية حدثاً جسيماً؟ لا شك في أن اليافعين والصغار وجدوه كذلك من فرط الحكايات القديمة التي طالما ملأت أسماعهم عن حسن الوجزي وبطولاته حتى ظنوا أن سقفاً عالياً من أسقف القرية هوى في ليلة عادية جداً. لا أريد أن أحفز قلمك النشيط هذا ولكن ليست البطولات كما تتصوّرها أو كما تعرضها لكم مسلسلات البدو الحالية. حدثني أنت عن بطولة تستحق الذكر في قرية صغيرة من جنوب بعيد؟ لم تكن قرية آمنة تماماً ولكنها عادية تأتيها أقدارها متشابهة تماماً كأنها تخرج من صندوق سماوي واحد تتقاسمه كل القرى. لم تكن قبائلنا يغير بعضها على بعض كثيراً كما يحدث في أماكن أخرى ولكن ذلك يحدث أحياناً بدافع الخصومة والغضب وأسباب تافهة. هكذا كانت الحياة، وهذه الشؤون نسبية، وحجم البطولة يتناسب مع حجم القرية طبعاً. يكفي أن تنال من ثلاثة أعداء، بشراً كانوا أو ذئاباً، لتصبح بطلاً صغيراً في القرية. لقد كدحت بجد لثمانين سنة من عمري دون راحة، ولا أحد يستطيع أن يسمّي هذا بطولة. تآكلت عظامي وأكلني الوهن من فرط الشقاء المتراكم في

عمري ولست بطلاً. الحياة مجحفة في ألقابها ولكني لا أهتم لذلك. نحن والأبطال نموت!

جدّك كان فارع الطول. لا أدري لماذا لا أرى طوله ذاك في قامتك أو حتى قامة أبيك. ولكن إذا رزقت بابن يقارب المترين طولاً وقت يفاعه فاعلم أنه نزع لجد أبيه، وارغب إلى الله أن يجعل طول القامة نصيبه الوحيد منه. إني أقول لك هذا وأنا أتذكر توحّش جدك وغرابة أطواره. لقد ظل عازباً حتى تجاوز الخمسين من العمر، هل كنت تعلم هذا؟ إنه شأن مستنكر جداً الآن فما بالك بذلك الوقت. لقد ظنّوا به سوءاً بسبب نزعته الانعزالية التي اعتاد معها ألا يظلّله سقف ولا تحجره حجرة. ينام في العراء كوعل جبلي ولا نراه إلا في المناسبات القبلية أو عندما يعود العجائز والمسنين من أهله. لم يكن أحد يظن أنه سيكون لهذا الرجل نسل ما. ولأنه كان بلا إخوة رأى فيه الجميع ختاماً لآل الوجزي كآخر ذكر حيّ منهم.

أعترف لك بأني لم أكن أسكن إليه كثيراً ولا أرتاح لسحنته. ولم يكن أحد يمكن أن يرتاح لها أصلاً إلا المراهقون الأغرار أو النساء الساذجات. عندما يأتي في مرات نادرة ليشتري من سوقنا كان يقلب البضاعة من الحبوب والأواني والسمن وكأنه وصيّ على أسواق الناس وليس زبوناً مثلهم. كنت أتجنب المتاعب فلا أجادله كثيراً لا سيما أننا لسنا بعصبة من نسبكم ولا أحد يريد أن تنشب بينه خصومة مع حسن الوجزي.

إن السوق القروي قطع متناثرة من يقين وبؤس، كأنه جلد بقرة مموّه بتفاصيل شقائنا أو أحلامنا. اعتدت ألا أرى جدّك إلا هناك

وهو ممسك بعصاه الطويلة الغليظة، وملامحه الجامدة العابسة وكلامه القليل الأصفر. لم تكن تجمعنا المجالس ولا الأعياد. لم يكن يؤذي أحداً. هذه شهادة هو حقيق بها. لكنّ أهل القرى لا يغفرون كثيراً لغريبي الأطوار حتى لو كانت غرابة أطوارهم تجذب شائعات البطولة مثل مغناطيس لا يجذب إلا شذرات الحديد الرخيصة. فكر في ذلك يا ولدي. ما يُسمع مهما كان ثميناً يظل أقل قيمة بكثير مما يُرى. ولا أحد رأى من حسن الوجزي فعلاً واحداً يستحق كل هذه الهالة التي تلاحقه أين ما ذهب وتشغل بها مجالسنا وأسواقنا وأذهان نسائنا.

سأحكي لك حكاية صغيرة لا يذكرها الآن إلا من هم في مثل عمري. حدثت قبل أن يولد أبوك نفسه. ذات يوم اختصم رجلان في السوق فطعن أحدهما الآخر وجرحه جرحاً بالغاً ثم هرب إلى بيت أرملة من قريباته فخبأته في فتحة كأنها نافذة مقلوبة كنا نجعلها في الحائط لنخزن فيها الحبوب. كان الرجل يعرف أين يختبئ وأيّ امرأة يقصد. وعندما جاء طالبو الثأر وكانوا يعرفون أنها امرأة وحيدة اكتفوا بواحد منهم ليفتش بيتها. فاحتملت له بخنجر وقتلته. أجل. كانت امرأة بريّة قوية الذراع. حملت جثته بعد ذلك إلى سطح دارها وألقته على رفاقه من عل. ثم صاحت بصوت عال: «تكفى يا حسن! الرجاجيل دونك!»، ولم يكن حسن الوجزي في الجوار أصلاً، ولم يكن أحد قد رآه في القرية منذ أسابيع، ولكن ما إن سمعوها تناديه حتى ظنوا أنه بالداخل وأنه هو من قتل رفيقهم، ففروا جميعاً ونجا المطلوب.

هكذا يا غالب حاز جدك بطولة مجانية لم يكن يعرف عنها ومزيداً من الحكايات. أعرف أن كلامي يبدو كقصص الأطفال ولكن الجميع كانوا أطفالاً آنذاك يا غالب. الجهل يدفع القرى لتعيش طفولة دائمة حتى يأتي نضج ما من وراء الجبال. كان الدم لعبة، والنهب لعبة، والثأر لعبة، وكل أفعال القبائل مجرد ألعاب تختلف في حجم خطورتها وإثارتها. لا توجد رائحة فلسفة في تفاصيل الأشياء أبداً. الجميع يريد أن يلعب أو يتفرج على الألعاب. حتى هذه القصة تبدو أرجوحة لا أكثر. إنهم يردّدونها وهم مبهورون بالرعب الذي زرعه اسم جدك في قلوب أولئك النفر. لم يفكر أحد إلا أنا وأخي الأكبر أنها تفسّر كل شيء. حسن الوجزي أسطورة زائفة. صنم يصنعه الناس ليتقربوا إلى الإثارة. وهو مارس هذه البطولة المصطنعة جيداً في هذه القصة، فعندما تناهى ما فعلته المرأة إلى مسامعه اختفى عدة أسابيع أخرى عن القرية. فعل ذلك ليثبت أنه من أنقذ المطلوب الذي ينتمي إلى جماعتكم والأرملة لم تعترف بأنها هي القاتلة حتى لا تتعرّض لأذى. لقد ألقت بالمسؤولية على حسن الوجزي مقابل تلك البطولة المجانية. لم يكن جدّك ليرفض هذا. كان اتفاقاً ضمنياً ليس من الضرورة أن يلتقيا ليتخذاه.

جدّك كان يعرف أن الحكايات حوله تنمو وحدها كالحشائش البرية. كل ما عليه أن يفعله هو أن يظل بعيداً نادر الحضور وقليل المخالطة ليتسع حيّز الخيال في أذهان الناس. دائماً ما شعرت بأنه يصطنع هذا النوع من السلوك ليضفي على حياته البطولة. عندما يسقط الليل على الجبال يصبح كل مايدور وراءها مزرعة للأساطير،

وحسن الوجزي كان دائماً وراء الجبال عندما يسقط الليل.

كنا بدواً، جماعتكم وجماعتنا، ولكنّنا أقل نزوعاً للترحال والانتقال من بقية البدو المنتشرين في الجزيرة. نحن بدو جنوبيون. وعندما تهطل السماء نجد دائماً مستقراً قريباً وأسواقاً أسبوعية طارئة نبيع فيها ونشتري فلا نضطر لأن نرحل إلى ما هو أبعد من الجنوب. كان عندنا خيام أثقل وأشد بنياناً فيها صخور وأسقف. خلف أسواقنا دائماً تكون البيوت وعندما ينزل الرزق في السوق تنزل البركة في البيت. هكذا تعلمت. إن أطفالي الذين ربوا في السوق هم أصلح حالاً ممن ربيتهم في البدو أول عمري.

أريد أن أخبرك أيضاً يا ولدي أنه عندما تكون الأرض جبالاً يصبح للخطوة خلفها طعم مختلف ويصبح للرحيل حكايات تخيطها النساء مع الملابس ويدقها الرجال مع القهوة. كل حاج هو بطل حتى يرجع ويظل فقيهاً حتى يموت. وكل محارب هو بطل حتى يعود ويموت شهيداً حتى على فراشه. الجنوبيون إذا رحلوا صعدوا جبلاً أو نزلوا وادياً. حتى عندما يخرجون للصيد كانوا غالباً ما يتحركون في دوائر تحيط بالمنطقة. لا أحد يقاوم غريزتهم الجنوبية التي تحذرهم من الشمال وتخيفهم منه.. إلا جدك.

جدك رحل في شبابه إلى شمال بعيد لم نكن نعرفه إلا في القصص. حجّ ولم يعد إلا بعد أربع سنوات إن كنت دقيقاً في حسابي. كانت واقعة كبرى على أذهان القرى التي تعتصر الحكايات بصعوبة من الصخور الصلدة المحيطة بها. لم يفرز الناس كلاماً فحسب بل تركوا أسماءً وعلامات، فهذه صخرة حسن، وتلك أرضه، وهذا

مرعاه، وهنا حيث قاتل وخاصم. لم ير أحد من قبل قطرة دم على خنجر جدّك إلا دماء الخراف، ورغم ذلك لا يمكن لأحد أن ينكر أنه قتل الكثير من المعتدين ولصوص القبائل. إن إنكار ذلك يُحدث شرخاً كبيراً في دثار حكائي يبقي القرية دافئة. لا أحد يريد أن تبرد القرية انتصاراً للحقيقة. وماذا تجديهم الحقيقة؟ كلها حكايات.. نعبّها كي لا نتحجّر ونصبح أجزاءً بارزة من الأرض الجبلية. الحقيقي منها والواهم يؤديان الدور نفسه الذي نشعلها في أفواهنا من أجله. لذلك لا نهتم.

غياب جدّك الكبير ذاك شغل مخيّلة القرية سنوات مديدة. كلما أراد رجل ما أن يتباهى أمام جلسائه قال: «سمعت اليوم من أخبار حسن الوجزي كذا وكذا..». وإذا أراد أن يكرم ضيوفه فليس أفضل من قصة من قصص حسن الوجزي. وإذا أرادت امرأة أن تزعج زوجها هدّدت أطفالها على مسمع منه: «ناموا، وإلا ناديت لكم حسن الوجزي!».

عندما عاد وجد القرية كلها شاخصة بأبصارها إليه. صمت ولم يخبر أحداً عن سبب غيابه. سرب أخباراً إلى جلساء قلة في أوقات متباعدة ليخلق مجالاً لإشاعة ما أن تبدأ وتنتشر. هذا هو تفسيري لتباين الأقوال. لا بد أنه أسهم بنفسه في اختلاق القصص وترويجها. لا يمكن أن تكون أخيلة الجنوبيين بهذا الاتساع إلا من رحل منهم وتجاوز حدود الطائف ونجد أو نزل إلى اليمن وأبحر منها.

٣١

شيء في الرياض يجعل الأربعين تبدو مثل وادٍ مجدب.. حالما مسّته قدماي الحافيتان دبّ في قلبي رعب هائل. ولذلك قرّرت أن أحدث ثقباً في جدار الزمن وأهرب. يمّمت وجهي لأبي ولازمت مجلسه. لم أخبره أني مقبل عليه أخيراً بعد سنوات من التلكؤ وإلا أرسل نحوي سرباً من النظرات المتشككة. واكب ذلك التغيّر غياب سلمان سنة من الزمان وهو يدرس في بريطانيا فبدا الأمر لأبي كأني استنكفت عن تركه وحيداً دون ابن يتوكأ عليه ويهشّ به على نوائب العمر.

لم يكن المرض قد داهم أبي آنذاك ولكن أعراضه كانت تحوم حوله مثل ذباب كريه. شحوب وجهه وصفرة عينيه والهزال الذي جعل ساقيه تبدوان مثل فرعين في شجرة ميتة. كان مزاجه يتقلب كثيراً بفعل المرض وصعوبة متابعته لأعماله بالدأب الذي كان عليه. يثور أحياناً لأسباب لم يكن يثور عليها ويخمد أحياناً أخرى حتى تمر أيام لا أسمع له صوتاً عدا غمغمات مبهمة من الدعاء والتسبيح الروتيني.

أوعز لي أمر تسيير بعض الشؤون المالية اليومية. كنت أزور سماسرة يتعامل معهم وأنقل لهم رسائل يبلغني إياها ولا أدري لماذا لا يقولها لهم مباشرة عبر الهاتف. قال مرة: «.. وقل لهم الوالد ما يرضى بهالقيمة، ولكن أنا بكلمه وان شاء الله خير»، شعرت حينها بالرضى أن يتظاهر أبي أمام سماسرته بأنه يشركني في الأمر ولو من باب الحيلة. أخبرت عمتي فاطمة بذلك ذات مساء وأخبرتني أن أبي لم يقل ذلك من باب الحيلة ولكنه يسعى فعلاً لأن يشركني في أمره.

– ترى طال الزمان ولا قصر، ماله غيرك ومالك غيره...

– ما ظنيت. شايبنا الموت عنده أهون من حاجته لأحد.. ولو عياله.

– لا يا غالب. أنا سامعته بنفسي يقول غالب تسنّع وطاح اللي في راسه.

بعد أشهر قليلة سألني أبي وهو يتناول قهوته الصباحية إذا ما كنت أعرف بالتحديد موقع قطعة أرض يملكها. لم أكن متأكداً من ذلك ولكني أجبته بالإيجاب فأردف بسؤال آخر:

– وش رايك؟ وش نسوي فيها؟

لم يحدث من قبل أن استأنس برأيي في شأن من شؤون عمله. افتعلت حركة عابرة لخفض صوت التلفزيون كنت أريد منها إخفاء ارتباكي العابر من هذا السؤال. قرّرت أن أكسب بعض الوقت للتفكير بإجابة دبلوماسية بارّة وأنا أشير بكفين خاويتين ناحيته:

– مالنا راي غير رايك. اللي تشوفه نسويه...

– عطنا رايك انت. وش تشوف؟

وارتسمت على فمه ابتسامة شاحبة جداً. شعرت بأنه كشف أمر ارتباكي وبدأ يستمتع بهذا الاختبار الشفهي المفاجئ لمعلوماتي ومداركي. عرفت حينها أنه ما دام يختبرني فقط فبالتأكيد سيفنّد إجابتي مهما كانت ليحرّضني على مزيد من العمل. أجبته حينها بشيء من التحدي الخفي:

– الاستعجال موب زين طبعاً. كل الأمور يبيلها دراسة.

اختفت ابتسامته، ورفع حاجبيه لولهة قبل أن يخفضهما ثم تضيق عيناه وهو يركز نظرته باتجاهي ويقول:

– ايه ما اختلفنا. أكيد كل شي يبيله دراسة، لكن ابي اعرف انت وش رايك؟

– انا ما عندي راي يطلع بدون دراسة مسبقة. لازم أدرس المنطقة، وأشوف الأسعار الحالية، ووضع السوق وبعدين يكون عندي إجابة.

بدا لي بوضوح أني طرقت في قلب أبي باباً من الأمل كان قد أوصده منذ زمن بعيد. ولكن طبيعته المتشككة أبت أن تستبق النتائج فاكتفى بإجابة مقتضبة:

– ايه زين..

ثم استدار ليرمي نظراته في الناحية الأخرى وهو يردف بلهجة غير جادة..

– شد حيلك، وخلنا نشوف..

عملت بجد أياماً طويلة وعدت لأبي بما أراه مناسباً لهذه الأرض. سفّه أبي كل ما جئت به فلم أحفل بذلك. شيء ما في داخلي كان يصرّ على أن أبي لن يفرّط في عودتي هذه المرة ولكنه يريد أن يختبر عزيمتي لا أكثر. جمعت مآخذه ورحت أفنّدها بدوري في جلسات متعاقبة. صباحاً وهو يرتشف القهوة ومساءً قبل أن يأوي إلى فراشه، وأعقاب الصلوات، وفي مواعيد الطبيب التي صرت أرافقه إليها.

قال لي أخيراً:

– لا، خلاص. الأرض بسلّمها بن مغيد. عنده ولد فاهم وهو بيدبرها.

ابتلعت تلك الإهانة المتقنة من أبي ولم أناقشه وهو يلمّح بثقته بابن صديقه أكثر مني. كنت أشعر بالرغبة في إشعال النار في مجلسه وتركه يحترق وحيداً لولا أن رجلاً غريباً كان يضحك في داخلي بسخرية ويخفف عليّ مرارة الإهانة التي ألبسني إياها أبي رغم الأربعين المتربّعة على وجهي ولا يراها.

– رايك سديد يا (ابو غالب). ولد بن مغيد فهمان، وهو اللي بيدبرها.

لم يعقب أبي غير أني كنت على يقين أن ندائي له بكنيته التي تحمل اسمي حمل إليه رسالة وافية. مرّ أسبوعان على تلك الحادثة قبل أن يتصل بي باسل ويضع بين يدي توكيلاً من أبي بتقسيم الأرض وبيعها قطعاً مخططة كما اقترحت أنا. باشرت بالمهمة في الصباح الذي تلى ذلك. وبعد ثمانية أشهر أودعت في حساب أبي

تسعة وثلاثين مليوناً عوائد بيع قطع الأراضي وأودعت في حسابي الشخصي مليوناً وستمئة وثلاثين ألف ريال كعمولات مبطنة لمصلحتي لم أسجّلها في الأوراق.

٣٢

«لقد اتفقنا أن أحكي لك عن أبيك وجدك يا غالب ولا أدري ما هو هذا البحث الذي تكتبه ولا تلك الأوراق الصفراء التي تلصقها على أطراف أصابعك. كبرت يا ولدي وجئت لأدفع الموت عن جسدي المنهك الذي ترى، وأعرف أني إن نجحت في دفعه فسيعود أخرى. لم يعد عندي قدرة على المجاملة وتكذيب الحقائق. لقد تغيّرت الحياة يا ولدي وأصبحنا في زمن مليء بالعلم. دعني أتكلم بصراحة عما أشعر به وعما كوّنته من أفكار اختمرت في ذهني زمناً طويلاً. ربما لم يبق كثيرون أحياءً ممن عاصروا جدّك ليخبروك عنه. رأيي الوحيد الذي خلصت إليه هو أن أباك رجل شهم وكريم ولكن جدّك لم يكن أكثر من كذاب وصعلوك.

أخي الأكبر كان يردّد: «سمعناك يا راعي وما شفناكم يا غنم!»، ذلك أنه كلما مرّ جدك من سوقنا بعد عودته راجت عن غيابه ذاك عدة حكايات: سمعت أنه انتهى في حجّه بالمسجد الأقصى وعمل هناك وتزوّج امرأة شامية وقاتل اليهود قتالاً عنيفاً، وقيل إنه عاش

في إسطنبول وله أبناء من أم تركية ذات نسب عريق أعجب أبوها بشجاعته وقتاله ضد الأرمن، وقيل أيضاً إنه اتجه شرقاً إلى العراق وعاش بالقرب من الإنجليز ثم قتل منهم عشرة ضباط وسلب غنيمةً كبيرة من الذهب والبنادق، وقيل إنه ركب البحر وسافر إلى الهند واشتغل في التجارة زمناً قبل أن يكيد له تجار آخرون فهرب منهم بعد أن نال من إحدى نسائهم. ما أكثر الحكايات يا غالب. ولو فحصتها تجد دائماً هناك امرأة وقتالاً وذلك جل ما يشعل أخيلة البسطاء من أبناء القرية. كلها كذب سخيف يفضحه اختلاف الأزمنة ولكن ذلك لم يمنعهم من ترديد حكاياته. هكذا غاب عشر سنوات فقط، لكن القرية ظلت تتكلم ثلاثين سنة.

أنا لا أظن إلا أنه تصعلك هنا وهناك ولكنه لم يتجاوز حدود الجزيرة. لا شيء مما كان يقوله أو يفعله يشي بأنه اختلط بأقوام آخرين. وعندما يجرؤ رجل ما أن يسأله عن مدى صواب قصة ما سمعها عنه يهز جدك رأسه ويبتسم ابتسامة غامضة ثم يحاول أن يجيب إجابة تتفاقم بها حيرة السائل. لقد كان سعيداً بكونه رجلاً يملأ أفواه الناس بالكلام ولم يكن هذا صعباً. يكفي أن تغيب زمناً كالزمن الذي غابه هو وترجع فتجد الناس مستعدين لصياغة آلاف الحكايات عن غيابك هذا دون أن تتجشّم أي عناء.

كلام القرى كله سذاجة يا غالب. أنتم محظوظون أنكم عشتم في مدينة وتعلمتم في مدارس. ماذا استفدت أنا من المكث في تلك القرية البلهاء المعلقة في منتصف الجبل مثل دمّل أبدي؟ انظر ماذا أصبح أبوك عندما ترك القرية وانظر لحالي أنا الذي أتسوّل علاجاً

من مستشفى حكومي منذ أشهر. كل سنة تقضيها في قرية تحقن في دمك بلادةً تكفي لسنة قادمة. عش دائماً حامداً شاكراً. ادعُ للرياض. إنها مدينة عظيمة وخيّرة».

أومأت برأسي بطفافة لعله يتابع القصة. التقط إشارتي فتوقف عن الحكمة. ألقى نظرة حائرة في فضاء الغرفة ثم هرش رأسه قليلاً وظلت طاقيته البيضاء مائلة قليلاً.

«لا جديد يضاف على حياة جدك بعد عودته إلا أنه تزوّج. أتذكر أنه كان في الخمسين تقريباً عندما ارتبط بجدّتك التي كانت امرأة صلبة وجليلة ولم يكن من الممكن أن تتحمّله امرأة غيرها. هربت منه امرأة قبلها لم تحتمل نزقه وغرابة شؤونه. ولكن جدتك روّضت نصف جدك ولم تقدر على نصفه الآخر.

في جدك سمة فضولية جداً. كان يتدخّل في شؤون كل البيوت التي يعرفها وكأنه يحاول أن ينصّب نفسه حكيماً للقرية. هذا شأن بالغ الصعوبة في ظل طبيعة الإنسان الجنوبي المتحفظ جداً في ما يخص شؤون بيته وأهله ولكن هذه النزعة الغريبة غلبت عليه منذ عودته. راح ينقب في كل شيء ويبحث عن أسباب أيّ خبر تتناقله القرية. يسافر أحياناً في طلب صلح بين متخاصمين، أو تأليف بين صهرين، أو قتال بين قريتين. ولم يفعل ذلك بدافع خيري. إنه يبحث عن فرجة يتسلل منها إلى حيوات الآخرين وأسرارهم. إنه يخلق لنفسه موقفاً في كل ظرف ولا يطيق أن يرى نفسه منعزلاً عن أيّ حدث يحدث في القرية ضئيلاً كان أو عظيماً.

أعتذر لك يا ولدي إن كان في كلامي ما يسيء إلى جدّك. الحق

أنه في ما يتعلق بالسمعة فإنه لم يلحق بجدك حتى وفاته ما يصم أو يعيب. كان نقياً من العار تماماً وحريصاً على اتقاء الشبهات واجتناب مواطن الانتقاد والنقائص، بل إن الكثيرين من رجال القرية كانوا يجلونه ويكبرونه والكثير من نسائها كن يحلمن به ويتبادلن أخباره بوله ولكنه لم يكن مهتماً بالنساء. كان عازفاً عنهن وعن أخبارهن وغزلهن، ولعل عزوفه عن الزواج مؤشر لذلك، ولهذا لحقت به المنقصة الوحيدة التي يمكن أن يلصقها به منتقدوه، وهي أنه عنين لا يقدر. ولولا تلك الشائعة التي تقصم ظهر الرجال لما ظننته تزوّج جدتك وأنجب منها أباك وتسعة أبناء وبنات بعده ماتوا تباعاً متأثرين بالجدري وأمراض أخرى كانت شائعة.

لم يكن هذا الوضع العائلي الجديد ليجعل منه أكثر استقراراً بل ازدادت نزعته للنوم مع الوحوش في العراء. كان يحب الصيد أو ربما يدّعي حب الصيد ليتخذ مبرّراً لبقائه في العراء ليالي طوالاً، ولم يكن أمام جدتك الصابرة إلا أن تلجأ لأخيها الأكبر الذي كان رجل البيت الحقيق، وأبو أبنائها الذين شبّوا على رؤيته وماتوا تباعاً بين يديه.

كان واضحاً أن زواجه بجدتك لم يكن لغرض الزواج بل لإسكات الأقاويل التي تدور حول فحولته، ولما تمّ له ذلك بولادة أبيك لم تعد له حاجة في ذلك الزواج إلا لإطفاء غريزته. جدّتك لم تكن تملك حيلة ولا قوة إزاء وضع كهذا. كانت تتكئ على قدرة فائقة على الصبر ورثتها من سلالتها التي مُنيت بمصائب كثيرة لا ينساها القوم. كانوا سلالة ذات عمر قصير، دائماً يموتون شباباً

وتأخذ الأوبئة غنيمتها الأكبر منهم، ودائماً يقصدهم قطاع الطرق ولصوص ما بعد الغارات. لا أدري، شيء يشبه النحس كان يلازم تلك الأسرة. حتى هي ابتُليت بزوج لا يقرّ لها في بيت وأبناء يموتون تباعاً. ولهذا ربما كانت تنظر إلى حياتها مع جدّك بمنظار اعتاد رؤية المآسي فلم تشعر بفارق كبير حتى جاءت تلك الليلة.

كان جدّك يحتضر. جلبه بضعة نفر مجهولين إلى البيت وقالوا إنهم وجدوه مغشياً عليه تحت صخرة. رأسه ينزف وكأنما ضربه أحدهم بأداة حادة. في هذيانه قال إن قدمه زلت فانزلق من أعلى تل واصطدم رأسه بالصخور. قضى شهراً متخبطاً بحمّاه وهذيانه وجدّتك إلى جواره ترعاه رعاية زوجة صالحة صابرة. ربما كان ذلك الشهر الذي قضاه محموماً إلى جوارها هو أطول مدة متصلة قضاها معها منذ زواجهما. ولعل ذلك أثمر. فبعد وفاته بفترة قصيرة كانت جدتك حبلى بعمّتك فاطمة. ولكن جدّك مات قبل أن تلد. مات في تلك الليلة العادية جداً. وسرعان ما بدأ في القرية عزاء كبير استمر تسعة عشر يوماً دون انقطاع. لم يكن أحد يتصوّر أن عزاءً كهذا يمكن أن يناله رجل إلا إذا كان شيخ قبيلة أو أمير حكومة. ولكن جدّك نال ذاك لفرط القصص التي حيكت عنه. لم يكن أحد ليفوّت حضور عزائه. وحتى قصة سقوطه الأخيرة تلك من فوق التل استأثرت بقصة فريدة تناقلها الناس وظلوا يردّدونها سنوات طويلة.

قيل إنه تعرّض لهجوم من أبناء قبيلة معادية فقتل منهم خمسة بيده قبل أن تغلبه كثرتهم، فرموه من فوق التل وعادوا إلى قريتهم.

فلما علم شيخهم بذلك قال: «لا يعلمنّ الناس أن رجلاً واحداً قتل خمسة منا إلا كان في ذلك عار علينا. من الأجدى أن نخفي خبر هذا المعركة تماماً. وأفضل طريقة لإنكار ذلك هي أن تحملوه إلى أهله بأنفسكم إبداءً لحسن النية، وقطعاً للطريق عليه إذا أفاق وأخبرهم بما كان وادفنوا جثث رفاقكم، وقولوا لأهليهم ألا يقيموا أيّ عزاء».

٣٣

ظل بريق هاتفها الجوّال ينعكس على وجهي طيلة الليل. انتبهت أكثر من مرة على صوت أصابعها وهي تضغط أزراره بعصبية. حاولت أن تتربع على السرير فركلت يدي دون أن تنتبه ثم شعرت بها وهي تعيد يدي فوق صدري وكأنها تزيحني بعيداً عن انفعالاتها. كان واضحاً أنها قضت ليلتها في سجال طويل مع شخص ما على الهاتف. تمنّيت أن يكون زوجها، وأنهما مختلفان وسينفصلان، ورحت في تلك الحالة المتذبذبة بين الصحو والنوم أحلم بقصص جميلة.

بعد دقائق انتقل توتّرها إليّ فلم أتمكن من النوم رغم أن عقلي كان معتقاً بقنينة نبيذ اقتسمناها معاً في غرفتها في الدور العاشر من الماريوت. هذا الفندق الذي يفتح ذراعيه أمام ويلامت منذ سنوات دون أن يقرّر الأخير معانقته. لم أكن أعلم أنه كان يدّخر لي ليلة لذيذة كهذه عندما ودّعتها صباحاً عند بابه وتركتها دون موعد. حطمت الأواني الزجاجية الصغيرة التي كنت قد صففتها من قبل

على مائدتي وزرعت في كل منها شمعةً ملائكية الشكل تحسّباً لدخول غادة إلى شقتي. فوجئت بها تهاتفني وأنا أجمع الشظايا وأنظف الطاولة وتضرب معي موعداً للعشاء.

تلك الظهيرة، اقتسمت مع كونرادو أربع جرعات من الفودكا ثم قدحين من الإسبرسو الداكنة. اختلطت في دمي قبيلتان من الإغريق والبدو ورقصتا معاً على نغمات قيثارة وطبل وانفضتا عن ساحة مليئة بالنجوم والأطفال. وقفت أمام المرآة أتأمل صورةً مشوّشة لرجل لا يفهم لماذا تنتهبه النشوة إلى هذا الحد، ولماذا يشعر بفرح الناجين من الغرق وسعادة الوالجين إلى الجنة، وكأنه سيلتقي عاشقة مستحيلة نزلت من السماء خصيصاً لأجله لا امرأة ملولة كان يدلّك ظهرها قبل عدة أشهر في لندن.

سردت لها أثناء العشاء كل ما جرى لي منذ وصولي إلى بورتلاند. كنت آكل بشهية مفتوحة وأتحدّث بانثيال مطمئن وكأني عدت الفتى الذي التقته قبل تسعة عشر عاماً في جدّة. وشعرت بأني أتناول عشائي مع فتاة تغيّر ملابسها أمام شباك مفتوح في ليلة رطبة وحالمة. لم يعد بوسعي أن أفوّت فرصة الهرب إلى أحضان الذاكرة واللهو في حديقة الماضي. ألححت عليها بأن أصعد معها إلى غرفتها ووافقت هي بلامبالاة.

بعد ساعات قصيرة من النوم بدا لي أنها استيقظت على حلم قلق. راحت تتحرّك بعصبية وتتنهّد كل دقيقتين. فكرت أن أعتدل من ضجعتي وأسألها عما بها لعلها تبوح ولكني لم أثق بصفاء عقلي. هي في كل الأحوال لا يمكن أن تحدّثني بشأن من شؤون عائلتها

وكأنها تخشى أن تدنّسهم بي، أو كأن ذلك يخرب عليها حالة الانفصام المؤقتة التي تنساهم فيها وتقاسمني سرير الغرباء.

تناهى إلى سمعي صوت جهاز الكمبيوتر المحمول وهو يبدأ التشغيل. فتحت عيني قليلاً فوجدت وجهها وقد طوّقته هالة من الضوء الذي تبثه الشاشة. وجهها الجميل العابس دائماً. لمحت على زجاج نظارتها صفحة موقع بنكي. هل تكون غادة في ضائقة مالية؟ ليتها تطلب مني بعض المال وسأكون مستعداً لتخريب ميزانيتي وترميمها في ما بعد على مهل. سيجعلني ذلك بالتأكيد في مركز أقوى وحال أفضل ولن ترتدي ملابسها سريعاً بعد لدغة الجنس وكأنها تطردني عن جسدها الذي لا يبدو أنها تعتني به جيداً.

كم هذا مؤذٍ. لم نلتق منذ أشهر طويلة ورغم ذلك تعاملني كأني بعوضة جائعة وهي مدينة لي بقطرتي دم لا أكثر؟ وأنا تحت وطأة اللذة الناقصة أكظم الغيظ وأنصرف عنها سريعاً وكأني أنا الذي أنعمت عليها بجسدي. كبرياءان متعاكستان لا تسفران إلا عن جنس عاتب. هذه هي حكاية السرير المكرّرة في السنوات الأخيرة. لا أدري ما الذي تغيّر. هل هو طفلها الأخير الذي رضع منها طويلاً كما بدا لي؟ أم أن جسدها أصبح يدقق أكثر في هويات الزائرين؟ أم أن وجهي قد دكه التدخين والقلق ولم يعد يغري بشيء؟

تستطيع غادة أن تنفق مخاطرتها تلك على رجل أفضل لو أرادت ولكنها ما زالت تعود إليّ باستمرار وكأني دير يستحق الحج وهي امرأة قليلة العبادة. يبدو أني تغلغلت فيها طويلاً حتى أصبح إخراجي من حياتها أكثر عناءً من الاستمرار في مضاجعتي فاختارت

غادة الحل الأسهل. تذكرت حينها صديقي فيصل الذي انكسر عقبه فاضطر الجراحون إلى غرز مسمارين في عظمه حتى يجبر وحين حان موعد نزعهما استثقل فيصل عناء الجراحة وقرر أن يمنح المسمارين التعيسين حق الإقامة في عقبه إلى الأبد.

أزعجتني مثانتي. قمت إلى الحمام مترنّحاً ونظرت جهتها فابتسمت لي. على كرسيّ الحمام فكرت أن أقول لها عندما أخرج «في شي مضايقك حبيبتي؟»، ثم رأيت ألا أناديها حبيبتي حتى لا يزيدها هذا اللطف توتراً. «في شي مضايقك يا قمر؟»، «في شي مضايقك غادة؟»، أو ربما بدون نبرة اهتمام أكتفي بسخرية متثاقلة «خير، وش عندك على الجهاز طول الليل؟».

عندما خرجت من الحمام كانت غادة تقف أمام النافذة وقد أضاءت الأباجورة الطويلة القابعة في ركن الغرفة. فور أن شعرت بخطواتي تتّجه إلى السرير قالت دون أن تلتفت جهتي:

- غالب...
- هلا...
- محسن تزوج.
- محسن؟؟ متى؟
- ما أدري، ولكن مو أقل من ست شهور.
- ويعرف أنك تعرفين؟
- قبل شوي أرسلت له إيميل أقوله أني كشفت الموضوع وما راح أرجع لندن قبل ما يرسل لي صورة صك الطلاق على الإيميل.

إنها على خلاف مع زوجها إذاً كما تمنيت في تلك الحالة المتذبذبة بين الصحو والنوم. لم تتحقق لي من قبل أمنية بهذه السرعة. يبدو أن الجزء الغربي من ويلامت يفتح سرداباً سماوياً ضيقاً يحقق الأمنيات. ولو كنت أعرف ذلك ربما تمنيت أشياء أثمن من مطلقة في الأربعين بأربعة أطفال لم تنزع شعر ذراعيها منذ ستة أشهر. ليتني تمنيت أن ينفحني أبي مبلغاً وسيماً، أو يمسح الله من التاريخ ذكرى المربع والزاوية البازلتية، أو أن ينطلق لساني مثل عدّاء أفريقي لا يوقفه شيء.

دعكت وجهي بيدي لأطرد بقية النوم ثم جلست على طرف السرير وأنا أسألها:

- متزوج من مين؟

- مغربية.

- وكيف عرفتي؟

زفرت وهي تعود إلى السرير:

- عرفت وخلاص.

- ولو طلقها فعلاً.. ستعودين إليه؟

- أكيد طبعاً.

- ....

ثم ضحكت فجأة وكأنما مسّها مرح مفاجئ:

- أقووول: لا تحلم.. لا تحلم...

ورحت أجاريها مرحاً حتى لا أبدو حالماً:

- لا لا.. الله يخليك.. لا ترجعين.. (أضحك).. خلينا نتزوج،

أخيراً يا بنت الناس.

واستمرّت غادة في ضحكتها العصبية وقالت وهي تسرّب كلماتها بين القهقهات:

– لا تحرّضني على خراب بيتي يا شيطان...

– يعني فكري فيها: على الأقل مستحيل أتزوج عليك!

– انسى الموضوع. أنت ما صدقت!!

قبلتني على عنقي وكأنها تغلق النقاش فعلاً. أطفأنا الأباجورة وعاد الظلام يكتنف الغرفة ويمنح مشاعرنا فرصة الرقص الصامت في فضائها المعدوم. اضطجعنا معاً على السرير ورحنا نتحدّث بصوت خافت. قالت غادة إنها لم تعد تريد منه إلا أن يكون سقفاً لأطفالهما وإنها لا تحقد عليه لأنه غر وساذج وكانت تتوقع منه هذه الانزلاقة. سرّبت يدي إلى بطنها ورحت أدبّ عليه بأصابعي حتى تعلم أني مستيقظ ومنصت. أخبرتني أنها تصرف على البيت أكثر مما يصرف هو وأن نصف دخله ينفقه على إخوته ووالدته في جدة. كانت تتداعى في الكلام حتى فقدت جملها ترابطها. تعاقبت على صوتها عدة نبرات حتى لم أعد أفهم أغاضبة هي أم حزينة؟ أم هي امرأة لم تعد تملك وقتاً للعق الجراح وترتيب الألم؟

غفونا لساعات قليلة في وضع أكثر شاعرية من أول الليل. وفي الصباح تناولت فرشاتي من الحمام بينما هي تستحم بوداعة. أخذتها إلى أقدم محال البانكيك في بورتلاند وجلسنا ننتظر دورنا مع آخرين في ردهة ضيقة بعد أن هطل المطر غزيراً. عاملتها ببرود ولامبالاة حتى لا تظنني أنوي تغيير شكل علاقتي معها بعد ظروفها

الجديدة. أكلت هي أكثر من المعتاد وطلبت مني أن آخذها إلى أطول ممشى في المدينة ونسيت غزارة المطر.

ماذا لو لم يطلق زوجها عشيقته المغربية الطارئة تلك؟ هل حقاً ستدخل غادة عالمي مثل ضيف متأخر جداً؟ هل سنتزوّج؟ بالتأكيد ستفعل لتبرّر حياتها الجديدة أمام أطفالها. هل سنتشاجر مثل زوجين؟ هل سنتخذ قرارات يومية مثل مصاريف البقالة ووقت العشاء ولون الستائر ونوع السيارة ومكان الإجازة؟ هل سيظل ذراعاها هكذا دائماً أم هي مجرد حالة إهمال مؤقتة؟

اقترحت وأنا أركب الموجة الأعلى من هذه الأفكار الزوجية أن آخذها إلى شقتي. وافقت هي تحت وطأة المطر المتزايد والبرد الذي بدأ يحبب كتفيها المكشوفتين. لم يرنا كونرادو ونحن ندلف إلى الشقة. رحت أدور بها على الغرفتين والصالة والمطبخ وكأني أعرض المكان للبيع حتى إني فتحت باب الثلاجة في غمرة الاندفاع دون أن أدري ماذا كنت أريد منها أن تراه في ثلاجة.

خلعت غادة حذاءها الأيمن وراحت تحك عقبها بعصبية. وقفت أتساءل إذا ما كانت ستخلع حذاءها الآخر كمن ينوي أن يبقى مدة أطول بعد أن شعرت بالارتياح للمكان أم ستعيد ارتداءه وتسألني أن أعيدها إلى فندقها لأي سبب. بعد ثوان خلعت حذاءها الآخر فشعرت بأن نبضة قلبي جاءت مختلفة اختلافاً طفيفاً عن التي سبقتها. تخيّلت أنها إذا استطاعت أن تخلع حذاءها بعد عشر دقائق فقط في شقتي فقد تخلع زوجها إذا أقامت هنا أكثر من أسبوع.

بأكثر نبرات صوتي بروداً قلت لها وأنا أتظاهر بأني أحاول إصلاح زر محشور في غسالة الأطباق:

– على فكرة، إذا موضوعك يمكن يطول ماله داعي المصاريف. تعالي اسكني معي لين ينتهي الأمر.

- لا لا لا...

قالتها غادة ثلاثاً وكأنها تستعيذ من شيطان. وراحت تقلب القنوات على التلفزيون. أخبرتها أنه يصعب عليّ أن أسكن معها في الفندق وكل ملابسي وأدواتي هنا «على الأقل اسكني في فندق أرخص!». بعد برهة من الجدال التقليدي فهمت أنها لا تمانع لسبب آخر غير الخجل وأنها كانت تنتظر إلحاحي. وافَقَت أخيراً وشعرت بأن قلبي يستحم في وادٍ من نور.

لم ترتد ملابسها سريعاً فور انتهائنا من الجنس تلك الليلة. ظلت تتعلل في السرير حتى حانت المرة الثانية. مرت كل هذه السنوات في علاقتنا وهي لا تعبّر عن شكرها نحوي بلغة أخرى غير السرير وكأني مراهق جائع لا ينشد غيره. كنت أعرف أن انتقالها إلى شقتي سيكون مثلما لو أني أقرضتها مالاً. الأربعون تجفّف أنوثة غادة حتى أصبحت حساباتها في الجنس واضحة. المرة الأولى محض رغبة، المرة الثانية محض شكر!

٣٤

أعدت ثابت إلى غرفته بعد أن تثاقل جفناه وبدأ يمدّ قدميه مصدراً تأوّهات طفيفة من خدر الجلوس. أزاح غترته تاركاً طاقيته البيضاء الصغيرة المتماهية مع بياض شعره المطلق فعرفت أنه يجب عليّ أن أتركه الآن. قبّلت جبينه للمرة الأولى التي أفعل ذلك فيها منذ عرفته بعد أن لمحت دموعه تهطل من عينيه العميقتين وتتدحرج في طريق صعب من وجهه.

اتجهت إلى غرفتي مباشرة. كان أمامي الكثير من الأوراق لتبييضها ونظم ما فيها من أخبار كثيفة قبل أن تفقدها ذاكرتي. ثابت يبدو متعاوناً ويتكلم بأريحية وسعادة. لا أدري لماذا اطمأن لي إلى هذا الحد ولكن عليّ أن أعرف منه أكثر قبل أن يأتي وقت الريبة وتريّث المسنّين.

شعرت لوهلة بأن ظل جدي الكبير يخيّم على البيت وأنا أمشي في فنائه قاصداً فيلتي. وجهه يطل كبيراً من السماء ويغطي الجدران والأسقف والملاحق ويمنحني شعوراً بالدفء لم أعرفه منذ طفولتي.

فجراً، تطلّب الأمر من أبي التفاتتين متعاقبتين ليتأكد من أن الذي يمشي وراءه نحو المسجد هو أنا فعلاً. ولولا أن ملامحه لا تتحرّك كثيراً بالتعابير المعتادة، لا سيما بعد استيقاظه من النوم، ربما رأيت ملامح دهشة مباغتة. أسعدتني قدرتي على إرباكه بحركة مفاجئة كذهابي للمسجد لصلاة الفجر. ألقيت عليه تحية صباحية شديدة التهذيب فغمغم بالرد دون اهتمام. التفت ناحيتي بعد قليل ليسألني أقصر سؤال يمكن أن يتنازل به أبي في هذا الفجر:

- شلونك؟

لم يكن ذلك سؤالاً معتاداً منه في هذا الوقت من اليوم وهو في درجة فظاظته العليا عندما يستيقظ من النوم كحال مدمني القهوة في مثل سنّه. أعتقد أن في سؤاله نوعاً من التلويح بالرضى عن سلوكي ويبدو أن رضاه أتى في وقته المناسب تماماً.

- بخير دامك بخير.

لحقت به إلى مجلسه الصغير بعد الصلاة. تناولت فنجان القهوة من يد شفيق المندهش من وجودي هنا في هذا الوقت المبكر وهو الذي تعوّد أن يقضيه مع أبي وحدهما طيلة سنوات. كنت عازماً على أن أدفع أبي للكلام ولو كلفني الأمر استفزازه بشكل مباشر يطيح بتلويحة الرضى التي لم أحصل على مثلها منذ زمن بعيد.

- ثابت يحكي لي عن جدي كثيراً منذ يومين.

مط أبي شفته السفلى بعد رشفة قهوة استطابها كثيراً كما يبدو ورمقني من جفن ما يزال مضرجاً بجعدات النوم ثم أجاب:

- ثابت؟ وش يدرّيه عن جدك!

– من يدري إذاً؟ أنت لم تكلمني عنه مطلقاً.

– وماذا تريد أن تعرف؟ الرجل مات. رحمة الله عليه. لا جدوى من الكلام عن الموتى.

– واضح أنك تتجنّب الكلام عنه. يبدو أنك لم تكن على وفاق معه.

كان منحى عبارتي الأخيرة حاداً جداً في حوار مع شخص مثله لولا أن القهوة استحكمت في ذهنه وبلغ بها حد نشوتها الأعلى وأصبح رائقاً جداً.

– لا أحد يمكن أن يكون على غير وفاق مع أبيه إلا أنتم يا جيل الشيطان. ليس للوالدين إلا السمع والطاعة. بلا مناقشة.

– بماذا كان يأمرك؟ وفيم كنت تطيعه؟

– في كل شيء، الشغل، البيت، السوق...

– ولكن ثابت يقول إنه لم يكن يظل في البيت. كان غائباً بين الجبال أغلب أيامه.

– ثابت لا يعرف شيئاً عن جدك. إنه مريض وكبير في سنه ولم يعد عقله بخير.

– ماذا كان يعمل جدي؟

– يرعى. كل الناس ترعى!

– وهذا يفسّر غيابه الطويل عن القرية؟

– طبعاً.

– ولماذا لم يكن ثابت يعرف أنه يرعى؟

– لأن ثابت لم يكن من الرعاة ولم يملك إبلاً ولا غنماً. إنه من

أدنى القوم. كانوا يعملون في السوق.

هزّ أبي فنجانه مرتين علامة الاكتفاء فالتقطه شفيق وغادر المكان. تجشّأ أبي وتمطى ثم وقف وراح يمشي بتثاقل باتجاه غرفة الإفطار التي تنتظره فيها شيخة. رحت أقارن بين قامته وهو يتجاوز الباب وأتذكر ما قاله ثابت عن قامة جدي العملاقة. هل كان ثابت يشعر بالنقص أمام جدي حتى قال عنه ما قال؟ هكذا ترابطت في ذهني عناصر كثيرة أشبه ما تكون بتحليل يهم بالولادة. ربما يجعلني أكثر حذراً لموثوقية ثابت.

بدت الأمور أكثر متعة عندما اتخذت هذا الطابع البوليسي في التنقيب والاستقصاء، لا سيما وقد التهم البحث عقلي آنذاك وتركني في حالة من الهوس لم تمر بي من قبل. تعملق حلمي بمآله وقدرتي على تحويله إلى عمل عظيم. فكرت أنه سيكون مشروع كتاب ثم مشروع رواية ثم موسوعة. وفي غمرة من غمرات الجنون وجدت فيه بذرة صالحة لمعارضة سياسية مؤثرة، ثم نظرية كبرى في علم الاجتماع، ثم نصوص إنسانية هامة قد تتحوّل إلى دين له أتباع بعد قرنين من الزمان.

كل هذا كان وأنا في سنوات الجامعة. أحاول أن أخترع لنفسي مجداً يجعل غادة تندم تدريجاً على تفريطها فيّ واعتناقها رجلاً آخر، فلا هي رجعت ولا البحث اكتمل. لم يبق منه إلا ما تحويه حقيبة سمسونايت قديمة جمعت فيها ذات قنوط مجموعة الأوراق المليئة بالمراجعات والملاحظات، وأشرطة التسجيل المليئة بأصوات أناس عديمي التأثير، ووثائق مسروقة من خزانة أبي لصفقات عقارية

قديمة، وقصاصات صحف صفراء فتشت عنها طويلاً في أرشيفات الصحف المحلية، وخرائط مرسومة باليد لقريتنا التي لم أزرها قط، وشريط الفيديو الصغير الذي لم تعد هناك كاميرا تصلح لعرض ما فيه من جلسات للعم ثابت وهو يتحدث بلا انقطاع عن ذكرياته مع أبي في الرياض.

اشتغالي سنتين على بحث وهمي كهذا في عرض مدينة كالرياض كان يشبه ما فعلته ماري كوري التي اكتشفت الراديوم وماتت من أثر إشعاعاته التي تعرّضت لها طيلة سنوات العمل. الفرق أني لم أكتشف شيئاً يخلدني في النهاية مثلما فعلت هي بقدر ما تورّطت في جمع القبيح والشاذ والكريه من نقائص مدينتي وذكريات عائلتي، ولم أخرج من ذلك كله لا بكتاب ولا شهادة ولا حتى امرأة.

ذلك البحث كان أسوأ قرارات حياتي. اخترعته وأنا في حالة من الكآبة وصفتها غادة بعد سنوات بوصف مبتكر (أزمة ربع العمر). كم أكرهها عندما تختصر حياتي في أزمات وحالات لها مسمّيات طبية. كل ما في الأمر أني كنت بحاجة ماسة إلى أيّ إنجاز أحقن به حياتي المرتبكة وأصنع من نفسي رجلاً تعتدّ العائلة به وأنا أعيش مع إخوة لم يعاملني أيّ منهم كأخ أكبر، وأبوين لا ينتظران مني أكثر من الأدوار المعتادة، وعشيقة أخبرتني للتو أنها ستتزوّج وترحل. كل هذا يحدث في غمار فراغ قاتل وسط مدينة يابسة لتوّها نفضت عنها إثارة حرب الخليج ودخلت مرة أخرى في غيبوبة الإسمنت والرمال.

ثقوب الوهم التي تركها ذلك البحث في صدري ما زالت واسعة لم تنغلق بعد. حالة من الفشل لم تتحوّل إلى حكاية طريفة من حكايات الماضي ولا إلى لعنة سابقة نحمد الله على تجاوزها. ظلت قائمة كمرارتها أول يوم. كلما تذكرتها وأنا أقرأ في صحيفة أو أسمع نشرة أخبار أتعجب كيف توهمت أني سأكتب بحثاً جاداً عن الرياض. الأمر يشبه دخولي نقاشاً عميقاً حول ماهية الاغتصاب مع شخص يغتصبني فعلاً. والرياض كانت تفعل بي ذلك يومياً منذ تركتني غادة كما تفعل بكل من يخرج عن سجل القوانين المقدسة الذي يحكمها.

كتبت كثيراً في بحث مثقوب عن مدينة لن تمنحني اعترافها أبداً. لم أكن أعرف أني كنت أسفّ رماداً وأستنشق الكثير من السم والدخان. وبعد عامين من العمل صار عقلي مأزوماً جداً. انتهيت من جمع كل المعلومات التي أحتاج إليها ثم وقفت عاجزاً عن كتابة ورقة واحدة في تحليل ما جمعته. هل أتوقف؟ هل أستمر؟ لا أدري. صرت مثل كائن برمائي أرغموه على أن يختار أحد العالمين ويضحي بالآخر إلى الأبد فجحظت عيناه من وطأة هذا الخيار الصعب.

صادفني الدكتور المشرف على البحث في الجامعة وأنا أدخن في ممر خلفي. أومأ لي بأن أدنو منه فأطفأت سيجارتي على كره واقتربت وأنا أتجنّب النظر إلى وجهه. سألني عن بحثي فأخبرته أني أنجزت أغلبه. طلب منّي نسخة مما أنجزته فأسقط في يدي. تعذرت بأعذار واهية فحدجني بنظرة متشككة وهو يقول:

– لا تظن أني ما أرسّب الخريجين. ترى أرسّبك ولا يهمّني شي!

– لا إن شاء الله ما توصل الأمور. ما يصير إلا الخير.

– توصل ونص. بعطيك أسبوع واحد تسلم فيه ما لا يقل عن خمسين صفحة تحليل.

عدت إلى البيت مثقلاً بالهم. عدّلت درجة التكييف إلى أبرد درجة ممكنة ثم ألقيت نفسي على فراشي ونمت نوماً مضطرباً مليئاً بالشجارات والكوابيس. استيقظت من قيلولتي فوجدتني غارقاً في ذبحة فكرية. بدا عقلي وكأنه يرشح ببطء من مسام جبيني مخلفاً وراءه هلاماً من الأفكار الشوكية الجافة. ظلّ مزاجي معكراً ومتكوراً حول نفسه ذلك النهار. ظننت أن مزاجي خرب بسبب القيلولة السيئة. همست لنفسي وأنا أنهض متثاقلاً من السرير «لعن الله النوم بعد العصر.. دائماً يسمم الجمجمة!»، ولكني اكتشفت تدريجاً أن ينابيع المرارة التي في صدري اختارت هذا اليوم الحار بالذات لتطفح وتعلن امتلاء صدري بالكدر المتراكم والآلام الصغيرة.

خرجت من فيلتي ومشيت مشية الديك المخذول في فناء البيت في الساعة الأخيرة من العصر التي تبدو دائماً كثقب برزخي يصل ما بين الرياض والجحيم. شعرت بأن أقزاماً قذرة تتسلق قلبي وتتعارك فيه بنزق وأن شيئاً ما في ضوء النهار المخنوق كان يسرّب غازاً مسيلاً للكآبة ويدفعني للبكاء. رشفت من كوب شاي هرع به شفيق حالما رآني جالساً على المقعد المعدني مثل تمثال مات نحاته قبل أن يكمله. تعرضت بكثافة لتلك الإشعاعات الضارة من الحزن

التي يطلقها نهار الرياض وهو يتجشأ راحلاً بعدما أكل طويلاً من هموم الناس وشرب من أحزانهم. تأمّلت حديقة المنزل بعشبها المحبط الذي يتأرجح بين الاخضرار والاصفرار، ونخلاتها التي تبدو غافلة عن كل ما حولها، ونباتات الزينة التي تمتدّ بمساحة تعادل نصف الفناء الأخير مثل محاولة فاشلة لتزوير هوية الرياض الجافة في بيوت القادرين.

في لحظة الذهول تلك عبرت أمامي عدة مشاهد متعاقبة. شيخة تعود من الخارج. تدلف سيارتها الجمس الكبيرة الفناء محدثة ذلك الهدير الجامح قبل أن تتوقف أمام الباب الداخلي وتقفز منها نورة ومنى. ينزل السائق حاملاً بضعة أكياس ويتّجه بها نحو الباب الداخلي ويلتقط بضعة توجيهات من شيخة ثم يقفل عائداً إلى السيارة. ينغلق الباب الكبير خلف السيارة وتندفع منى فجأة لتلحق به قبل أن تقفل عائدةً وهي تصرخ باسم دميتها التي نسيتها في السيارة ويختفي صوتها خلف الباب المزخرف الكبير. وبعد ثوانٍ يمشي عصفور رمادي ضئيل على حافة السور ثم يغثى، فيقفز عدة قفزات على الأرض قبل أن يلوي ذيله ويطير عكس اتجاه ما مشى مطلقاً زقزقة احتجاجية على نفاد النهار وتسرّبه. تميل الشمس في رحلتها نحو المغيب فيسقط ظل ثقيل على الناحية الغربية من البيت ويصبح للنخلات الست ظلال طويلة تخترق المساحات وتتسلق الأسوار. تتزايد زقزقات العصافير الرمادية التي راحت خماصاً وتطير بشكل هستيري بين غصن وآخر. يتناهى إلى سمعي أصوات احتكاك عجلات سيارة

مسرعة بالإسفلت تشي بحادث مروري وشيك أو نزوة مراهق يشعر بالكدر مثلي.

ويرتفع أذان المغرب...

يمشي أبي مشيته الوئيدة تلك مطلقاً عدة نحنحات عالية ممزوجة بأذكار وأدعية واضحة في بدايتها مبهمة في آخرها. يوزع نظراته على كل زوايا الفناء دون أن يراني ثم ينبه شفيق ليبدأ بريّ النخلات التي تثبت أركان البيت بعد أن تنتهي الصلاة. يهز شفيق رأسه وهو ينظر إلى النخلات وكأنه يتأكد من مواضعها في الحديقة. يعود أبي إلى همهمة الأذكار والأدعية العشوائية قبل أن يغيّبه الباب الكبير. يلحق به شفيق بعد دقائق وهو يشمّر عن ساعديه استعداداً للوضوء.

كنت أراقب المسرح الرتيب من ذلك الركن بثوب البيت المخطط بالأزرق والأبيض والذهن المتسخ بكل غبار المشاهد الرتيبة التي عبرت قبل قليل. أقفلت عائداً إلى فيلتي التي نفاني فيها أبي بعيداً عن العائلة. وعندما دخلت إلى غرفة المكتب التي كنت أعكف على بحثي فيها كان الطنين المتصاعد من عقلي لا يتوقف. جلست على مكتبي الذي كان مليئاً بكل ما له صلة بالبحث. كم أنفقت عليه من الوقت! كنت مثل الطيور البحرية في مواسم التزاوج. كل شيء مكرّس من أجل هذا البحث العظيم، من أجل البيضة الضخمة التي يجب أن تخرج أخيراً.

فكرت وأنا أتأمل سطح المكتب الفوضوي أن الدكتور الذي أبدى اعتراضه مسبقاً على منطلقات البحث لن يوافق تشعباته وأفكاره، وأن غادة التي سافرت مع زوجها فعلاً لن يعنيها موضوعه

واستنتاجاته، وأن عائلتي التي لا تنتبه أحياناً إلى غيابي من البيت ولو استمر أسبوعاً لن تعجبها فضائحه ومكاشفاته. فلملمت كل ما كان أمامي بهدوء ووضعته بعناية في قلب حقيبة السمسونايت ذات المزلاجين الذهبيين الصغيرين كما تأوي المومياء إلى تابوتها الأخير. أفرغت مكتبي من كل ما كان عليه من شوائب البحث. وأخرجت من أحد الأدراج علبة دخان ورحت أدخن بصمت.

انتهى الصيف واجتمعت مع الدكتور الذي كان ينتظر البحث. طلبت منه أن أشرع في بحث جديد حول موضوع آخر فرفض بشدة وأصرّ على أن أستمر في البحث الذي اتفقنا عليه سلفاً. سخرت من تمسّكه بذلك البحث فشتمني. ألقيت الأوراق التي كانت في يدي على مكتبه وخرجت لا ألوي على شيء. استُدعيت إلى مجلس التأديب الأكاديمي بعد ثلاثة أسابيع وأصرّت اللجنة على اعتبار رمي الأوراق أمام الدكتور تعدّياً بالضرب لأنها مسّت وجهه بالفعل. خرجت من الغرفة قبل انتهاء جلسة التأديب فاتخذوا قرارهم غيابياً بفصلي من الجامعة.

٣٥

أخبرت غادة أن مجلة القندس الكندية الشهيرة غيّرت اسمها العريق الذي اشتهرت به طيلة تسعين عاماً لأن كلمة القندس أصبحت شوارعياً تُستخدم لوصف عضو المرأة. لم يبدُ أن المعلومة استهوتها. كنت قد وقعت على هذا الخبر وأنا أبحث في الإنترنت عن حياة القنادس إبان المهرجان الذي انتهى وسيعود في السنة القادمة. لا أعرف ما إذا كانت غادة ستبقى هنا حتى تدركه أم لا.

مرت ثمانية عشر يوماً ولم يبعث محسن وثيقة الطلاق. يبدو أنهما وقعا معاً في أزمة كبرياء ستطول. أخرجت غادة ملابسها من الحقيبة فعلاً واحتلت جزءاً من خزانتي الصغيرة بدعوة منّي. بدأت أشعر بالقلق. عندما نخرج للعشاء كانت تتأخر كثيراً في إخراج محفظتها لتدفع وتدعني أسبقها إلى ذلك أكثر من عشر مرات ولم تدفع هي إلا مرتين. وعندما أتذكر كيف كانت أثناء لقاءاتنا في أوروبا تصر على أن نقتسم كافة التكاليف لا يسعني إلا أن أشك أنها متورطة في موقف لم تستعد له بما يكفي.

أزعجني نومها المتقلب. أحياناً لا تستيقظ إلا ظهراً ولا تنام إلا إذا تنفس الصبح. وأنا رغم فوضاي وفراغي لم أعتد مثل هذا منذ أتيت إلى بورتلاند وإن كنت كذلك بالتأكيد في ما سبق. كانت تتجول في الحيّ وحدها لأوقات طويلة مدّعية أنها تجري اتصالات هاتفية، وأحياناً تعود بعلب مختلفة الأحجام لوجبات سريعة التحضير تناسب أوقات نومها المتقلبة، ومنذ اليوم السادس اكتشفَت أين أضع بطانيات الشتاء فأخرجتها لتكدسها في الشق الضيق بين السرير وخزانة الملابس وصارت تنام هناك مدّعية أن النوم على الأرض يريح ظهرها ويجعلها أكثر نشاطاً.

الجينز الذي تعلقه في المشجب الصغير خلف الباب يكفيها أسبوعاً. تتناوب عليه بضعة قمصان لا تعتني بانتقائها. كانت تستحم كلما استيقظت من النوم صباحاً أو مساءً ولا تفعل أكثر من ذلك. حتى علب زينتها التي أزحمت حمامي ظلت مثلما هي ولم تتحرك. في منتصف المدة اكتشفت أنها نزعت شعر ذراعيها فعادا أملسين كما لعقتهما أول مرة نمنا فيها معاً في جدة قبل عشرين سنة ولكن رغبتها في إغوائي تضاءلت كثيراً خلال هذه السنوات حتى أظنها الآن لا تنزع شعرها إلا لترضى عن نفسها فقط.

لم يرقها كونرادو منذ التحية الأولى. يبدو أنه لمس ازدراءها له فلم يعد يمنحها في المقابل أكثر من ابتسامة مزمومة كلما التقيا عند عتبة الباب. وعندما طرق بابنا ذات ليلة ليمنحنا شريحتين طازجتين من الدجاج مدهونتين بالليمون والسكر البنّي فرحت أنا بهما وتقززت هي. وتفرجنا على حلقة المساء من كونان أوبريان

وأنا آكل الدجاج وحدي بعد شيّه سريعاً في الشرفة بينما راحت هي تنقب بالملعقة الصغيرة في قعر علبة زبادي مخصصة لتخفيف الوزن.

ماذا أفعل بامرأة تعيش معي وكأن شقتي محطة انتظار؟ وماذا سأفعل معها لو أنها قرّرت أن تجعلها محطة وصول؟ عشرون عاماً وأنا أشعر بأن الفكرة تستعصي حتى على الحلم ويصعب عليّ ترتيبها في مشهد مشجع أو تنسيقها كباقة من الطموح. الآن هي أقرب إلى الحقيقة الصاخبة التي تجفل منها أعصابي وتدق جرس القلق الهائل في داخلي. يا لي من رجل منحوس. حتى عندما تتحقق أحلامي.. أجفل منها!

هل لأنها لا تبدو الآن مثلما اعتدت أن أراها: أنيقة وجميلة ومشغولة؟ ربما لأنها صارت تشبهني إذاً وأنا لا أستطيع العيش مع مرآة صقيلة تعكس لي وجهي كل يوم. إنها لا تعرف أين ستتجه ولا كيف تعيش بينما أنا الذي صرت أصيد السمك في الصباح وأشرب النبيذ في الظهيرة وأتفرج على التلفزيون في المساء اعتدت هذا النظام الذي لا يمكن معه التسرّب إلى الفوضى مرة أخرى ولا أتحمّل أن تعيدني إليها غادة.

أعتقد أنها ستفجع لو اكتشفت ما أفكر به. لا شيء يجعلها تقضي معي قرابة الشهر دون أن تعرف كيف تعمل غسّالة الأطباق ولا أين يقع مكب القمامة العام إلا إذا كانت على ثقة عمياء بأني أعبد اللحظات التي تقضيها ومعي كأنها مسروقة من جيوب ملائكة. تظن أني منغمس في الامتنان لحضورها حتى لم تعد تعنيني الأذرع المهملة

والشعر المتهدل والوجه الممتقع بلا ألوان. لقد وضعتني فعلاً في درج الأشياء التي لا يخشى ضياعها. لم ينتبه ذهنها المشغول إلى مغزاي وأنا أخبرها عن المجلة الكندية التي كان اسمها القندس. لم تنتبه لي وأنا أثبت فواتير البقالة الطويلة بقطع مغناطيسية على باب الثلاجة بدعوى أني أراجعها لاحقاً. لم تنتبه لي وأنا أعرّفها إلى أصدقاء عابرين في إحدى السهرات على أنها صديقة فقط.

يتصل بها أبناؤها كل يوم تقريباً فتمنحهم إرشادات عامة. وتتصل بها والدتها من جدة فيتحوّل صوتها بعد دقائق من الكلام إلى خليط من الغضب والبكاء. تتصل بها صديقة لا أعرفها فتتحدثان عن أزياء وموضات حديثة تجعلني أشعر بالحنق من الجينز المصلوب على المشجب. يتصل بها خالها الذي كان مسؤولاً حكومياً رفيعاً في ما مضى فتتحدث معه مثل متهم غاضب أمام قاض غبي. تقضي ربع يومها وصوتها معلق في الأثير مع أناس في النصف الآخر من الأرض، وعندما تنتهي من جدلها وصخبها تتمدد مثل طاووس ذابل الريش وتضع رأسها على فخذي ثم تطلب أن أخلل شعرها بيدي.

سألتني أكثر من مرة كيف أتدبّر أمري هنا وأخبرتها بأقل قدر ممكن من التفاصيل أن أبي يتكفل بكل شيء ثم أردفت بسخرية مقصودة «ولا يمكن الوثوق بمزاج أبي!». في الحقيقة إن أبي لم يكن يعرف في أيّ جهة من الجهات الأربع يمكن أن أكون الآن، ولم يعرف حتى الآن عن الثقب الذي أحدثته في تجارته ذات يوم ليتسرّب لي منه بعض المال، وربما لا يعرف ما إذا كنت أقضي ليلتي في فيلتي الغربية تلك أو على ضفة نهر في أقصى العالم. كلما تكوّنت جلطة

جديدة في رأسه نسي ابناً من أبنائه. كنت أنا ضحية الجلطة الأولى بالتأكيد.

مهما كان ما تعتزم غادة فعله فعليها أن تثق تماماً بأنه لا يمكن الاعتماد عليّ. لا أعرف ما إذا كانت بورتلاند ستظل على حيادها أو ستنتبه فجأة إلى هذا الرجل الذي يدبّ على ظهرها مثل برغوث فتقذفني مرة أخرى إلى بلادي. لا يمكنني المكث بتأشيرة سائح إلى الأبد وحتى الآن لم أسمع أخباراً جيدة من وكالة الهجرة التي سلمتها أوراقي. عليها أن تعرف أيضاً أن قلبي لم يعد شاباً يمكن تشكيله على مقاس أنوثتها وقد تكفيه نزوة واحدة من نزواتها ليحرق كل أوراق الماضي ويتثاءب مثل أسد عجوز ويعود إلى النوم. هذا على افتراض أن قلبي قد وقع مجدداً في حبّها المشوب بالتوجّس. وإن لم يفعل فعليها أن تعتاد العيش مع كرة من المطاط الأحمر في صدر رجل لم يعد يدهشه شيء.

تمنيت في قرارة نفسي أنها منتبهة لكل هذا. ولكن ماذا لو خانها ذكاؤها في هذا الظرف الصعب الذي تمر به؟ ستحين إذاً لحظة مصارحة حتمية. ولكني أؤجلها حتى نعرف نهاية لعبة المكابرة التي يمارسها محسن، وما إذا كان السحر الذي ربطته به المرأة المغربية كما تعتقد غادة سيخرج من عينيه مثل خفاش مذعور أم سيسكنهما إلى الأبد، ويبقي غادة كما أراها أمامي الآن... تخدش بطاقة هاتفية جديدة لتتّصل بأحد أبنائها أو صديقاتها.

٣٦

ثار أبي بشدة على قرار فصلي من الجامعة. لحسن الحظ، انصبّت ثورته على الجامعة التي جرؤت على فصل ابنه لا عليّ. أخبرته أن سبب خلافي مع الدكتور كان لإصراره على أن أضمّن بحث التخرّج شيئاً من أسرار العائلة. احتقن الوريد الجنوبي في جبين أبي وهدّد بأن يفعل بهم ما سيفعل. زار إدارة الجامعة بالفعل وأطلق أمامهم تهديدات خيالية. بصق على وكيل الكلية ثم وكيل الجامعة وظل يطلق تهديداته في كل مكان لمدة يومين قبل أن يهدأ غضبه ويدعوني أخيراً إلى مجلسه.

دلفت مجلسه لأجده جالساً في رأسه. يقف أمامه شفيق حاملاً دلة صفراء لامعة وفنجاناً واحداً سرعان ما أردفه بآخر عندما رآني في المجلس على غير عادتي. جلست أمامه وأنا أنتظر تقريعاً مؤجلاً لم يسمعني إياه عندما كان غضبه منصبّاً على الجامعة وظننت أن دوري قد حان:

– اسمع وأنا ابوك...

- سَمْ...
- أبيك تروح.. وتدرس في أمريكا.
- ....
- هذولي همج وأنا أبوك، لا يهمونك.
- سَمْ..

وانتهى لقائي معه. تركت مجلسه الصغير وأنا لا أزال مندهشاً من هذا العرض الغريب. أبي الذي كان ينتظر تخرّجي بصبر نافد ليزج بي في ذلك المكتب المفروش والمغلق منذ سنتين في مبنى مؤسسته العقارية في انتظار تخرّجي يعرض عليّ الآن عدة سنوات أخرى من الدراسة خارج السعودية. ماذا جرى يا ترى؟ استمرّت مظلة الدهشة مفتوحةً فوق رأسي طيلة النهار ولكنها لم تمنعني من اتخاذ ترتيبات السفر فعلاً.

عندما زرت أمي بعد أيام عرفت السبب. زار زوجها صديقاً له يعمل في منصب كبير في الجامعة وحدّثه بشأني. لم يكن ذلك الرجل من ضمن الذين بصق عليهم أبي ولا من الذين ساق عليهم قافلة اللعنات في ذلك الصباح فوعده أن أعود إلى الجامعة في الفصل المقبل فوراً. وعندما تسرّب الخبر من بيت أمي إلى بيتنا عن طريق عمّتي فاطمة شعر أبي بأنه أصيب في مقتل قديم. أن يفشل هو في إرجاعي للجامعة بينما ينجح في ذلك إبراهيم، زوج طليقته.

لم تكن تلك مجرد صفقة خسرها أمامه بقدر ما رأى فيها محاولةً صارخة لسرقة بنوَّتي له، فسعى لصرف نظري عن العودة للجامعة حتى لا تكتمل الصفعة. قدّم في سبيل ذلك عرضاً لا يمكن أن

يقاومه شاب مثلي في أوائل العشرين آنذاك. فكرت أني لو تمسّكت بوساطة زوج أمي فسأكمل سنة واحدة في الجامعة ثم أتخرّج بدلاً من أن أبدأ من الصفر في أميركا. ذهبت إلى زوج أمي لأستشيره فنصحني بأن أبقى ثم أسافر إلى أميركا بعد تخرّجي من أجل شهادة عليا. أخبرت أبي برأي زوج أمي فبدا كأنّ وعلين غاضبين طفقا يتشاجران في جبينه ويضربان قرنيهما المتشعبين ببعضهما.

– الحين أقول لك سافر أدرس برا وتروح تشاور رجل أمك يا دلوعة أمك؟ ما تفهم الكلام انت!

– بس كذا بتضيع علي ثلاث سنين وبتأخر....

– تضيع ما تضيع. لو في راسك مخ كان سنّعت عمرك لكن الحين كتب الكتّاب ورفع يده. رجعة لجامعة الملك سعود ما فيه.

– بس سنة وحدة لين اتخرج!

– لو فيه شمس كان من أمس. يعني هالسنة اللي بتخليك رجّال؟

ثم قام من مقعده وخلع غترته وشمر ساعديه استعداداً للذهاب إلى الحمام. وعندما مر بقربي حدجني بنظرة صارمة وهو يقول:

– فيزتك طلعت؟

– ايه نعم. طلعت.

– لا يجي الاسبوع الجاي إلا وانت في أمريكا. فهمت؟

– سم..

بعد أسبوع من ذلك دخلت بورتلاند للمرة الأولى. بدت أكثر حياداً آنذاك أو أني كنت محجماً عنها بعد أن خرجت لتوّي من معركة

غير متكافئة مع مدينة أخرى. كنت أشعر بأن في صدري بطارية مليئة بالاعتداد شحنها أبي بموقفه ذاك كما شحن حسابي البنكي أيضاً بمبلغ لم أتوقعه. استقبلني ويلامت في العشرين واستقبلني في الأربعين ولم يبدُ عليه أنه أدرك الفرق بين القندسين مثلما لا يبدو عليّ وأنا في بورتلاند اليوم أني أدركت الفرق بين المدينتين.

دخلت إليهما كل مرة بخريطة ناقصة ووعي مزيّف. في الحالتين جئت لأكون رجلاً أفضل ولا يبدو أن ذلك تحقق قط. عشت في الرياض على أطراف مثلث يجمع الناصرية بالمربع بالفاخرية قبل أن يحملني النزق إلى تخريب هذا الشكل الهندسي بنقطة بعيدة جداً في بورتلاند. كلما تأمّلت هذه الخريطة تساءلت عن الأشكال الهندسية المحتملة التي يمكن أن أخلقها في السنوات القادمة. أين يمكن أن أرحل؟ ومع من يمكن أن أعيش؟

تأمّل الخرائط طالما شط بي بعيداً عمّا أنشده منها. لم تساعدني خريطة من قبل على فهم الاتجاهات بقدر ما زادتني ضلالاً وغربة. نفتح الخرائط لنعرف أين نحن، وإلى أين نتجه. ولكني لم أنجح يوماً في إجابة السؤال الأول فظل السؤال الثاني دائماً صعب المنال وعسير الإجابة، لا سيما أن خريطة الرياض تبدو دائماً مثل خدش هائل في ظهر الصحراء يجتمع حوله الصديد والكره وتحرّضني دائماً ضد المدينة. كلما طالعتها طرحت عليّ أسئلة الانتماء والحب والذاكرة الشقية.. وأسئلة أخرى لا يمكن أن تكون إجاباتها مريحة أبداً.

كانت تلك أول رحلة لي خارج السعودية، من الرياض إلى

بورتلاند، مروراً بلندن التي لم تكن غادة قد استقرت فيها بعد ولم تزل آنذاك تتبع زوجها في سفارات عديدة حول العالم حتى انتهيا أخيراً في تلك المدينة التي حرّمتها عليّ فلم يعد يمكنني أن أطأها إلا كالعابرين الذين تحجب القبعات العريضة نصف وجوههم. لم تكن أيامي الأولى آنذاك تشبه أيامي هذه. ويلامت حينها كان منفضة متعاونة أطفأت فيه أوجاعي التافهة فابتلعها بهدوء مثلما يبتلع حشرة غارقة في تيّاره العريض. رقصت في كل ملاهي المدينة المعدودة آنذاك، غازلت الفتيات الممكنات بلغتي الركيكة وحضارتي الناقصة، تسكعت في الشوارع التي لم تتغيّر كثيراً عنها الآن، أنفقت خمسة أشهر بسرعة وعدت إلى الرياض بلا شهادة ولا مال.

في طريقي إلى مطارها آنذاك لمحت لوحة إرشادية تدل على الجامعة التي كان يفترض أن أدرس فيها شمال المدينة ولم أشعر بالخسارة. كنت أعلم أني عائد إلى الرياض وقد أفرغت قنينة النزق في ويلامت ولم يعد في روحي نشوات أخرى. وكنت أعلم أيضاً أن أبي الذي لم يهاتفني مرة واحدة منذ وصولي لا ينتظر مني شهادة على أي حال. رغم ذلك كانت عودتي تلك تشبه الراحة الناقصة. شيء جميل ولكنه غير مكتمل. يشبه شرب العصير الحامض بحلق مقروح أو الاضطجاع على أريكة مكسورة. كنت سعيداً بعودتي بلا شك دون أن أنتبه إلى أن في هذه السعادة المبهمة ملامح مازوشية. يبدو أني أدمنت مناكفة الرياض ولهذا أترك بورتلاند ونهرها وغاباتها وأمطارها ووجهها المتسامح الطيب وأعود لألتصق بجذع الرياض مثل شرنقة لم يحن وقت خروجها بعد وما زال في الجذع دروس أخرى.

أتذكر هذه التفاصيل الخشبية وأنا في الأربعين الآن وكأني أحارب الغبار برئة قديمة. يستعصي عليّ فهم الحالة التي كنت عليها والدوافع التي خلقت تصرفاتي فأجدني أحيلها إلى تبريرات لا أصدقها أنا نفسي.

بعد أيام قليلة جداً من عودتي تشاجرت مع أبي شجاراً حاداً. وعرفت أن هذا الشجار المتوقع هو ما يشوّه ملامح عودتي المطمئنة. كنت أتكئ على مسؤولية مفروضة عليّ لا أدري كنهها وأرفضها داخلياً دون أن أعلن هذا الرفض.

– تشتغل معي.

– لا طال عمرك، ما ودي.

وارتفع حاجبا أبي بدهشة صيّاد يحاول أن يفهم أين اختفت طريدته:

– وليه ان شاء الله؟

– لأني ما ارتاح لطبيعة العمل وما أفهم في العقار والتجارة!

– ومن طلب منك ترتاح؟ هذا أمر، مهوب طلب!

– يمكنني أن أعمل في أي مجال آخر.

– مثل؟

– نشوف. الله يرزقنا...

– وش تشوف؟ وين تبي تشتغل؟ والا تبي تقعد في بيتي مثل بنت حلال لين يجي نصيبك؟؟

– يمكن وظيفة حكومية. أيّ شيء. أيّ وظيفة. لكن العقار والتجارة ما تناسبني.

- عجيب!

ومدّها أبي في فمه عدة ثوان كما يفعل دائماً بهذه الكلمة التي لا تنذر بخير قبل أن يردف بغضب يتصاعد:

- أجل هذا اللي استفدته من أمريكا؟ الضياع وقلة الدبرة.

أوصدت بهدوء ذلك الباب الحديدي الذي يحول بيني وبين ثورة أبي. عزلت نفسي وراءه كما اعتدت منذ طفولتي وعلقت في محجريّ عينين ميتتين لا تريان أبي وثورته إلا موجة متجاوزة وسيحسرها الجزر قريباً. حذرت أذنيّ من أن تحاولا ترجمة كلامه البغيض وأهبت بهما أن تتركاه يتسرّب كسيل من الضجيج لا أكثر. وأذكر أنه أطلق شتائم لم تخرج من فم أب قبله ولم تلتقطها أذنا ابن قبلي، وأنا واقف أمامه مثل تمثال مصمت، أستقبل كل نعوت البلادة والعقوق والضياع التي يبتكرها خيال أبي بمهارة ومقارناته المعتادة بين شبابه وشبابي.

- يوم أجي من أبها والحياة صعبة. اشتغلت وكدحت لين خليتك رجّال، يا قليل الشيمة، يا عديم المروءة، لا يفيد فيك لا تربية، ولا تعليم، الله لا يبارك فيك من ولد، يالحمار، ياللي ما تستحي على وجهك.

لم أنبس ببنت شفة. كنت عازماً على امتصاص نقمته لعله يفرغ كل غضبه الآن دفعةً واحدة بدلاً من أن يقسطه عليّ بعد ذلك شهوراً عديدة.

- ملعون أنت وأمثالك، صايع وضايع وما في قلبك دم، لو تعرف قيمة هالثوب اللي على ظهرك، لو تعرف ثمن هاللقمة اللي

في بطنك، شاطر في النوم والسربتة يا ملعون الجدف، ولا جا وقت الجد، لا جت نفعتك يا كلب قلت مانب مشتغل!

- ....

- أنت آدمي أنت ولا وش أنت!!

واستمر أبي في الهدير مثل سيل عرم. كلما ازداد غضبه نحت شتائمه منحىً سوقياً ورماني بكل الرذائل التي يمكن أن يمارسها وضيع ما. وصفني بكلمات لم أكن أتصوّر أن أبي يحملها في قاموسه حتى سمعتها منه تلك الظهيرة القاتمة. كان إمعانه في إطالة قصيدة السباب تلك لا يشي بغضبه فحسب بل يهدف به إلى هدم جدار العناد في داخلي. ولهذا هو يسدّد كلماته إلى مفصل الكرامة العميق لعله ينكسر فأتراجع. يسعى إلى تحطيمي كرجل حتى يتسنّى له أن يعيد بنائي من جديد كما يريدني. يشتمني بضراوة عدو يائس وهو يحمل في داخله بذرة أمل في تغيير قراري. ينادي بصراخه الهائل ذلك الابن الميت في داخلي. يبحث عن أيّ خلية تشبهه في جسدي، أيّ صفة متنحية ورثتها عنه، أيّ شيء يمكن أن يجنده لصالحه في تلك اللحظة الحاسمة.

ولا أدري أيّهما صبّ كل تلك البلادة في عروقي، الملائكة أم الشياطين؟ كنت أقف أمامه وكأني أستمع إلى مذياع مرتفع الصوت لا أكثر.

- صدق ان العرق دسّاس. هذا انت طلعت لخوالك الله يلعنك ويلعن خوالك، طلعت على امك القحـ..، ولعب عليك ذاك الذنَب الديوث زوجها، لكن والله ما تروح من يدي، وانا وراك

والزمن طويل يا لعين.

وأطرقت. تخيّل أبي أني تفوّهت بعبارة ما فقرّر أن يستخدمها ليطردني من مكتبه.

- لا تقول ولا كلمة، اطلع برا ولا أشوف وجهك، انقلع.

وفي طريقي خارج المكتب لمحت في جفن شفيق دمعة صغيرة لا أدري ما الذي حرّكها. ربما كان متأثراً لفرط ما أخافه صوت أبي وثورته الهائلة حتى لو لم تكن ثورته منصبّة عليه هذه المرة. ربما كان ينتظر أجواءً صافية يطلب فيها من أبي إجازةً أو ما شابه ذلك وأفسدتها أنا عليه. ما زال وجهه الدامع عالقاً في مخيّلتي وقد بكى من خلف جدار سميك تأثراً بانفعال أبي بينما ظل وجهي أنا جامداً كالجبس.

ركبت سيارتي واتجهت إلى المطار مباشرة وأنا لا أدري إلى أيّ اتجاه من الاتجاهات الأربعة سأرحل. فعلت تماماً مثلما يفعل الأبناء الغاضبون في المسلسلات الرديئة. لم أكن غاضباً بل مشتتاً فحسب. رغم مراني الطويل على تجاهل كلامه وثوراته إلا أن ثمة أشياء متدافعة بقوة حرّكها أبي بانفعاله هذه المرة وظلت تتصادم في داخلي مانعةً إيّاي من التركيز والفهم. في المطار كانت الرحلة الأقرب على لوحة المغادرة تطير إلى القاهرة. قطعت التذكرة على عجل وركبت الطائرة بلا أمتعة ولا أفكار.

٣٧

ستسافر غادة إلى لندن فجر الغد وتجتمع هناك مع حكم من أهلها وحكم من أهل محسن كما اقترح خالها. تنازلت بعد ستة وعشرين يوماً عن شرطها الصعب بأن ترى وثيقة الطلاق أمامها قبل أن تعود ولكنها لم تتنازل عن ضرورة انفصاله عن الزوجة الأخرى أولاً. في الهاتف، حيث كانت ترسم مع خالها خطة اجتماع الصلح المرتقب، سمعتها تقول: «وكمان ركز على نقطة.. لو كانت بنت الكلب دي حملت منه لازم تنزّل الولد. مستحيل يكون أخو أولادي منها هي. ولو ما نزّلته ما راح أرجع حتى لو طلقها عشرين طلقة!»، ثم تستمع إلى كلام طويل يتهدّج بعده صوتها آخر المكالمة وتقول «شكراً يا خالي..».

خرجنا إلى المول لتشتري هدايا لأبنائها قبل العودة. قالت لي ونحن في الطريق «ما أدري وش كنت حاعمل من غيرك». ضممتها إليّ ضمّة جانبية ولم أتكلم. ظلت تداعب شعر سالفي في السيارة وكأنها عاشقة للمرة الأولى وتبتسم لي ابتسامات تشبه تلك التي

نراها في أغنيات الفيديو كليب العربية. كنت راضياً عن نفسي لأني تصرّفت معها كرجل نبيل جداً طيلة شهر ولكني كنت أفكر أيضاً أن تعاملني بطيبة وحب من فرط سعادتها بقرب انفراج مشكلتها العائلية.

جلست في أحد المقاعد المتناثرة في المول الكبير غير بعيد عن عربة البائع الذي أبكاني في الصيف الماضي بينما راحت هي تطوف المحالّ وتعود إليّ من حين لآخر لتترك معي الأكياس التي كدّستها أخيراً لأرفع عليها قدمي التي التوى كاحلها هذه الظهيرة. تجاذبتُ أطراف الحديث مع بضعة مراهقين بقربي قبل أن يملوا من إنجليزيتي الضعيفة ويمتطوا زلاجاتهم منطلقين بها بعيداً.

كنت مرتاحاً لسفر غادة إلى حد أني تمنيت في قرارة نفسي أن ينجح هذا الصلح. أسابيع قليلة من الإقامة المستمرة تحت سقف واحد معها كانت كافية لإقناعي بأن أوهام علاقتنا لم تكن إلا مشاعر ساذجة نسجها الغياب. شيء من مراوحة الفراق والوصال التي ارتكبناها طيلة عشرين سنة هو الذي أوهمني أن ما بيننا ثمين ويستحق الأمل. الحقيقة التي كشفها استيقاظنا معاً في الصباح على أمزجة متناقضة وصمتنا الطويل في المساء أمام برنامج تلفزيوني، هي أن علاقتنا برمّتها لم تكن أكثر من صدفة غير متقنة. الآن أكتشف بشعور مختلط بين الألم والراحة أن الجوهرة الصغيرة التي احتفظت بها في صندوق مخملي في أقصى القلب كانت مزيّفة ولا تستحق سوى ثمن بخس من النزوات الطارئة.

لم يكن هذا الاكتشاف المتأخر هو ما يجعل أمر بقائنا معاً بهذه

الصعوبة بل لأنه قد مضت سنوات فوق حاجز الأربعين ولم أقتسم سقفاً واحداً مع شخص آخر من قبل لشهر كامل إلا هذه المرة. الأربعون تغلق أبواب الاعتياد وتطرد من مفاصلنا آخر قطرات المرونة. لا يمكن أن أعيش مع امرأة حد الالتصاق ولن يخرج من صدري طائر الوحشة الأعمى ولو أشعلت من حوله كل مصابيح العالم.

أظن أننا سنعود إلى سابق عهدنا رغم أننا لم نتفق على ذلك بعد: اللقاءات السرية الخاطفة التي تصلح الأجزاء المعطوبة من الروح وتبثّ فيها حياة الموسم القادم. ربما ستطول لقاءاتنا ويزداد عددها بعد فعلة محسن التي لم تبق له عند غادة إلاً ولا ذمّة، رغم أن وجهها المستدير لم يعد كامل الألق وأصابعها تضاعفت حجماً حتى بدا لي كأنها قلت عدداً، وصرت أحصي في بطنها إذا جلست ثلاث طيات، ولكن منذ متى أنا ألتقيها لجمالها؟

عادت غادة إلى مكاني في المول وقد تغيّر لون شعرها وطوله. راحت تدور حول نفسها أمامي لتجعله يطير مثل مروحة وقبّلتني على فمي. تناولنا عشاءنا الأخير في أحد المطاعم الفارهة وأصرّت غادة على أن تدفع الحساب هذه المرة. عدنا إلى البيت والمطر يصرخ في وجه بورتلاند مثل قائد يوشك أن ينهزم. اكتشفت في الشقة أنها اشترت لي علبة حلاقة مذهبة وثمينة كهدية.

غابت في الحمام طويلاً بينما أنا أقرأ مجلة دعائية وجدتها معلقة على باب الشقة ثم خرجت إليّ وهي ترتدي بنطالاً جلدياً أسود وقميصاً مشبكاً يظهر ظهرها وكتفيها وبطنها كذلك الذي

ترتديه العاهرات ثم راحت ترمقني بنظرة سينمائية وتتحرك بطريقة استعراضية. بدت لوهلة مثل قطة فارسية سمينة محشورة في حذاء أسود طويل العنق. راحت تمشي فوق السرير وهي تضحك بخفة. أبديت اندهاشاً وإعجاباً مصطنعين بينما سجد في داخلي رجل أشيب شاكراً الله على رحيلها القريب.

اجتهدنا معاً في نفاق سريري مليء بالوله والآهات الكاذبة. كان ذلك ثقيلاً عليّ مثل المشي في سوق شعبي مزدحم. ليتها لم تكافئ الرجل الذي أعجبها نبله بالتنكر على شكل عاهرة، وليتها لم تفتعل هذا الشبق الزائد الذي يمكنني بسهولة أن أفسره على ضوء قارورة النبيذ الرخيصة. حاولت أن تجعلني أرقص فاعتذرت بكاحلي الملتوي وقلبي الذي يكاد يتقيّأها خارجه. أخيراً هَجَعت إلى جواري مثل كومة ذنوب وراحت تستعد للنوم معي في السرير هذه المرة. لم أنم قط.

٣٨

وطئت مطار القاهرة مثل مسافر تائه استقلّ الطائرة الخطأ. دخنت فور نزولي سيجارة لم تختلف مطلقاً عن طعم تلك التي دخنتها قبل ركوب الطائرة. مشيت باتجاه بوابة الخروج عازماً على أن أترك لسائق التاكسي مهمة اختيار الفندق. كان معي مال كاف بعد أن طلبت من باسل أن يضع في حسابي بعض المال ففعل، وأظنه لم يستشر أبي في ذلك. لا بد من أن أبتعد عن طريق هذا المسنّ المجنون بعض الوقت لأحمي نفسي من سيل سباب آخر يكمل بعثرتي. ناسب ذلك التبرير موقفي المؤقت لا سيما أني احتفظت بشيء من عنفوان إقامتي القصيرة في أميركا.

مكثت في القاهرة شهراً كاملاً. حاولت إعادة ترتيب الأوراق المختلطة في حياتي في مدينة محايدة. لأول مرة أجد نفسي أمام مساحة خاوية من المستقبل يجب أن أملأها بنفسي. تدرجت في المراحل الدراسية وكأن كل مرحلة تكفيني وعثاء القرار ثم ها أنذا الآن بلا مراحل ولا قرارات. إذا لم أعمل مع أبي فماذا سأكون؟

أنا المفصول من جامعة والمنسحب من الأخرى؟ أنا المطرود مثل مخلوق تعيس من جنة أبي؟ أنا الذي تراقبني الرياض بأعين واسعة وحمقاء؟

كل شيء في حياتي كان يتصادم معي مثل كرات البلياردو الصماء مخلفةً وراءها صداعاً دائماً وفراغاً دائرياً من الحيرة والضآلة والفشل. لم تقدّم لي القاهرة أيّ حلول. قد تكون المدن أمكنة مناسبة للاستجمام والراحة ولكنها ليست عيادات نفسية. وعندما نكون تائهين وحيارى لا تكون المدن حينها سوى منحوتات ضخمة بعثرها الله فوق الكوكب. تعلمت بعد ذلك أنه عندما أشعر بالضياع التام فمن الأفضل أن ألزم مدينتي التي ضعت فيها ما دمت أعرف شكل ضياعي على الأقل بدلاً من الدخول في ضياع آخر. تماماً كما كانت تقول اللوحات الإرشادية عند مداخل الغابات في بورتلاند: «عندما تضل الطريق فالزم مكانك حتى تسهل عملية البحث عنك».

زارني رجل مصري سأل عني طويلاً قبل أن يجدني ثمّ سلمني مظروفاً يحوي بضعة آلاف من الجنيهات ورسالة من زوج أمي أتذكرها تماماً «يا بني، أنا مستعد أعطيك أكثر من هذا المبلغ، ولكن أتمنى أن ترجع، وتتسامح من أبوك، ويرضى عليك». لم أكن أحتاج لهذا المال ولا لهذه الرسالة المحرّضة على البر الرتيب. كتبت له على ظهر الورقة نفسها مثل سلطان غاضب «عندما أقرر أن أعود، سأعود بدون أن يساعدني أحد في العودة!»، وأعدتها هي والمظروف النقدي مع حاملها.

لم يقاطعني أبي بعد عودتي كما توقعت. اكتفى بتخفيف التمثيل الأبوي له في حياتي إلى الحد الأدنى. وكمحاولة يائسة أخيرة وجدته يحاول دفعي للزواج لعل ذلك يعيد إليّ رشدي وصوابي. أخبرت عمتي فاطمة التي كانت رسولة أبي إليّ أني لن أتزوّج حتى أكون قادراً على تحمّل أعباء حياتي دون الحاجة إلى أموال أبي المتسلطة. قالت لي إنها مستعدة لمساعدتي في الزواج بأي فتاة أحبّها ولا تعرفها العائلة حتى تجعل الأمر يبدو عادياً ومقبولاً. شكرتها على ذلك وتهرّبت منها بصعوبة.

لم أكن أقرب إلى عمتي فاطمة أكثر مني أثناء هوسي بكتابة البحث. اكتشفت آنذاك وأنا غارق في الحماسة والعمل أنها مصدر لا يُستغنى عنه من المعلومات لأنها ثرثارة بطبعها وتمارس الغيبة بتلذذ غريب، ولأنها أيضاً دقيقة الملاحظة وشديدة الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة الملقاة تحت أقدام الأحداث عادة. كما أنها خالية أغلب الوقت بلا زوج ولا أبناء. لهذا قرّرت آنذاك استغلال ذاكرتها وما تحت ذاكرتها لمصلحة البحث العظيم.

ولكي أكسر الحواجز المعهودة بين العمة وابن أخيها لم أكن ألبس قبعته وأنا أستنطق ذاكرتها. تكلمت معها لغة مختلفة لعلي أظفر منها بمكاشفات أوضح. حدثتها باللغة السرابية التي تفتقر إليها كأرملة. الحب الذي غاب عن عمتي سنوات طويلة منذ ترمّلت. كشفت لها عورة القلب وأثرت اهتمامها بإظهار هوية عاطفية مزوّرة لعاشق يقصّ تفاصيل الحب الحميمة ويسقي عمّته من كؤوس لا يمكن أن تقاومها امرأة مر بها رجل لفترة قصيرة ثم

رحل، وبلغت من العمر ما لا يبشّرها برجل آخر في الأفق إلا في خيالها أو في واحدة من قصصي الملفقة. دغدغت هذه الكوامن المحبطة في داخلها وتلك المشاعر الجاثمة مثل حيوانات الفقمة الكسولة على شاطئ أنوثتها الراحلة. سردت عليها قصص علاقات وهمية تربطني بفتيات جميلات وأنا أجلس معها في مجلس النساء الكبير أو في جناحها من البيت، وألتقط أطراف اهتمامها بإشارات تلميحية أطلقها تعليقاً على مشهد في التلفزيون أو صفحة في الجريدة، فيبدأ النقاش الذي غالباً ما أوجّه دفته نحو جزيرتي بسهولة.

استنكرت عمتي بطبيعة اجتماعية متحفظة مثل هذه الحديث ولكن ما إن بدأ بوحي يتخذ جانب الشكوى وطلب المواساة حتى بدأت غمازتاها تظهران في وجنتيها موحيتين باقتراب ابتسامة متردّدة تنطوي على كمّ لا بأس به من الخبث والترقب. رحت أضغط كثيراً على الناحية الأضعف فيها وتكدّس أنوثتها في جسمها حتى الذبول دون منفذ تمرّرها منه إلى فم رجل. حدثتها عن قبلات ما مرت على شفتيّ، ولمسات لم يسمع بها جلدي قط، ولكني أصوغها أمام خيال عمتي المتأهّب الظامئ.

«الله يقطع ابليسك يا غالب.. أثرك منتب سهل!!»، ويفتر ثغرها عن ابتسامة طويلة لا تنتهي، وتتسع حدقتاها باتجاه الأنثى الداخلية التي تستيقظ بفزع على تيّار كلامي المتوالي، «وبعدين؟ عسى ما سوّيت في البنت شيء!»، بينما كانت تتمنّى أن أكون قد فعلت ما قلت حتى تسمع مني ما يحرّك ركودها الطويل ولم أكن أتورّع

عن اقتناص الكلام «والله يا عمتي ابن آدم ضعيف، والبنت فتنة!» وتضحك عمتي بعصبية بالغة.

خلال شهرين، صارت عمتي تستقبلني في مجلسها كلما ارتجف في داخلها ذلك الحنين الحائر تجاه قصصي وكلماتي. أصبحت تحفظ أسماء فتياتي وتسألني عنهن واحدة تلو أخرى. تمادت مرة فطلبت مني أن تهاتفهن وتلتقيهن، فأسقط في يدي، وتعذّرت بحيائهن فلم تلح عمتي في ذلك. ربما لخشيتها من أن أتراجع وأندم على انفتاحي عليها فأحرمها من القصص التي تحرّك رغبتها الأنثوية المعطلة.

أحدثت أكاذيبي ضجيجاً كبيراً في كينونة عمتي المستقرة والمعرضة للصدأ. أصبحت عيناها تبحثان في قصتي عن اللقطة الحميمة أكثر من الشجن العاطفي، وأصبح لساني يقودها وحده إلى ما تريد دون أن أنتبه إلى الاهتزازات العنيفة التي كنت أحدثها في جدار أنوثتها المغمورة. وعندما شعرت بأن المدى صار أضيق من أن أستمرّ فيه تراجعت قليلاً، وتعللت بأن القصص انتهت وأني أخبرتها بكل ما مرّ على قلبي من عجلات الحب ولم يعد عندي ما أضيفه. عندها انطلقت عمّتي في بوح طويل أخبرتني فيه الكثير عن ماضي أسرتنا الرتيب. وكان لأمي بالتأكيد نصيب وافر من هذا البوح.

كانت تكره أمي بلا شك، ربما لكثرة ما عرّضت بها أمي كعقيم رغم أن عمّتي تزعم أنها حملت مرة حملاً لم يكتمل، ثم مات زوجها فأنقذها موته من أن تلتصق بها التهمة المعيبة إلى الأبد. وأمي تكره

عمتي فاطمة ضمن كراهيتها لأبي وعائلته وقبيلته كلها. وهي كراهية تزداد يوماً بعد يوم حتى تحوّلت إلى شيء سخيف لا يضطر لسماعه إلا أنا وبدرية إذا جلسنا إلى أمنا فنتململ من الحكاية لتعيدنا أمي إليها مرة أخرى بإصرار عجيب على تدنيس أبي بالنقائص المبتكرة.

قرّرت بعد عودتي للرياض أن أكمل البحث حتى بعد طردي من الجامعة. سأنشره في كتاب يجعل الدكتور الذي تسبّب بطردي يندم على ذلك ندماً شديداً، وربما استخدمه يوماً كمرجع لتدريس طلابه. عدت للعمل بحماسة كبيرة. استرجعت أوراقي التي أودعتها حقيبة السمسونايت قبل سفري وعكفت عليها طويلاً. بدأت أسجّل أحداث عائلتنا بيتاً بعد بيت. اخترقت ذاكرة أمي وزوجها وأبي وعمتي. سافرت إلى أبها والتقيت ثابت مرة أخرى. اشتريت كتب تاريخ لم أتمكّن من تجاوز صفحاتها الأولى فانصرفت إلى الكتابة مباشرة. حللت ما كان مستغلقاً على الفهم وكشفت كل شيء كما بدا لي. تحوّلت الرياض إلى معمل أبحاث والناس إلى عيّنات عشوائية متناثرة فوق مكتبي. عشت وهماً جميلاً وبنيت لنفسي منصة تتويج صغيرة فوق سحابة رمادية واهية.

ولكن المدينة التي كادت لي فصلي من الجامعة بسبب عكوفي على بحث يفضحها لم تأبه لحماستي المتجدّدة تلك. راحت تراقبني وانأ أشعل عقلي مثل عود كبريت عجوز ثم تسخر من رأسه الملتوي القبيح عندما ينطفئ. كنت أستفزها كل يوم بالكتابة عنها. أدخل في أنفها مثل بعوضة منتحرة. اكتشفت أخيراً كيف تضطهد المدينة أبناءها. أيقنت أنه لو نشر هذا البحث لعرف الجميع كيف

يكيلون للرياض بمكيالين. ستتحول المدينة المهيمنة إلى مجرد عجوز منبوذة لديها شعوذات قديمة لم تعد تجدي ولا تؤذي. احتللت ببحثي مساحة واسعة من أرض المعركة وتقهقرت الرياض إلى كهوف احترازية كأنها عنكبوت وراحت تراقب هذا الشخص غير المألوف على شباكها. بدأت تكرهني جداً. المدينة التي تدّعي الرزانة تميّزت غيظاً من جرأتي ونزقي فرمتني أخيراً بحادث السيارة التي انقلبت بي عدة مرات بإيعاز مباشر منها وبتدبيرها مكاناً وزماناً، بكل حقد مدينة كبرى يستفزها ساكن بسيط. شعرتُ وأنا أتحرك في الحيّز البرزخي داخل السيارة المتقلبة بأنها لا تتقلب بدافع قوى الجذب والطرد والقصور الذاتي، بل لأن الرياض قد تحوّلت إلى مارد هائل وراحت تركل سيارتي بعنف.

٣٩

كانت القهوة التي شربتها في المطار وأنا ألوّح لغادة مودعاً حنونة وطيبة. مسحت على جبيني وربتت كتفي وشدت على يدي في آن واحد وكأن ثلةً من الأصدقاء الطيبين تسللوا إلى الكوب الطويل ذي العنق الكرتوني والقبعة البلاستيكية وذابوا جميعاً بين رغوة الحليب وأرومة القهوة. رشفتهم واحداً واحداً فمارسوا جميعاً ما تعوّدوا ممارسته في أركان الروح، ثم انطلقوا يصفرون معي وأنا أخطو خارج المطار مبتسماً للمارة وكأني قبطان شهير انتهت مغامرته للتو.

فرق بين اليوم الذي استقبلت فيه غادة في هذا المطار وأنا أظنها قادمة لتقطع حبلاً قديماً فإذا بها تحلّ منه عقدة وترحل. أشعر بأن علاقتي معها الآن واضحة مثل لوحة طفل: لا هي متقنة فنمعن في تبجيلها ولا هي غامضة فنتعب في فهمها. بوسعنا أن نحتفظ بها كذكرى جميلة ولا نغرق أو نمزقها مثل نفاية زائدة ولا نحزن. لم يتحول زمام الأمور إلى يدي بعد ما دامت قد غادرت دون أن

توضح لي مصير أيامنا القادمة، ولكن كل المصائر المحتملة تساوت في نظري ولم تعد موشومة بالقلق. إذا غابت فستخرج من روحي بهدوء بعد أن أزالت إقامتها القصيرة في شقتي كل الأوهام الصعبة، وإذا عادت، فستشاركني السرير والأريكة مثلما يشاركني كونرادو الفناء والمشواة.

قال كونرادو في المساء إنه أشفق عليّ من صحبة هذه المرأة. وصفها بشتائم متنوّعة بلغتين مختلفتين قبل أن يستدرك بنبرة حكيمة يندر أن تصدر منه «ولكني لا ألومك يا عزيزي غالب. النساء يتقلبن ويتغيّرن. أنا متأكد أنها كانت جميلة ولطيفة يوماً ما!». ولم أشعر برغبة في الدفاعِ عنها ولا في تعتيق هذه الحكمة الفلبينية في جبيني. كنت مبتسماً طيلة المساء مثل رجل نجا من حكم بالسجن المؤبد. احتفل كونرادو بعودتي إلى مسامرته في الفناء بعد أن ظلت غادة تأنف من ذلك طيلة شهر. اشترى قارورة نبيذ بنفسه هذه المرة وشوى خليطاً من المأكولات البحرية أجبرت نفسي على تذوّقها دون شهية. انضم إلينا جارٌ مكسيكي يعمل بواباً في فندق رخيص ومسنّ أميركي متقاعد عمل في السعودية بضع سنوات في الثمانينيات الميلادية. شربنا نخب أشياء مختلفة لا أتذكرها ولم أدخل شقتي حتى بزغ ضوء الشمس بين سحب الخريف الثقيلة.

وراء الباب كان الجينز الذي كانت ترتديه غادة لا يزال معلقاً على المشجب كأسوأ تذكار ممكن. لا أتخيّل أنها نسيته سهواً ولكني لا أتخيّل أيضاً سبباً يدفعها لأن تبقيه على مشجبي مثل نصف مآتة. لو أنها تركته عمداً لأنه قديم وبال ولا يستحق السفر فلماذا لم

تتخلص منه؟ وإذا تركته لأتذكرها به فلماذا لم تترك شيئاً أجمل؟ ألقيت به في حوض الحمام وقررت أن أقص منه قطعاً أصغر تصلح لتنظيف المشواة. رحت أفتش في الخزانة بحثاً عن ملابس أخرى قد تكون تركتها هناك.

لم أصدق حين لم أجد في الخزانة أثراً للزيّ التنكري الذي ارتدته غادة في الليلة الأخيرة. لم يكن على المشجب ولا في مكانها الخاوي من خزانة الملابس ولا في سلة القمامة ولا مكبّها الخارجي. أيعقل أن تكون قد أخذته معها؟ لمن سوف ترتديه يا ترى؟ هل هناك شخص غيري يمكن أن ترتدي له زيّ عاهرة بعد خلافها مع محسن؟ ألم تفكر أني قد أسأل نفسي هذا السؤال وهي تحزم حقائبها وتجمع حاجياتها؟ كم هي متناقضة وغبية. حتى وهي غارقة في شكرها لي ترتكب إهانة كهذه أثناء الرحيل.

وأنا أتقلب في فراشي متحيّناً فرص النوم فكرت أن غادة خرجت من حياتي بطريقة تافهة تماماً مثلما دخلت من قبل بطريقة تافهة. منذ تباطأت حركتها أمام النافذة في جدة وهي تعلم أن مراهقاً ما يتلصّص عليها من النافذة البعيدة، حتى رحلت من شقتي في بورتلاند بعد ذلك بعشرين سنة حريصة على أن تأخذ معها ملابس العهر التنكرية بلا مبرّر. عشرون عاماً، كان يمكن فيها أن نخلق جيلاً كاملاً وحيوات عديدة وأطفالاً لهم وجوه صقيلة وأخلاق قنادس، ولكن لا شيء منها الآن يمكن أن يملأ كوباً بلاستيكياً في يد شحاذ.

لا أعرف غلطة من يمكن أن تكون؟ هي التي بدأت علاقتنا بمنتهى النزق ثم استنزفتها تدريجاً حتى عادت متوجسة ومتحفظة، أم أنا

الذي اتخذت المسار المعاكس لذلك متحفظاً في بدايتها ونزقاً في نهايتها. لا أشعر برغبة في تقسيم الذنوب بعدالة. لم تفعل غادة ذلك يوماً فلماذا أضطر إليه الآن؟ عليّ أن أفكر بمصلحتي مثلما تفعل هي. غادة لذيذة في مواضع وتافهة في مواضع أخرى. يجب أن أكون أكثر صراحة في التعبير عن ذلك من الآن فصاعداً.

وصلت الرسالة التي تنبئ بوصولها إلى لندن أخيراً. «برررررد... وصلت يا عسل. باي». أجبت عليها بشكل تقليدي وهادئ. ينتابني الفضول لأعرف ما ستنتهي إليه جلسة الصلح المرتقبة بينها وبين محسن ولكني لن أسألها. طالما تقت لأن تشركني غادة في شؤون عائلتها ولكني الآن أشعر بأن الأمر شائك وغير محبّب. ماذا لو وجدت نفسي يوماً طرفاً مكشوفاً في هذه العلاقة الزوجية المتوترة؟ هل بوسعي أن أكشف وجهي لعائلة كاملة بعد أن ظل خفياً طيلة هذه السنوات؟

إنني أبدو أمام نفسي حكيماً لأول مرة وأنا أفكر بها بهذه الطريقة. لا أعتقد أني سأحرص على لقائها بعد ذلك إلا احتراماً للود. عليها أن تعيش كما تريد وأعيش أنا كما أريد. لقد نجوت هذه المرة بأعجوبة من خطأين كبيرين: الدخول في المنعطف المتأخر مع امرأة مثلها وأن ينفد صبري النبيل عليها في اللحظات الأخيرة. لا يمكن أن أسمح باحتمالات كهذه أن تتكرر.

مرت ثلاثة أسابيع ولم تصلني منها أي رسائل. توقفت عن الصيد بعد أن أصبح وابل المطر مستمراً بلا توقف مثل تيار كهربائي. أخبرني مكتب الهجرة أن أوراقي في طريقها للموافقة شرط أن أقوم

بإجراءات بنكية معيّنة لأثبت قدرتي المالية على إعالة نفسي. قرّرت أن أنخرط في معهد لغة لأحسّن من إنجليزيتي الركيكة ولكني انقطعت عنه في الأيام الأولى. شعرت بأن دخولي قاعة الدراسة مع طلبة بنصف عمري يؤذيني بالقدر نفسه الذي يحدثه تأمّل وجهي في المرآة لساعة كاملة.

آخر الشهر وصلتني عدة رسائل في يوم واحد وكأني عدت للتو من رحلة خارج الكوكب. أخبرتني غادة أن محسن لم يتزوّج المرأة المغربية وأنها كانت علاقة بدون زواج. أخبرتني بدرية أن أبي قد يجري عملية لاستئصال جزء من الكبد لم يعد مستجيباً للعلاج. وأخبرني داود أن أمه ماتت في المنزل بعد أن نصح الأطباء بخروجها من المستشفى لاستحالة علاجها. كرّر عليّ سلمان في رسالة هاتفية ما ذكرته لي بدرية عن أبي. اتصلت بأمي لأعزيها في مرضعتها فأخبرتني أن حسان يستعد للسفر إلى أميركا قريباً في دورة تدريبية من جهة عمله.

– وأنت متى بتجي؟

– قريب إن شاء الله. الوالد تعرفين بيسوّي عملية ولازم نكون جنبه.

– وش عمليته؟

– استئصال جزء من الكبد.

– يا كافي. لا حول ولا قوة إلا بالله. هذي آخرة اللي ما يحتمي ولا ينتبه لصحته.

– ....

– وش لقى من هالركض ورا الدنيا والفلوس. الله المستعان!
– الله المستعان.
– آخرة الإنسان للتراب، حيث لا ينفع مال ولا بنون!
– ....
– وحسان بيصير حولك في امريكا ولا شلون؟
– لا يا أمي. تكساس تبعد عني كثر ما تبعد الرياض عن مصر.
– خلاص يا ولدي أرجع وتزوج وشف لك شغل. ما يصير هالعومة الفاضية....
– ان شاء الله ان شاء الله. توصين شي؟ انا لازم اقطع الخط.
– ....
– مع السلامة يمه.

القندس الذي يبلغ عمري دون أن يكون عنده سد وقنادس صغيرة موعود بالكآبة والنبذ. لهذا هربت من هذه المحاكمة بعدما تراكمت عليّ التهم. يبدو أن أقصر طريق للدفاع عن نفسي هي أن أنكر كوني قندساً. أخلع عن جلدي الفرو الذي ليس لي وأنزع الأسنان التي لم تقضم شيئاً نافعاً. هذا ما استعنت ببورتلاند عليه منذ البداية. تملصت بصعوبة من جذوري ولا أظن أحداً من عائلتي فعل مثل هذا. ما زالوا يجمعون الجذوع اليابسة جميعاً منذ عرفتهم وحتى تركتهم ولن يتوقفوا عن ذلك أبداً. قررت أن أفر عن المشاريع المغلقة التي تورّطنا فيها الحياة وتجعلنا قنادس. هذا

السدّ، هاجس الحماية الأزلي، مشروع مغلق لا يمكن أن ينفتح على اتجاه جديد مهما تغيّرت الأجيال.

محاولاتي الدائبة للانفصال لا يفهمها أحد حتى أنا. لطالما فسّرتها على أنها فشل ذريع بينما لم تكن إلا تمريناً غير مكتمل على انفصال موعود ولتوّه اكتمل بصعوبة بالغة وأنا في الأربعين. شيء ما دفعني خارج العائلة أو أنه كان قدراً لم أستجب له مبكراً. المولود الذي انتظر والداه ولادته حتى يكملا طلاقهما المؤجّل في جدول أعمال أبي وجدول أحلام أمي لا يمكن أن يتصرّف بغير هذا. منذ عرفت هذه الحكاية وأنا أفسّر الأمر كل سنة بطريقة مختلفة. حزنت عليه أثناء المراهقة عندما كنا نبحث عن أسباب للحزن والتظلم من الأقدار، وفخرت به في العشرين عندما كنت أجرّب طعم اللامبالاة والسخرية من الكون، وتدبّرته طويلاً في الثلاثين عندما كنت أكتب بحثي وأحاول تفسير الرياض، والآن وأنا في الأربعين من العمر أشعر بأنها كانت إشارة قدرية غامضة جعلتني أجرّب صيد السمك على ضفة نهر بعيد بدلاً من أن أكون على رأس عائلة معجونة بتفاصيل الرياض في حيّ من أحيائها المحتقنة.

٤٠

فقد أبي صوته إلى الأبد وانفصل الانفصال الكبير مخلفاً وراءه سداً هائلاً وأبناءً مخلصين لسلوكه وقوانينه. عندما وقفت لاستقبال المعزّين لم يعرفني أكثرهم واتجهوا إلى سلمان ليخصّوه بالعزاء. كان أشد أيام حياتي حزناً رغم أن الجميع بلا استثناء كانوا يظنون أني سعيد في قرارة نفسي برحيل الرجل الذي عاركني كثيراً. شعرت لوهلة بأني فقدت سدّي قبل أن أتعلم بناء السد وخصمي قبل أن أتقن فن العراك.

مات في غيبوبته فلم يترك لي واحدة من تلك النظرات النبيلة التي يحتفظ بها الأبناء مثل الأناجيل ويفسّرونها في ما بعد كيف شاؤوا. ولكني كنت أعرف كل ما يمكن أن يقوله على أية حال. لم أنتظر منه نظرات أكثر من التي جمعتها منه طيلة عمري. طالما أراد مني أن أكون ما لا أريد. هذا التنافر المعتاد لم يجعله أباً كافياً ولم يجعلني ابناً باراً. كنا منفصلين قبل أن يموت بسنوات طويلة.

إبان أيامه الأخيرة بعد إجراء العملية، كان ينتظر وقت زيارتي

حتى يستعيد وجهه العابس الذي تعوّد أن يطالعني به حتى شعرت بأنه صار يخجل أن يطالعني بوجه آخر. وأنا لم يكن عندي وجوه كثيرة أطالعه بها غير الوجه الجامد، والوجه المتسامح، والوجه الحائر، ألبس أحدها تلو الآخر حسب ما يكون عليه مزاجي وأدلف حيث أبي فلا يتغيّر شيء أبداً. أستطيع أن أهذ دون خطأ كل الحوارات التي دارت بيننا في السنوات العشر الأخيرة ولا أجد أولها اختلف عن آخرها كثيراً.

لم أنتظر موته كما يظنون ولكني أخطأت في توقعه. كنت أعتقد أنّ أبي يجدر به أن يموت قبل عشرين سنة على الأقل أو لا يموت أبداً. ما معنى أن يموت وأنا في الأربعين، فلا أنا أدركت الذي مضى ولا أملك طاقة كافية لما سيأتي؟ شيّبني أبي معه وهو يشيب، ثم مات وخلفني وحيداً بين قنادس أنانية، كلهم يتّهمونني بالعقوق ولا يغفرون.

عدت من المقبرة ودلفت إلى فيلتي وبكيت طويلاً دون أن أعرف سبباً لبكائي. كنت أشعر بأن تغيّراً كبيراً حدث وأنا غير مستعد له. كل ما أفهمه هو أني يجب أن أبكي كثيراً حتى أستعيد توازني ثم أرى بعد ذلك ما أنا فاعل. أشعر بأن أقل ما أكنّه لأبي من ودّ نابع من الألفة على الأقل. هذا الرجل عاش معي في الناصرية والمربع والفاخرية، وقضيت معه سنوات أطول بكثير من التي قضاها معه إخوتي، رأيت وجهه قبل مشيبه وبعد مماته، فماذا رأوا هم؟

العزاء نفسه كان أثقل شيء على الإطلاق. إلا أن ما بعده من أرقام وحسابات وتقسيمات للإرث أحرقت ما بقي في صدري

من عشب جميل. اتصل بي سلمان بعد أيام قليلة من انتهاء العزاء ليدعوني للاجتماع مع الأسرة في مجلس شيخة. عندما وصلت كانوا قد بدأوا الكلام فعلاً حول شأن ما وبعد أن انتهيت من السلام عليهم استأنفوا كلامهم من حيث توقفوا دون أن يكلف أحدهم نفسه أن يسرد ما فات من الحديث للأخ الأكبر. تركتهم يتحدثون ورحت أشد على يد عمتي فاطمة التي تحوّل أنفها إلى كهفين عميقين من فرط البكاء. مررتْ لي بدورها فنجان قهوة وقرّبت مني طبق رطب فرحت آكل منه على مهل، وبدا كأننا المتفرجان الوحيدان على مسرحية تقسيم إرث حزينة.

اتفقنا على أن نذهب جميعاً إلى المحكمة الكبرى صباحاً لنصدر صك حصر الورثة. نسيت أن عمتي لا ترث وشعرت بالحرج بعد أن قلت لها بينهم جميعاً «تروحين معي في سيارتي يا عمة»، فأجابت بحرج أكبر «ليه يا ولدي، وش أروح أسوي!». نظر إليّ سلمان وهو يبتسم باستنكار ويستفهم منّي بيده. قرّرت أن أصمت حتى لا أرتكب أخطاءً أخرى.

ذهبت إلى المحكمة بصحبة داود ليشهد على الصك وتدبّر سلمان أمر الشاهد الثاني من مرتزقي الشهادة في ساحة المحكمة. جاءت بدرية مع زوجها الذي أعاد عناقي وعزائي مرةً أخرى بحميمية زائدة بينما حيّتني بتبرّم وكأنها كانت تتشاجر مع زوجها في السيارة قبل أن يصلا. تجاهلت وجود داود فلم تصافحه وكأنه ليس خالها. وصلت شيخة وابنتاها متأخرات وبدا سبب التأخير واضحاً على هيئة كوب ستاربكس يتأرجح في يد منى. بطن نورة منتفخ

بجنين على وشك النضج لم يخبرني أحد عنه وأخشى ألا يخبروه عني إذا ولد. كان سلمان قد سبقنا جميعاً منذ الصباح الباكر ليحجز موعد الجلسة ويرتب المستندات المطلوبة.

استدعانا القاضي جميعاً إلى الداخل. جلست في آخر مقعد من القاعة وراح القاضي يقرأ أسماءنا ويسأل كل واحد منا أن يعرّف بقرابته من المتوفى، ثم سأل داود عنّا جميعاً فخلط الأخير بين نورة ومنى. صحّح له سلمان خطأه ونظر إليه شزراً فتمنّيت لو أنه يسيء مخاطبة خالي حتى أجد سبباً مناسباً للعراك معه في منتصف قاعة المحكمة هذه. كان يثير حنقي وهو يدير كل شيء وكأنه أصبح خليفة أبي فعلاً ولا أحد ينازعه هذا المنصب.

قرأ القاضي أفكاري الحانقة وأنا أجلس في المقعد البعيد فسأل بعد أن أنهى كتابة الصك: «أين الابن الأكبر؟». فوجئ سلمان بالسؤال وداري ارتباكه بالابتسام وهو يجيب القاضي مشيراً إلى مكاني «موجود. هناك طال عمرك»، ثم ناداني «غالب..». هممت بالوقوف ولكن القاضي أشار إليّ بأن أجلس قائلاً «خلهم يروحون ينتظرون برا وأنت استرح معنا شوي».

انسحبوا جميعاً وبقيت أنا في انتظار أن يعظني القاضي موعظةً ما. أطال تقليب الأوراق التي أمامه وهو يهمس للقاضيين الملازمين عن يمينه ويساره. رحت أفكر في ما يمكن أن يعظني به وكيف أرد عليه بسخرية مهذبة على الطريقة الأميركية. لا أظن موعظته ستكون عن ثوبي الطويل لأن ذلك لا يستدعي الانفراد بي. ربما سيلفت انتباهي إلى حجاب منى غير المنضبط وكيف أني أصبحت وليّ

أمرها الشرعي الآن، أو ربما سينصحني بالتخلص من أسهم البنوك الربوية التي يملكها أبي ونوشك أن نقتسمها.

رفع القاضي رأسه نحوي وخاطبني باحترام شديد «أخ غالب. رئيس المحكمة وجّهنا أن نحيلك إلى فضيلته. حنا أرسلنا له الصك الآن. وهو جاهز. ولكنه يريد أن يسلمك إياه بنفسه. المشكلة أنه غير موجود اليوم. ومعليش لو بنتعبك معنا تمر بكره الصباح وتجده في مكتبه».

– إن شاء الله.

– لوحدك يا أخ غالب. ما يحتاج حضور العائلة.

– إن شاء الله.

– بارك الله فيك.

خرجت لأجدهم جميعاً قد غادروا باستثناء سلمان الذي استقبلني هاشاً ومستفهماً. لا أعرف كيف يستشعر هذا الفتى أني حانق عليه فيعاملني بلطف حتى يفوّت عليّ فرصة الانفجار في وجهه مثل أخ أكبر حزين ومهجور. أخبرته الشأن فأطلق أسئلةً عديدة لم أجبه عنها. هزّ رأسه ومط شفتيه بتذمّر لامبالٍ ثم قال:

– خلاص. الله يعيننا عليهم. بكره نجي نشوف وش عندهم.

– الشيخ يقول أجي لوحدي.

– لا لا. يمكن قصده ما يحتاج الحريم يجون. لكن أنا بجي معك. أصلاً ما عندي شغل بكره.

بالتأكيد سيأتي. كل ما يدور في ذهن سلمان أني ساذج إلى حد عدم المقدرة على تسلّم صك بسيط من رئيس محكمة وربما خشي

أن أفقده في الطريق من المحكمة إلى البيت مثلما يفقد الصبية حقائبهم المدرسية. أطفأت حنقي تماماً وأنا أشعر بألاّ جدوى من مراكمته في صدري ما دمت راحلاً عما قريب. سيختفي هذا الأخ المتأنق من شاشة حياتي تماماً. سأعود إلى بورتلاند حيث تنتظرني شقتي وكونرادو والمشواة وويلامت والمطر الناضح من جبين الصباح. أعلم يقيناً أني سأسمع عن هذا الفتى المغرور أخباراً مروّعة قريباً. لا شك في أنه سيبلي نصيبه من المال ويبلى معه.

وقفنا معاً أمام رئيس المحكمة الكبرى صباح اليوم التالي بعد أن قضينا دقائق أقل من المعتاد في غرفة الانتظار. لم يعترض رئيس المحكمة على وجود سلمان. أومأ لنا بالجلوس أمام مكتبه وأشار لساقيه بأن يقدّم لنا القهوة. كان يجلس أمام مكتبه أيضاً رجل أسمر البشرة وقصير القامة وفي ثيابه بعض الرثاثة ظننتُ أنا وسلمان أنه رجل لا علاقة له بصكّنا. بعد أن شربنا القهوة طلب منا رئيس المحكمة الانتقال إلى غرفة ملحقة بالمكتب فقام معنا الرجل الأسمر القصير. قال الرئيس كلاماً طويلاً وكاد سلمان يبكي بينما اكتفيت أنا بتأمل الأوراق التي قدّمها الرجل الأسمر وكأنها صحيفة قديمة.

ألم يكن بوسع أبي أن يمرّر لنا هذه المعلومات الحادة بنفسه ونحن نتحلق حوله إبان مرضه؟ لماذا تركنا نسمعها من فم رئيس المحكمة الكبرى في الرياض وكأننا خصوم أزليون ولسنا أبناءه؟ إنها ليست حكاية أسطورية ليحجبها ولا سراً كونياً ليكتمه، فماذا كان يدور بخلده ياترى وهو يموت دون أن يلقي بالاً لهذه الحقائق البسيطة عن ثروته؟

إنه لا يملك ما كنا نظنه يملك. هذا واضح جداً كما قرأنا في الأوراق العديدة التي قدّمها الرجل الأسمر القصير وهو يطرق بارتباك وكأنه ينتظر ثورةً متوقعة. يملك أبي الملايين السبعة القابعة في حسابه الجاري. ويملك بيت المربع الذي تهدّم وصار سكناً لعمالة آسيوية. يملك أيضاً حصةً صغيرة من شركة خاسرة لصناعة المكيّفات الصحراوية طمأننا الشيخ أنها ذات مسؤولية محدودة. يملك أسهماً قليلة في شركة بيشة الزراعية، وأسمنت القصيم، وبنك الرياض، أخبرنا القاضي بعد أن اطلع على كشف حساب بنكي أمامه أنها مقوّمة بخمسمئة ألف ريال. وبعد أن قرأ رئيس المحكمة قائمة الممتلكات أضاف: «هذا ما يملكه والدكم. أسأل الله أن يوسّع له في قبره، ويبارك لكم في إرثه..».

كان هذا يعني أن أبي لا يملك متراً واحداً من تلك الأراضي الشاسعة الممتدة شمال الرياض بامتداد أحلام سلمان، ولا تلك الأسهم الرابحة التي خصّها أبي بحساب بنكي خاص دون بقية الأسهم الرديئة، ولا الأرض المواجهة للبحر في جدة التي كثيراً ما ألح عليه سلمان بأن يبنيها ناطحة سحاب تخدش السماء. حتى بيت الفاخرية اكتشفنا أن شيخة تملكه وحدها منذ عشر سنوات. كل هذه الأملاك، رغم أنها مسجّلة باسمه حتى اليوم في الأوراق الرسمية، كان قد تنازل عنها جميعاً بخط يده الذي تجري عليه عيوننا الآن فوق الأوراق التي قدّمها الرجل الأسمر القصير، الوكيل الشرعي لأكثر من ستة مسؤولين كبار كان أبي يسجل أملاكهم باسمه مقابل عمولات صغيرة.

كان وقع الصدمة عليّ أخف بكثير منه على سلمان الذي دمعت عيناه فعلاً ونحن نخرج من المحكمة. قبضت على يده ونحن نمشي باتجاه السيارة وكأني أخشى أن أفلته فينطلق مثل سهم محموم نحو المقبرة وينبش قبر أبي. أخبرته أني كنت أتوقع شيئاً كهذا من واقع أخبار قديمة تسرّبت إلى سمعي طيلة سنوات ولكني لم أتوقع أن أبي كان مفاوضاً سيئاً إلى هذا الحد. حكيت له ما أتذكره من جلسات المحاكمة التي حضرتها مع أبي عندما كان سلمان طفلاً، وكيف أن أبي حينها كان في وضع أسوأ بكثير إلى حد الإعسار، ومن حسن حظنا أنه تمكن من تجاوز ذلك في عشر سنوات ليترك لنا ما ترك.

أصبحت قسمة الأموال السائلة سهلةً ولا تستحق النزاع. أبرم سلمان عقد إيجار بيت المربع لعمالة أجنبية بمبلغ زهيد تنازلنا عنه بالاتفاق لعمتي فاطمة ليصبح دخلها الوحيد فيما بقي لها من العمر. أوكلنا لسلمان مهمة التخارج من الشركات الخاسرة وبيع حصصنا فيها بأي مبلغ كان. تولى البنك توزيع المال والأسهم وتحويلها مباشرة إلى حساباتنا البنكية بعد أن تسلّم منا صك حصر الورثة. في أقل من أسبوعين، أخذ كل قندس نصيبه من قوت الشتاء والصيف وقرّر أن يعيش ربيعه أخيراً.. قبل أن يدهمه الخريف.

محمد حسن علوان

أتاوا - ٢٠١١

الموقع الإلكتروني للمؤلف
www.alalwan.com

«.... منذ أن سكنا في الفاخرية وأبي يتعامل مع الناس وكأنه فاتح منتصر لا ساكن جديد. يبني المسجد ويغير أسماء الشوارع ويتدخل حتى في أمزجة العابرين ولوحات المحال التجارية. اضطر صاحب المغسلة المجاورة لأن يتكبد مصروفاً إضافياً لتغيير ماسورة تصريف المياه التي كانت تقطر في الشارع بعد أن وبخه عدة مرات وهدده بإقفال المحل. لم يكن صاحب المحل اليمني يعرف أبي فتخيل أنه يملك القدرة فعلاً فرضخ لمطالبه رغم أنه نادراً ما يمر بتلك الجهة من الرصيف، حتى إذا فعل يوماً قفز البائع الهندي في محل البقالة المجاورة من مكانه ليقدم له قطعاً من الحلوى والفاكهة يأخذها أبي منه باستخفاف ليلقيها في حجر المتسولة التي تستوطن ركناً ثميناً من الحي منذ سنوات...».

محمد حسن علوان كاتب وروائي سعودي. صدر له في الرواية عن دار الساقي «طوق الطهارة»، «صوفيا»، «سقف الكفاية».

ISBN 978-1-85516-836-7

9 781855 168367 >

DAR AL SAQI
دار الساقي